هشام الخشن

شلة ليبون

رواية

الدار المصرية اللبنانية

إهداء

إلى مَن عشقت قلوبنا سكناهم

فيها عبر السنين..

شكر واجب

ننسى أحيانًا أن نشكر من أثروا تجربتنا. أود أن أشكر هنا قرائي وناشري الذين آزروني منذ لحظة البداية؛ لولاكم ودون مساندتكم وتشجيعكم ما تحقق الحلم ولا طال المشوار.

أشكركم من كل قلبي..

«هشام»

الحياة هي ما نفعله بما اختاره لنا القدر

ليلة رأس السنة 1978

على ضفاف نيل الجيزة

على عكس الصخب الذي كان قد بدأ يكتنف القاهرة في ليلتها، عمَّ الهدوءُ صالةَ قمار فندق الخمس نجوم التي أديرها. أعرف أن كثيرين انطبعت في أذهانهم صورةُ «الكازينو» الباهرة من الداخل، ولعلَّ ذلك تسبَّب فيه الأمريكان بنموذج لاس ڤيجاس التجاري كما سوَّقته أفلام هوليود ومسلسلاتها.

تصميم صالتي استُعير أكثر من تلك الصالة الشهيرة في مونت كارلو؛ إضاءة خافتة، وألوان ديكورات تميل إلى القتامة التي تضفيها التجاليد الخشبية المحيطة بالمكان لتجعله أقرب إلى متاحف أورُبَّا وقصورها الملكية، وموسيقى تتسلَّل إلى الآذان هادئة حدَّ الرتابة، غالبًا ما تنتمي إلى ما يُعرف بموسيقى المصاعد، والتي سرعان ما يتبخَّر أثرها – إن كان ثمة أثر لها – من أسماع روَّاد المكان.

أكملت دورتي حول الصالة، ووقفت قرب المدخل، مددتُ يدي لأُخرج سيجارة من جيب الجاكيت، أشعلتها وسحبت عدة أنفاس وأنا أنظر نحو باب «الحجرة الخاصة». لم يكن بالصالة المفتوحة

سوى لاعبَين أو ثلاثة على الأكثر، لكنني كنت أعرف أن جوقة صاحب السمو تصخب خلف ذلك الباب المغلق. شعرتُ بابتسامة تتسلَّل إلى وجهي حين تصوَّرتهم جالسين حول طاولة البوكر يلعبون بسذاجتهم لعبةً تحتاج إلى فطنةٍ وذكاءٍ يفتقرون إليهما.

قررتُ أن أدخل لأتأكد بعيني من صدق حدسي. فتحت الباب بهدوءٍ شديدٍ ودلفت إلى الداخل بعد أن أغلقته بنفس الهدوء والحذر؛ لأقف في ركن قريب أشاهد مجريات اللعبة. لم يكونوا يلعبون بوكر عاديًا: بل ما نسميه «تكساس هولديم» ذلك التطوير الذي أصبح الأشهر والأكثر طلبًا منذ بداية السبعينيات في كازينوهات العالم الكبرى.

يتصدَّر صاحب السمو الطاولة ربما لبدانته وليس لمكانته. هو زعيم قبيلة إفريقية أتاحت له الوصول لحكم إحدى المقاطعات في بلاده التي تحرَّرت من الاستعمار قبل سنوات قليلة. يرتدي قميصًا شديد الزركشة تتماهى خيوطه اللَّامعة بألوان زاعقة مزعجة للأعين. بدا لي كطاووس بدين يتوسط مرافقيه الأربعة الذين أفصح لونُ بشرتهم وملامحهم عن أنهم من أبناء قبيلته. وضح لي أنهم الجوقة المنوط بها مهمة تسليته والالتفاف حوله إن أراد مَن يُسرِّي عنه.

واصلت مراقبتهم دورًا تلو الآخر. الأوراق تُوزَّع والرهاناتُ توضع بعدما يستطيع كلُّ لاعب أول ورقتين يحصل عليهما، ثم تنزل الورقات الثلاث المكشوفة من يد الموزِّع إلى منتصف الطاولة لتبدأ

دورة أخرى من الرهانات بعد أن يقرّر كلُّ لاعب مدى ملاءمة ما بيده من أوراق مع ما انكشف في منتصف الطاولة.

اعتدتُ وأنا الذي أمارس هذه اللعبة منذ أمدٍ بعيدٍ أن يستمر عند هذا المنحنى من اللعب منافس أو منافسان على الأكثر، ولكن المدهش في تشكيلة لاعبي هذه الليلة أن أحدًا لم ينسحب في أي دور. تضاعفت دهشتي مع استمرارهم في المراهنة بعد نزول الورقة الرابعة، واستمرار أغلبهم بعد نزول الخامسة والأخيرة أيضًا. اقتربتُ أكثر وبدأت أدور حول جلستهم دون جلبة كي لا أُشتت انتباههم. ازداد اندهاشي وأنا أكتشف أن بعض مَن يملكون أوراقًا فائزة سرعان ما يعلنون انسحابهم تاركين المجال لمَن هم أقل فرصة للفوز، وبعد دورة أو دورتين أيقنت أنهم يخسرون طواعية لصاحب السمو، وأنه دون غيره، مَن يفوز في كل الأدوار التي شهدتها منذ دخلت هذه الغرفة.

تسلَّلتُ مرة أخرى إلى ركني البعيد، أرقب لعبهم وأُدوِّن في ذهني مآخذي على طريقة كلٍّ منهم في اللعب، خاصة مَن بدا سعيدًا بمكاسبه المتالية. وقبل أن يبدأ الموزِّع دورًا جديدًا، أومأ متصدر المنضدة له ليتوقف قليلًا، ثم نظر إليَّ مُتحدثًا بإنجليزية ثقيلة:

- ما رأيك في مستواهم؟

أجبتُ في أدب مصطنع:

- ممتاز يا صاحب السمو.

- ممتاز؟! يا رجل إنهم لا يعرفون ألف باء اللعبة من الأساس!

لم أجد إجابة تتناسب مع ما يُمليه بروتوكول التعامل معه فآثرت الصمت.

- تعرف كيف تلعب يا يسري؟

أجبت مبتسمًا لما وجدته متذكرًا اسمي:

- نعم سيدي.

- واضح أنك ماهر في اللعبة.. انضم إلينا!

فركتُ يدي وأنا أرفض طلبه بنفس هيئة الأدب المصطنع:

- ممنوع سيدي.. ممنوع وغير قانوني

- اترك لي القانون، العب معي!

ثم التفت إلى مساعد ذي ملامح مصرية يقف خلفه:

- أحضر «فيش» بمليون جنيه للأستاذ يسري من خزينة الكازينو!

تملكني الذهول وأنا أُنصتُ للأمر الذي أصدره. سَرَتْ في جسدي قشعريرة لم أدرِ إن كانت من وقع المبلغ الذي أمر بإحضاره، أم من الجُرم الذي صرتُ على وشك ارتكابه إذا ما استجبت لمطلبه!

محاولة بائسة قمتُ بها حين أوقفت مساعده عند باب الحجرة وأنا أقول بصوت المستغيث:

- ممنوع يا فندم.. لا أستطيع.

عـلا صوته مسـتغربًا توقُّف مسـاعده عند البـاب دون أمره، فزجره صائحًا:

- أحضر الفيش فورًا!

نبـرة الحسـم في صوته لـم تترك لـي مسـاحة للمجادلـة فالتزمت الصمت، أو بالأحرى ارتعدت في صمت!

مركـزي كمدير للكازينو يمنعني من اللعـب على طاولاته، كما أن جنسـيتي المصرية تجعلني أخالف قانون ممارسـة القمـار الذي يمنع المصريين من لعبه، بل يمنعهم من دخول صالات القمار نفسـها. هذا هـو القانـون، وأنا هنا فقط كمدير مسـئول، ومسـئوليتي تحتم عليَّ أن أمنع أي مصري من مجرد الدخول لا اللعب، وأن أُبادر بإبلاغ شـرطة السـياحة عن مثل هذه المخالفة. نعم لديَّ الجنسـية الإنجليزية، لكني إن لعبتُ سـأُخالف كل قوانيـن كازينوهات العالـم، لا مصر وحدها. يحق لي زيارة أي صالة أخرى واللعب داخلها، لكن لا يحق لي - ولا يصـح - أن ألعب بالمكان الذي أديره. ثم ماذا عن هذا المبلغ الرهيب الـذي طلـب لي فيشًـا بقيمته؟ مليون جنيـه؟! أي جنون؟! ثـم ماذا إن خسرت؟ هل سأُصبح مدينًا بهذا المبلغ الذي لا أُطيق تحمُّله؟

مـا لبث المسـاعد أن عاد حامـلًا الفيش الذي أُمـرَ بإحضاره. بينما أشـار سـموه إلى أحد الجالسـين أمامه، فسـارع بالنهوض من مقعده، وأومأ لي أن أجلس محله. بادرني قائلًا:

- اسمع يا يسري.. اللعب بيني وبينك فقط.

سكت برهة ثم عاود حديثه:

- لو فُزت.. لك 2 مليون كاملين، المكسب كله لك!

عاد لصمته وكأنه يفكر في قرار يهم باتخاذه، ثم قال:

- أمَّا لو كسبتُ أنا فستدين لي بمليون جنيه.

أيقنتُ من طريقته في الحديث، بعد تفكيره القصير، أنه اعتاد تقديم مثل هذا العرض من قبل. حاولتُ ألا يشي وجهي بما يجول داخلي، وأزِن عبارته كلمة كلمة. استفزني تهكُّمه بعض الشيء:

- أين روح المغامر داخلك يا سري؟

أعرف أن أهم سمات اللاعب المحترف ألَّا تكشف ملامحه عمَّا ينبض قلبه. تركَّز كلُّ فكري في أن أمحو عن وجهي أيَّ تعبير كان. لكنه، بثقةٍ شديدة، بل بصلفٍ، رفع سبابته أمام عيني وأنذرني:

- فكِّرْ في عرضي! خمس دقائق لا غير، بعدها العرض لاغٍ.

نهضت من مقعدي، وبخطواتٍ سريعةٍ فتحت الباب تاركًا الغرفة بمَن فيها، أشعلت سيجارة، وسحبت عدة أنفاس طويلة حتى غشيتني سحابةٌ كثيفة من الدخان. الحل المثالي والأكثر عقلانية أن أواصل خطواتي باتجاه بوابة الخروج وأغادر الكازينو. لكن شيئًا بداخلي، لعله ما أسماه غريمي المتنظر بروح المغامر، تجاهل «ما يجب» وقفز بي «إلى ما أرغب»!

امتـلأت أذناي بصوته الجهوري يُردد رقـم المليوني جنيه. فكرتُ فـي أنني سـأواجه لاعبًا لا يمكن وصفه إلا بالهـاوي الأرعن. يظن أنه متمكن من اللعبة، وهو يُدرك أن منافسيه يخسرون له عن قصد وعمد. تملكتنـي روح التحدي وثقتي من قدرتي على سـحقه. قبض اللاعب الماهـر بداخلـي على عنـان عقلي، فتبخَّـرت أفكار الحيطـة والحذر. طمسـتْ ثقتي أية احتمالية لخسارة قد تحدث على غير المتوقع لأمهر اللاعبين وأكثرهم خبرة. تلاشتْ أي ذكرى لخسـائر سابقة وأنا أحصي فـي ذهنـي مجمل المكاسـب التي تنتظرنـي على الطاولـة خلف باب الغرفة المغلق. أصبح مذاق عرضه القاسي شديد العذوبة حين تذكَّرتُ الخسـائر والديون التي تراكمت عليَّ في الفترة الأخيرة، وأنا أتنقَّل بين طـاولات البوكـر في وسـط القاهـرة على مـدار الشـهرين الماضـين. سأُسـدد العشـرة آلاف جنيه التـي يُطاردني أصحابها، وسـيتبقى لي ما سيُشعرني بالأمان ودفء الثراء الذي لم يكن في حسباني.

فكـرتُ مـن جديد فـي قـدرات ومهارات مَـن يتحدانـي، فخانتني ابتسـامة واسـعة عريضة يبدو أنها لفتت أنظار مَن يعبرون إلى جواري، إذ أدركـت أنـه لا يعي ما ينتظـره. فركتُ كفَّيَّ وأنا أكاد أشـعر بملمس المليونين حين أغادر بهما هذه الصالة بعد انتصار سـريع وسـهل على هـذا الرجل. يظـن أنه تحدَّى غـرًّا مبتدئًـا، وأنا مَن تشـهد له طاولات مونت كارلو ولندن ولاس ڤيجاس. نعم! صادفني سـوء الحظ أحيانًا، ولكن قدراتي دون شـك تؤهلني لسـحقه، وأن أقوم مـن على الطاولة وقـد حصدتُ كل ما عليها. لم أعد مترددًا في قراري، حتى من الناحية

القانونية فقد تيقنت أنه، وهو مَن هو، سيؤمنني من شر أية مساءلة قد تطالني.

أطفأت السيجارة وتخلصت من عقبها واستدرت ناحية الباب بخطوات واثقة. عبرتُ إلى الطاولة وسحبت مقعدًا وجلست قبالته، هذه المرة بوجه لاعب البوكر الخالي من التعابير. نظرت بهدوء -وسط ترقب المحيطين- إلى موزِّع الأوراق، قُلت:

- وزِّعْ!

بدأتُ الأدوار، كانت أمامي عشرون فيشًا، كل منها يساوي خمسين ألف جنيه. لم أتردد في تنفيذ الاستراتيجية التي اخترتها لهذه المواجهة. خدمتني الأوراق في الأدوار الثلاثة الأولى. خسرتُ قليلًا في الدورين الأوَّلين، ثم استعدت ما خسرته في الدور الثالث. ومع الدور الرابع واتتني فرصة الهجوم! توافقت الأوراق التي بيدي مع تلك المكشوفة على المنضدة، فاخترت أن أرفع من قيمة الرهان. في حين أطال هو النظر إلى عينيَّ محاولًا سبر جمودهما، في محاولةٍ لاكتشاف ما إن كنت أُخادعه، أم أن أوراقي - بالفعل - تضمن لي الفوز. انكسرت نظرته قليلًا وهو ينسحب أمام ثباتي ليترك لي الفوز بالدور وقد بدا الغيظ في ملامحه واضحًا. تمالكت نفسي، ولم أترك أي انطباع بالفرحة يطفو ويُبدِّل ثبات انفعالي.

فوجئت به يطلب أن نأخذ راحة. لم يكن مطلبه متوافقًا مع بروتوكولات اللعبة. مَن يطلب الراحة عادة هو الفائز بالدور الأخير.

ولكنه فيما يبدو لم يكترث بذلك. أعجبني أنه فقد هدوءه وبادر بطلب التوقُّف، كان يريد أن يكسر تسيُّدي للموقف، ولم يكن بيدي أن أعترض، وإن أردتُ أن أشير إلى وقاحته!

أشعلت سيجارة وأسندت ظهري إلى مقعدي بعد أن ارتشفت بعض الماء من كوبٍ أمامي.

- ما رأيك في مشروبٍ أقوى من الماء؟

ما زالت لكنته الإنجليزية تزعجني كلما تلفَّظ بكلمة، ولكن مع هذا أجبتُ بأدب:

- لا أشرب وأنا ألعب، سيدي

استفزتني ضحكته السمجة وهو يقول:

- هممم.. خائف على تركيزك.. أطلب لك كوب لبن دافئ؟

كنتُ مدركًا لما يريد أن يفعله، يحاول استفزازي ليُشتت تركيزي، وإن كان يفعل بسذاجة. كشفت لي محاولته تلك مدى حنقه لخسارته، وأنه يعاني شيئًا من الضغط. أعرف أن مثله يخفت شعورهم بالعظمة حين يضطرون للانسحاب، وحين لا يقوون على استكمال التحدي، خاصة إن جاء ممَّن يرونه أدنى شأنًا منهم. استفزني استعلاؤه جدًّا، ورغم ذلك تمالكت نفسي وقررتُ أن أواجهه ببرودٍ يستحقه، وغالبًا سيُفقده جزءًا آخر من اتزانه.

- التركيز مهم لما أواجه محترف كسموك!

قلتهـا وأنا أنظر نحو عينيه مباشـرة، فلاحظت غيظًا يحاول مداراته جرَّاء سـخريتي المغلفة بكلمات التعظيم. شعرتُ بنشوة انتصاري في هـذه المباراة الذهنية. أُسـس اللعبـة التي نتبارى فيهـا وأعمدتها ذهنية ونفسـية. قد لا يكون للورق الـذي بحوزتي أية قيمة مقارنةً بما يمتلكه المنافس، ولكن بإظهاري درجة عالية من الثقة قد أنال الانتصار!

تـراءى لـي أنني تسـيَّدت الموقف، لا لشـيء إلا لأنه تـرك الغيظ يتملَّكـه. أصبح كتابًا مفتوحًا أمامي. ولاعب البوكر المقروء لخصمه، محكوم عليه بالهزيمة لا محالة.

قرَّر إنهاء الاستراحة، وأمر بمعاودة توزيع الورق لنبدأ دورًا جديدًا. مرَّ دوران أو ثلاثـة تبادلنا خلالها انتصارات صغيرة، مكاسـبها طفيفة لا تكاد تُذكر. كان نتاجها أن صُفَّ أمامي من جديد فيشٌ بكامل المبلغ الذي بدأت به: مليون جنيه.

لا يهـم عدد المعـارك الصغيرة ومَـن الفائز بها طالمـا كنت جاهزًا للمعركة الكبرى. لم أدرِ لمَ شعرتُ بأنني على وشك الحسم حين وُزِّع الـورق، وجدت بين يدي ورقـة عليها صورة البنت وأخرى «سبعة». تفاءلت بالأخيرة لأنني أحب الأرقام الفردية، ولأن هذه الورقة بالذات طالما كانت سببًا في فوزي. كشـف الموزِّع ثلاث ورقات فوق الطاولة، فكدتُ أطير فرحًا حين رأيت الـ «سبعة» والبنت مجاورين لورقة ولد. خشـيتُ أن تخذلنـي ضربات قلبي المتسـارعة، بينما صـوت بداخلي يصيح ويحذرني:

- ركِّزْ يا يسري.. اهدأ وفكِّر وركز!

الورقة الرابعة كانت «ولدًا» أيضًا، لكنني قررت زيادة الرهان، ولم يتردَّد خصمي هو الآخر في مماثلة زيادتي. ثم قلب الموزِّع الورقة الخامسة لأُفاجأ أنها «بنت قلوب»، لوهلة أردتُ أن أمُد يدي وآخذها لأضمها إلى صدري وأُقبِّلها. أظنني أصبحت أمتلك المبلغ، المليوني جنيه. لكنني سرعان ما استدركتُ: عليَّ أن أُسيطر تمامًا على كل خوالجي وألا تفضحني مشاعر السعادة، ولا مذاق الانتصار المدوي الذي صار مذاقه على طرف لساني. لم يكن هناك مجال لأن أجعل قسماتي مرآةً لهذه المشاعر، بل على العكس، عليَّ أن أبدو متردِّدًا غير حاسم لموقفي تجاه الأوراق التي بحوزتي ولا يراها غيري وتلك المكشوفة أمامي فوق الطاولة. ترددتُ إن كان عليَّ زيادة الرهان أم أن أُغامر وأترك هذه المهمة لسذاجة منافسي بعد أن أُوحي له أن أوراقي لا قيمة لها!

تمامًا مثلما هي الحياة، نحسب في أدوار اليوكر ثمن مغامراتنا وردود أفعال مَن نواجهه، وفي كثير من الأحيان يظل من الأفضل أن نكتفي بدور أصحاب «رد الفعل» حتى لا نُرهب الآخرين بقدرتنا على المبادرة.

أعدت النظر إلى ورقتي وحاولت أن أتصنَّع التردُّد، وأنا واثق من انتصارٍ مدوٍّ قريبٍ جدًّا!

قررتُ ألا أزيد الرهان وأنا أتمنى أن يقع هو في هذا الفخ. تعمَّد... أن يصدر قراري بعدم الزيادة ببطءٍ شديدٍ لأؤكد له ترددي. جاهد في إخفاء اضطراب تسلَّل إلى ملامحه، جالت عيناه بين أوراقه وتلك المطروحة فوق الطاولة. رفع كوب شرابه ثم أعاده إلى موضعه دون أن يتناول منه شيئًا. أخذ نفسًا عميقًا قبل أن يُفاجِئ الجميع برفع الرهان إلى نصف مليون جنيه للمرة الأولى منذ بدأنا اللعبة. تركتُ الابتسامة تتبدَّى فوق وجهي، ودفعت بكل الفيش الذي أمامي إلى وسط الطاولة لأرفع الرهان إلى أقصى قيمة ممكنة. نظر إلى أوراقه مرة تلو الأخرى، تخللتها نظرات متفرقة نحوي. بينما كان الصمت والتوتر يغطيان المسافة الفارغة بيننا.

وضع ورقتيه مقلوبتين فوق الطاولة فظننته يُعلن الاستسلام. لكنني اكتشفت أنه يدفع بكل فيشه إلى وسط الطاولة ليجعل جائزة الفائز مليوني جنيه. تعمَّدت أن أتمهل قبل أن أكشف عن ورقتيَّ في انتظار أن يكشف عن ورقتيه.

من شارع محمد مظهر في الزمالك، انحرف عزيز بسيارته يمينًا إلى شارع المتنزه المعروف بشارع العُشّاق. اصطفّت السيارات ناحية النيل كالعادة، ربما بكثافة أكبر من المعتاد، لكونها ليلة رأس السنة. داخل كلٍّ منها تلاصق شاب وفتاة، عدا سيارتين أو ثلاثًا زادت حمولتها باثنين آخرين يحتلان المقعد الخلفي.

عند الثلث الأخير من الشارع أوقف السيارة وأطلق نفيرًا عاليًا يعلن عن وصوله، أنزل زجاج النافذة ونظر إلى أعلى ليلحق بطيفي هدى وعايدة وهما تسرعان من البلكونة إلى داخل الشقة بعدما تأكدتا من وصوله. ضغط زرَّ المسجل ليعيد الشريط إلى بدايته لتكون أغنية هدى المفضلة من موسيقى فيلم «حمى ليلة السبت» جاهزة متى ركبت إلى جانبه. تفحّص بدلته البيضاء وتحسّس ياقة قميصه الأسود المفرودة مثل ياقة چون ترافولتا في فيلمه الشهير. مرَّر أصابعه بين خصلات شعره وأعاد خصلتين كانتا قد شذَّتا من مكانهما. عضلات صدره وذراعيه شكَّلتْ تضاريس تحت البدلة التي اشترتها له أُمُّه خلال زيارتها الأخيرة للندن. كان جسده مشدودًا وعضلاته نافرة تليق به كلاعب ملاكمة أنهى تدريبًا شاقًّا منذ ساعات في نادي الجزيرة.

حين طال انتظاره للفتاتين ضغط دواسة السرعة لتزمجر السيارة وهي رابضة في مكانها، تعلن جاهزيتها للركض متى أعطاها الإشارة.

وافقت أمُّه على مضض أن تسمح له بقيادة سيارتها هذه الليلة على الرغم من أن شهرين كاملين ما زالا أمامه ليبلغ سن استخراج رخصة القيادة.

في شقة عايدة بالطابق الثالث بالعمارة التي انتظر أمامها عزيز، أدارت هدى قرص التليفون لتتصل بأُمِّها قبل نزولها.

- آلو.. ماما، أنا عند عايدة.

- كل سنة وأنتم طيبون يا هدى.

عادت هدى تؤكد:

- أنا عند عايدة.. كل سنة وأنتِ طيبة يا ماما، أشوفك الصبح، سلام.

كانت تلهث، وهي تحاول أن تتقن كذبة محكمة على مسامع أمها عبر الهاتف، فهي تعرف أنها، بمجرد إغلاق خط الهاتف، ستذهب مع صديقتها إلى بيت أمين لتقضي السهرة كما اتفقت مع أصدقائها المقربين. كانت سعادتها وهي تمني النفس بليلة طويلة مع حبيب قلبها عزيز، تطغى على أي شعور بالذنب جرَّاء كذبها على أمها. انتظرت عايدة أن تلحق بها عند الباب، بعد أن أخبرت أمها أنها ستغادر مع صديقتها لسهرة ستطول حتى قبيل الفجر وإن لم تُعرها أمها اهتمامًا حتى ظنت أنها لم تسمعها. لم تكن عايدة بحاجة لاختراع كذبة مثل هدى لتقضي سهرة خارج البيت، وإن ودت أن تفعل كنوع من حفظ

ماء الوجه أمام صديقتها. لم تشأ أن تُبدي هدى دهشتها لعدم اهتمام أمها بمسارات غيابها. أصابتها بعض الغيرة وهي تستمع إلى محادثة هدى الهاتفية، وتمنت لو أن أمها قد منعتها عن النزول مثلما تشكو صديقاتها اللاتي يحكين لها عن قسوة طباع أمهاتهن فيما يتعلق بهذه الأمور. هي لا تشك في حب أمها لها، لكن اجتاحتها رغبة بأن تحاكي أمها الأخريات حين يقيدن بناتهن. تاقت إلى ذلك القفص الصغير الذي تحمي قضبانه الضيقة طائره الأسير من شرور العالم.

وقفتْ عايدة إلى جوار الباب تنتظر صديقتها المتأنقة، دون أن تنسى أن تلقي نظرة سريعة إلى المرآة المجاورة لتتأكد مرة أخيرة من زينتها. وجهها مستدير ذو بشرة بيضاء ناصعة، وشعرها أسود فاحم ينسدل إلى منتصف ظهرها. ترتدي فستانًا مذهبًا به الكثير من التطريز، جلبته أمها، ضمن هدايا أخرى عديدة ابتاعتها خلال زيارتها لأبيها الذي يعمل بإحدى بلدان الخليج. جسدها بضٌّ ممتلئ قليلًا، أتقن الفستان إظهار مفاتنه، ومنحها ظهورًا خلابًا. أكملت عناصره حقيبة سوداء «شانيل»، أهداها لها والدها في إجازته الأخيرة. تدلَّى من أذنيها حلقٌ من الماس يشبه على صغره الحلق الذي تضعه أمها في أذنيها ويتجاوز ثمنه عقارًا صغيرًا في منطقة سكنية راقية.

خرجت من بوابة العمارة الواسعة، قبل أن تظهر هدى في إثرها تتطلع إلى حيث ينتظر عزيز في سيارته. ما إن رآها حتى التمعت عيناه، وأطلق صافرة إعجاب خافتة سمعتها، فأفلتت ابتسامة خجلى حين



التقت أعينهما. انسدل شعرها الكستنائي على كتفي فستان أحمر كشف عن ساقيها الجميلتين، وخصرها الدقيق. كانت ملامحها الرقيقة تصدح بجمال أخّاذ، يأسر العين من الوهلة الأولى. شفتاها حمراوان نصف ممتلئتين تحجبان صفي أسنان متلألئة، يعلوهما أنف مستقيم ينتهي بدوران شيق. أما عيناها السوداوان، فكانتا لتوصفا عنوانًا للجمال في كل العصور: مستديرتان، عميقتا السواد، تأسران مَن يتطلع إليهما وتدعوانه للغوص، فلا يجد سبيلًا أمامه للمقاومة.

جلست إلى جانب عزيز وبادلته نظرات وَلَهٍ لم يكن الكلام معها ذا أهمية. جلست عايدة في المقعد الخلفي، وبدأت عجلات السيارة دورانها في طريقهم إلى بيت أمين في عمارة «ليبون» على نيل الزمالك. يد عزيز اليسرى تمسك بمقود السيارة، ويمناه تتسلل إلى كف هدى تحتضنها، فيسري خدر لذيذ في كل خلية من جسدها. عايدة في المقعد الخلفي تلاحظ التلامس البريء بين الحبيبين، فيغمرها إحساس بالرغبة هي الأخرى. ليست رغبة في عزيز الذي تحبه أعز صديقاتها، ولكن الرغبة في أن تصادف هي الأخرى عزيزها ذا الكف الدافئة التي تحتوي كفها الصغيرة، ويطلق تيار الحب في جسدها.

وفيما تنطلق سيارة عزيز في طريقها إلى عمارة ليبون، كان ميني باص 13، قد غادر محطة ميدان التحرير في طريقه لعبور كوبري قصر النيل، قبل أن ينحرف يمينًا إلى حي الزمالك. الميني باص الوحيد الذي صُرِّح له بدخول موطن الأرستقراطية الراسخة في مصر، يمر من بين الأسدين الشامخين المنتصبين عند مدخلي الكوبري. غير أنه

لا بـد وأن يتمتـع، رغـم كونه نقلًا عامًّا، بمزية خاصة؛ إذ إن ركابه كلهم جلوس: ستة وعشرون مقعدًا لستة وعشرين راكبًا، ومَن لم يكن سعيد الحظ وتسـنح لـه فرصة الحصـول على مقعـد، فعليه انتظار السـيارة التالية، مع التشديد على السائق بالامتناع عن التحرُّك إن حاول أحدهم البقاء واقفًا. ميني باص مكتمل الوجاهة مثل سكان المنطقة التي يسير في شوارعها.

كعادته انزوى إبراهيم في الصف الأخير من الميني باص بعد ركوبه من محطة باب اللوق التي وصل إليها بأوتوبيس مكتظ بالركاب انطلق مـن غمـرة حيث يوجد بيته في أحد شـوارعها البسـيطة. اضطرَّ لقضاء رحلته إلى باب اللوق متشبثًا بكلتا يديه في عمود باب الأوتوبيس واقفًا على سـلمه بينما نصف جسـده يتدلَّى خارج الباب. لـم تكن الزمالك غريبـة عنه، فهو يرتحل إليها يوميًّا بأوتوبيس مدرسـة اللغات الشـهيرة بصحبة والده، مدير النشـاط في نفس المدرسـة. المدرسـة التي مكَّنته وظيفة والده داخلها من الالتحاق بها، كأبناء الأكابر، بعد تخفيض كبير في مصروفاتها وتوصيات مناسـبة من الإدارة التعليمية مهَّدت لموافقة غير معتادة من مديرتها.

أراح إبراهيـم ظهـره إلى المقعد، وعـاد ينفض عن بدلتـه الكحلية غبـارًا لا وجود له، ويمسـح عليها مـرة تلو الأخـرى ليتخلَّص من أي تجاعيـد قد تكون أصابتها خلال صراعه على سـلالم أوتوبيس غمرة، بدلـة ورثها عن أخيه الأكبـر بعد أن ضاقت عليه، يرتـدي تحتها بلوفر أحمـر ذا مربعـات زرقـاء، تبـرز من فتحـة رقبتـه ياقة قميـص أبيض،

استعاره دون استئذان من بين قمصان والده. حذاؤه لامع، لم تنجح لمعته في إخفاء حالته المتردية، ومقدمته المرتفعة التي لا تلامس الأرض كأنها تتحدى جاذبية نيوتن. راقت له دعوته إلى حفل أمين مع مجموعة منتقاة من أصدقاء المدرسة: السبعة المختارون لسهرة رأس السنة. زملاء دراسة منذ الطفولة، لكنهم ليسوا مثله، وحياتهم لا تشابه حياته. الفوارق الاجتماعية والمادية بينه وبينهم كانت واضحة، لكنه مع ذلك صار جزءًا أصيلًا من دائرتهم المغلقة؛ دائرة عزيز وكريم وأمين وعايدة وهدى وناديا. كان دائمًا مدعوًّا إلى حفلات أعياد ميلادهم ورحلاتهم إلى عزبة هذا أو فيلا تلك. طالما تمنَّى أن يرد تلك الدعوات، لكن تواضع منزل أسرته المزدحم وحوائطه التي خطَّ الزمن آثاره فوقها، فصارت شاحبة كشحوب الحياة التي يحياها أهل المنزل، دفعته لإبعاد الفكرة عن ذهنه. وجد من الأسلم أن يفصل بين هذين العالمين عالم الزمالك وأهل غمرة. طالما ضحك في نفسه وهو يلحظ أن من بين أهم الفوارق بينه وبين أصحابه أبناء الذوات أن العدد الأقصى لأفراد أسرهم لا يتجاوز الأربعة، بل كثيرًا ما اعتقد وهو صغير أن أمه وأباه أحد أسباب تجاوز تعداد السكان ليتخطى الأربعين مليون نسمة.

حين ترجَّل إبراهيم من الميني باص أمام بوابة نادي الجزيرة الخلفية، ليكمل الطريق سيرًا إلى عمارة «ليبون»، كان كريم ينهي مراجعة الفصل الثاني من كتاب كيمياء الثانوية العامة. تردَّد في أن يبدأ بمراجعة فصل آخر، حين نظر في ساعة يده ووجد أن ميعاد تجمُّع

رأس السنة في شقة أمين قد حان. أخذ دُشًا سريعًا بينما ظل ذهنه مشغولًا بالمعادلات التي حفظها لتوه، وعاد إلى غرفته ليرتدي ثيابه استعدادًا للنزول. لم يدرِ لمَ جال بخاطره في تلك اللحظة على وجه التحديد تلك الرغبة القديمة في الالتحاق بكلية الهندسة. كان الأمر أشبه بالمحسوم، فالجميع يعلمون أنه قادر على إحراز المجموع الذي يؤهله لذلك، لم يكن متفوقًا فقط، لكنه دائمًا أول المدرسة منذ التحاقه بالحضانة، وفي جميع المواد الدراسية باستثناء وحيد، اللغة العربية، المادة التي اعتاد أن يحل فيها ثانيًا خلف صديقه إبراهيم. ورغم ذلك ظلّ دائم المحاولة لتدارك هذا الاستثناء، استعان بكل الكتب الخارجية المتاحة واستزاد في قراءة كبار أدباء لغة الضاد، لم يكن من نوع الطلبة الذين يحفظون، بل كان ذا ذكاءٍ حادٍّ لم يحتج معه لقضاء ساعات دون نهاية في الاستذكار والحفظ. أطلق عليه زملاؤه لقب «العبقري» واستحقَّ ذلك اللقب بجدارة، وظل يبتسم خَجِلًا متواضعًا في كل مرة يسمع فيها أحدهم يناديه بهذه الصفة، رغم استمتاعه بها.

ولم ينحصر ذكاؤه بين دفتي المناهج الدراسية، بل تجاوزه إلى نوع من الذكاء الاجتماعي الذي أهَّله لاكتساب حب وتقدير زملائه، إذ لم يتردد يومًا في مساعدة أي منهم، حتى إن كان عن طريق «تغشيش» كل مَن يجلسون حوله في لجان الامتحانات، إلى الدرجة التي دفعت بعض الطلاب الكسالى للتفكير في تغيير أسمائهم إلى أسماء تبدأ بحرف الكاف ليضمنوا جلوسهم قريبًا منه في لجان الامتحانات. صار صديقًا للجميع، لكنه اختار أن يكون ضمن المجموعة المغلقة التي سيقضي

معها ليلة رأس السنة بعد قليل. وفي سبيل ذلك، تجاوز عن سطحية تفكيرهم واهتماماتهم التافهة من وجهة نظره، ليقينه أنه من الصعب أن يجد مجموعة من الأصدقاء بأكملها لديها قدرات ذهنية تماثله ومع ذلك أخذ على عاتقه محاولة الارتقاء بأفكارهم كلما سنحت له الفرصة. لعل إبراهيم هو الوحيد الذي استطاع - أحيانًا - مقارعته في مناقشة أو أخرى، وإن لم يكن لديه عمق كافٍ في مواضيع شتّى.

نزل سلالم «عمارة ليبون» الرخامية من الدور الثامن إلى السادس حيث شقة أمين. طالما ظن أنه لولا علاقة الجيرة تلك لما ترسخت صداقتهم التي تتحدى المنطق ونظرية الاحتمالات من واقع قراءاته. وقف أمام باب الشقة واستعدل نظارته ودقّ جرس الباب.

تلعثم حين فتحت ناديا الباب، وازداد تلعثمه وعلا وجهه شيء من الحمرة وتسمَّر في مكانه من ابتسامتها وهي تتركه عند الباب عائدة إلى الداخل. استعدل النظارة من جديد وهو يخطو خلفها. استقبله أمين صائحًا:

- العبقري وصل..

بشَّرهم أمين بأنه أعد موسيقى رائعة للسهرة قبل أن يخرج من جيبه سيجارة ويشعلها. أُخِذَ كريم قليلًا حين رأى السيجارة بين شفتيه رغم علمه أنه يدخن. يراه يفعل ذلك يوميًا في المدرسة، ما بين الحمامات وغرفة صديقه مُدرِّس الألعاب. مع ذلك، ظلت فكرة تدخينه داخل البيت وبعلم أبيه فكرة مدهشة بالنسبة له. لم تكن أعمارهم تسمح

بهـذه الجسـارة في الإعلان عـن فعل يمارسـه الكبار، لكـن ربما هذا مـا جعل هذا البيت المـكان المفضل والمختـار لتجمّعاتهم بعيدًا عن قيود وتقاليد البيوتات الأخرى. تمتع أمين بهذا القدر من الحرية جعل منه شـخصية أسـطورية بين أترابه سواء في المدرسة أو نادي الجزيرة. انقسـمت الآراء مـا بين إعجاب بمـا يأتي من أغرب الأفعـال وازدراء لمَن يفعل اللا مقبول. في النهاية صارت شخصيته طاغية مشهورة بين أقرانه وخاصة بين الفتيات، اللواتي زادت وسامته ولعهن به.

راق لـه هـذا الشـعور بالزعامـة التي لـم يتكبـد مجهـودًا يُذكر في الحصـول عليها. اختـار أن تكـون علاقاته بمعجباته أقـرب للغزوات قصيـرة الأمـد ذات أهـداف محـددة: قبلات سـاخنة أو مـا يتجاوزها إذا مـا سـمحت الظـروف، وإن أبـدت الفتـاة رغبة صريحـة في ذلك. أصـاب من كل فتاة مـا أراد، لكنـه احتفظ لناديا وهدى وعايدة بسـمو مكانة الأخوات. سـمح لهدى بعزيز؛ لأنه يثق في خُلقه، فيما غار على الأُخرتين، فطارد كل مَن حاول معهما وجعل من نفسه درعهما الواقي. تمنى لو لم يسبقه صديقه إلى قلب هدى، لكنه أتقن إخفاء أمنيته.

كعادتـه، حاول كريم أن يُمهِّد سـبيلًا ليبدأ حديثًا مع ناديا. وكعادته أيضًا لم تسـعفه عبقريته في إيجاد خيط بداية. اختلس النظر إليها كلما اسـتطاع، مُحتاطًا ألّا تلحظ نظراته. أعجبته بسـاطة فسـتانها الأبيض، وتسـريحة شـعرها الأشـقر القصير، وعيناها الزرقاوان التـي ورثتهما لا محالة عن جدود أمها من الفايكنج.

بدتْ ناديا متململة في كرسيها ومتجهّمة. لم تكن معتادة على حالة القلق التي انتابتها. تعودت منذ صغرها ألا تكذب، واليوم اضطرت تحت إلحاح صديقتيها لأن تكذب كذبة بيضاء، على حد وصفهما. كذبة أرادتا أن تحمي بها كذبتهما التي لم تكن على نفس الدرجة من النصاعة. تعرف ناديا أنها لو لم تكذب، لحصلت على ما تريد دون كد أو تعب، وفقًا لعهدها القديم مع أمها. فقد اتفقتا دائمًا على أن تتحاورا وتستمع إحداهما للأخرى، لتصلا إلى ما يرضيهما معًا. لطالما أحبّت ناديا ذلك الوضوح والانفتاح التي تشاركت فيه مع أمها. لهذا كانت مضطربة وهي تخالف الاتفاق وتحنث بالوعد تحت ضغط هدى وعايدة، اللتين خشيتا أن تُبلغا أُميهما فتقع كل منهما في مشكلة.

سرعان ما هداها تفكيرها لما ارتاحت له فنهضت من مقعدها متجهة إلى الهاتف، لتدير القرص برقم منزلها فيأتيها صوت أمها على الطرف الآخر:

- ماما.. أنا في بيت أمين.

- مش عند عايدة؟

- كلنا عند أمين، وهنرجع الساعة واحدة ونصف ننام عند عايدة.

- قررتوا كده إمتى؟ وليه ما قولتيش؟

سكتت ناديا طويلًا قبل أن تجيب:

- أنا آسفة.

- هاتكلم لما ترجعي.. سنة سعيدة.

ما إن وضعت السماعة حتى تردّد صوت جرس الباب قويًا متصلًا. علموا جميعًا أنه لا بد وأن يكون عزيز الذي لا يرفع إصبعه عن زر الجرس حين يكون رائق البال. بحضوره ومعه الجميلتان هدى وعايدة، اكتملت الرفقة إذ تصادف أن وصل معهم إبراهيم أيضًا. التفوا حول الزعيم ليخبرهم بخطته لقضاء سهرة الليلة، فلخصها في جملة واحدة:

- مزيكا ورقص.. وبعدين عشا خفيف.

يغمز لعزيز:

- الرقص علشانك انت وهي.. ولما البنات يروحوا نبتدي العربدة.. معايا واحدة "بلاك ليبل" من مخزن أبويا.

يقولها سريعًا وضحكة صافية تعلو شفتيه، حاول من خلالها إخفاء سعادته الخاصة بمجيء هدى، سرّه الكبير الذي ألزمه ميثاق صداقته بعزيز أن يكبحه، مهما ألهبه شعوره بحبها.

استمر يضحك وهو يحكي لهم:

- الصراحة.. هو قفشني، بس رجع سامحني وسابني!

عاجله كريم قائلًا:

- أنا مش هاشرب، هافضل فايق علشان احكي لكم عن مساخركم الصبح.

تداخل إبراهيم في الحديث فصار الأربعة يتناقشون في خطتهم فيما يخص "البلاك ليبل". أمامهم وعلى طرف الصالة الآخر تجاورت البنات على أريكة تتوسطهن هدى يتهامسن فيما بينهن. قالت هدى:

- شايفين حركاته.. لازم كل خروجة يتجاهلني.

ردت ناديا:

- يتجاهلك؟!

- أيوة، من ساعة ما دخلنا وهو واقف معاهم.

ضحكت عايدة:

- اديله فرصة يتنفس..

- يتنفس على كيفه لما أمشي.. هما ساعتين اللي قاعداهم، وهو هايفضل معاهم للصبح.

همست ناديا:

- بلاش تبيني إنك متغاظة.. ابتسمي!

استجابت لنصيحة ناديا، سكتت لثوانٍ وأطالت النظر ناحية عزيز، أضاءت وجهها ابتسامة واسعة:

- بصوا قمر ازاي!! عضلات وشياكة.. حاجة تغيظ.

صمتن قليلًا، ثم سارعت هدى تقول، دون أن تلتفت إلى إحداهما لتوجه إليها السؤال:

- وانتـي بقـى ناوية على إيـه؟ هاتنطقـي وتكلميـه والّا هاتفضلي مكسوفة؟

لم تجب كلتاهما، وكل منهما تشعر في قرارة نفسها أن عبارة هدى تقصدهـا دون غيرهـا. كل منهمـا لا تعرف أن الأخرى قد أسـرّت إلى هـدى بإعجابهـا بأحدهـم، وأنها بانتظـار أن يُبدي إعجابـه هو الآخر. لم تشـأ هدى أن تسترسـل في الموضوع كي لا تحرج أيهما. وسرعان مـا قطـع أمين تهامسـهن، حين رفع صوت الموسيقى ويـدأ في دعوة الجميع للرقص. أشـار عزيز لهدى فاتجهت إليه وأخذا يتراقصان معًا على النغمات المتسارعة، فيما مال أمين على كريم وإبراهيم هامسًا:

- اطلبوهم للرقص وإلا هارقصهم أنا!!

ثم أضاف مهددًا دون تحديد لمَن يوجه حديثه:

- وانت يا أستاذ خلصنا وكلمها!

وضـح أثر ما قالـه أمين على وجـه كليهما. تلعثم كريـم الذي كان علـى وشـك مواصلـة نقـاش بـدأه صباحًـا مـع إبراهيم بيـن حصص المدرسـة، حول أيهما أعظم: السـادات أم عبدالناصر؟ في حين احمر وجه إبراهيم وشـعر بوهن فـي مفاصله وقد تخيلهـا ترفض مراقصته. أطال النظر إلى أمين متحيرًا كيف اكتشف سرّه الذي حاول كتمانه بكل قوته. لم يظن يومًا أنها قد تبادله الإعجاب، فآثر أن يخفي مشاعره كي يحافظ على مكانتهما كصديقين.

سرعان ما شرع أمين في تنفيذ تهديده. تحرّك نحو عايدة ... ديا باسطًا يديه ليشدهما من مجلسهما. انضموا إلى عزيز وهدى، وبقي إبراهيم وكريم متسمرين مكتفين بالمشاهدة.

حين قاربت الساعة الحادية عشرة والنصف أبدل أمين الموسيقى السريعة بأخرى هادئة، فعادوا إلى مقاعدهم، عدا عزيز وهدى، واصلا رقصتهما الحالمة، يتبادلان نظرات الوله والهيام غير عابئيْن بمَن حولهما. حتى قطع شرودهما صوت عايدة وهي تصيح:

- أهلًا أونكل يسري!

بدا الزمن وكأنه توقّف لوهلة، لم يستوعب فيها أحد ما قالته عايدة. ثم ما لبثت هدى أن دفعت عزيز برفق وابتعدت مسرعة لتتوارى خلف صديقتيها. بينما جعل كريم من إبراهيم ساترًا يتوارى خلفه، عادت عايدة إلى مقعدها تنظر إلى اللا شيء، بعد أن كانت قد انتفضت واقفة لتنذرهم بوصول صاحب البيت. بدا يسري نفسه متفاجئًا بوجودهم، إذ أوقف خطواته المتعرّجة بمحاذاة عزيز الذي كان ما زال متسمرًا وسط الصالة بعد أن تركته هدى.

قطع أمين الوجوم الذي ساد، وصاح ضاحكًا:

- أهلًا بابا.. إيه المفاجأة الحلوة دي؟ اسهر معانا بقى!

كانت تقاطيعه محايدة، لا تشي بشيء، لكن طيف ابتسامة لاحت في وجهه حين طرح عليه ابنه أن ينضم لسهرتهم. راقت له الفكرة رغم

إدراكه أنها دعوة غير جادة من قبيل الكياسة لا غير. كؤوس الشمبانيا التي اضطر لاجتراعها أثناء احتفالية ما بعد مباراة البوكر التي خاضها خدَّرت مراكز المنطق لديه. اتقدت فكرة في ذهنه فقرر أن يفرض وجوده على ابنه وأصدقائه ولو لقليل من الوقت. طمأن نفسه بأنهم لن يستثقلوا وجوده بينهم، لعلمه بأنه المفضل لديهم من بين كل الآباء وأولياء الأمور. اكتشف داخله حاجةً مُلحَّة للحديث والإطالة بعد أحداث ليلته العاصفة. ربما أراد أن يُشرِك أحدًا فيما تزاحم برأسه من أفكار عن البوكر والحياة كما تكشفت له قبل ساعات. فوجد في ابنه وأصدقائه ضالته المنشودة.

علا صوته فوق صوت الموسيقى:

- تعالوا أعلمكم لعبة.. هاخد من وقتكم نص ساعة، وبعدين كملوا رقص.

لم يترك لهم فرصة للتفكير، وبنظرة واحدة ناحية أمين قطع عليه أي مجال للاعتراض. اتجه إلى حيث تقبع طاولة خشبية ذات مفرش مخملي أخضر، اشتراها في مزاد شهير، يشاع أنها كانت الطاولة المفضلة لدى جلالة الملك المعظم فاروق، في بداية الخمسينيات، ثم آلت إلى أحد الملوك الجدد الذين ورثوا الحكم وقصوره وما تحويه من مقتنيات. وفي منتصف السبعينيات عرضها ورثته للبيع في مزاد كبير يتكدس بالتحف والتذكارات النادرة، التي أبهرت جوّالي المتاحف وهواة جمع النفائس من عديد البلدان.

لم تكن لهجته آمرة على الإطلاق، كان فيها الكثير من المحبة ربما حد الرجاء، حين جلس إلى طاولة البوكر داعيًا إياهم:

- تعالوا!

سرعان ما سحبوا مقاعد والتفوا حوله، بانتظار ما يقول. أخرج من درج الطاولة مجموعة من أوراق اللعب، وبدأ في توزيعها؛ لكل منهم ورقتان، سبقتهما مجموعات من الفيش وزعها عليهم بالتساوي.

- البوكر مش مجرد لعبة، هافهمكم ده بعد ما أشرح لكم القواعد.

فهموا قوانين اللعبة في عجالة أبهرته وأكدت قناعته بأن العقول الشابة أسرع قدرة على الاستيعاب. عرفوا أن سبب الفوز بأي دور هو ورقة أو ورقتان يملكهما أي منهما، تجتمعان مع أربع أو ثلاث ورقات فوق الطاولة لتشكل خمس ورقات فائزة. لم يحتج لأن يعيد عليهم أن أقوى مجموعة قد تحقق الفوز، هي المجموعة التي تمتلك نفس العلامة كالقلوب الحمراء مثلًا، بدءًا من العشرة مرورًا بالصور الثلاث وانتهاءً بالواحد أو ما يسمونه "الآس".

قال إن احتمالات حصول الأمر على هذا النحو نادرة. وشرح لهم في كلمات بسيطة بأن أي مجموعة من خمس ورقات متتالية تحمل نفس العلامة، هي أقوى من أي مجاميع أخرى، ويليها المجموعة التي تتكون من أربع ورقات لها نفس الرقم أو الصورة. وقال إن ورقتين تحملان نفس الرقم مع ثلاث أخريات تحمل رقمًا آخر أو صورًا

أخرى، قد تضمنان الفوز إلى حد كبير. وأن تجميع خمس ورقات من نفس العلامة تلي ذلك في فرص الفوز، يليها تلك المجموعة المتتالية التي تتكون من خمسة أرقام أو أرقام وصور، والتي أكّد كذلك أنها أقوى من مجموعة الثلاث ورقات المتماثلة. ثم كلمهم على ما يلي ذلك من مجموعات أوراق فرصها أضعف في الفوز حتى وصل بهم إلى أن في أحوال قلما تتكرر من الممكن أن ينتصر الحائز على أعلى ورقة ممّا تم توزيعه.

تفاعلوا مع شرحه، وبادلوه الأسئلة، وأجابهم في سعادة معجبًا بسرعة استيعابهم للتفاصيل الصغيرة، وقال:

- مش لازم تلعبوا برهان، علشان مايبقاش قمار!

وزع عليهم الأوراق، لعبوا دورًا تلاه ثانٍ فثالث، وتوالت الأدوار واستغرقهم اللعب. كسب كريم مرة، وتألقت ناديا مرتين متتاليتين. خسر إبراهيم حين حاول أن يوهم أمين بأن أوراقه قوية لينسحب، لكن بدا أن الابن لديه تمرّس والده فحقق الفوز على غريمه. تناوب السبعة الفوز حتى توقف يسري عن توزيع الأوراق:

- تمام؛ كده انتوا فهمتم القوانين، بس افتكروا دايمًا إنها أكتر من مجرد لعبة، ممكن نعتبرها لعبة حياة!

تطلع إلى وجوههم وأطال النظر، محاولًا الاستحواذ على اهتمامهم إلى أقصى درجة ممكنة، وحين رأى قدرًا مناسبًا من الانتباه، استأنف كلامه:

- ورق الكوتشينة مليان رموز، بس الأول هاقولكو ليه البوكر لعبة حياة.

استوقفته عايدة بجدية تامة:

- تقصد الرموز اللي على الورق: العلامات الأربعة يعني؟

كان بصدد إشعال سيجارة، لكنه أبعدها جانبًا، وركز للحظات استدعى فيها معلومات من الذاكرة تطلبتها إجابته:

- العلامات دي واضحة وصريحة، مش دي اللي أقصدها..

اهتزت السيجارة بين أصابعه المرتعشة، وهو يشعلها قبل أن يعاود حديثه:

- في ناس بتقول إن الماسونيين هم اللي اخترعوا الكوتشينة.. وعلشان كده مليانة رموز سرية.

ابتسم كريم حين سمع كلمة ماسونيين، وجال بعينيه سريعًا في وجوه أصدقائه ليتأكد من جدس أنه وحده مَن قرأ عن الماسونيين ويعرف تاريخهم.

رفع يسري رأسه عن أوراق اللعب التي يحكم السيطرة عليها بين أصابعه، نظر إلى وجوه الشبان السبعة الملتفّة حوله فتأكد له أنه امتلك ألبابهم، وأنهم شغوفون بالاستماع إلى المزيد، أضاف:

- الكوتشينة فيها أربع علامات زي فصول السنة؛ اتنين وخمسين ورقة زي عدد الأسابيع، ومجموع الأوراق لو جمعناها على الترتيب

هاتبقى تلتمية أربعة وستين، بإضافة الجوكر نوصل لعدد أيام السنة، وبإضافة چوكر كمان نوصل لعدد أيام السنة الكبيسة.

سكت قليلًا ليترك لهم فرصة استيعاب ما قال، ففوجىء بكريم يصيح:

- وعدد أوراق الصور اتناشر زي عدد شهور السنة!

- ممتاز يا كريم، عبقري! كل لون مكوّن من تلتاشر ورقة، وده بيساوي عدد دورات القمر السنوية.. واللونين الأبيض والأحمر بيرمزوا للنهار والليل، والعلامات الأربعة بيرمزوا لعناصر الحياة: الأرض، والهواء، والماء، والنار.

قاطعه إبراهيم متسائلًا:

- وإيه معنى الرموز نفسها؟ وإيه فايدتها؟

بدا على وجهه شيء من الحيرة، إذ لم يفكر في إجابة السؤال من قبل، حاول الغوص داخل رأسه الملبد بالأفكار فلم يعثر على إجابة. نفث دخان سيجارته ثم أطفأها قبل إكمالها. تحرّج بعض الشيء وهو ينظر لإبراهيم محاولًا تذكر سؤاله. لم يكن متأكدًا من إجابته وهو يسترسل:

- الورق فيه كل اللي الناس بتحبه: فيه سرّ انت شايفه واللي قدامك لأ. فيه قدرتك على القرار، وقدرتك على إبهار اللي قدامك بخدعة مش متوقعة.. لعبة بسيطة لو انت عايز، ومعقدة جدًا لو ابتديت تفكر وتخطط صح.



ازدرد لعابه، وبدا حلقه جافًا، فنظر لأمين، وطلب إحضار كوب ماء بارد، وفي لحظات خاطفة كان الكوب في متناوله، كأنّ أمين لم يشأ أن يتوقف وأصدقاءه عن الكلام. ارتشف بيد مرتعشة من الكوب، وواصل حديثه:

- حُط في اعتبارك دايمًا إن مفيش حاجة اسمها ورق وحش وورق حلو، كل ورقة ممكن تكون سبب فوزك. واللاعب السيئ هو اللي مايعرفش يستفيد من اللي في إيده. انت اللي متحكّم في قيمة ورقك بطريقتك في استعماله. ورقك هو نصيبك من الحياة!

قاطعه عزيز، لكنه بدا كأنه لم يسمعه، إذ واصل حديثه باندفاع مثل جرّاح يشرح لتلامذته عملية خطيرة:

- ممكن تتصور ورقتك أضعف ورقة، وتتفاجئ لما تتوزع بقية الأوراق على الترابيزة إن فيه تلاتة تانيين زيها فيبقي معاك المجموعة الكسبانة. وممكن ورقة واحدة زي اللي في إيدك تكسبك دور لما اللي بتلاعبهم ما يكونش معاهم ورقة شبه التانية.

مع كل حالة يستعرضها، كان يوزّع أوراقًا تعبر عمّا قد يكون بيد اللاعب وغريمه حتى يوضح مقصده. يأخذ رشفة كوب المياه من حين لآخر، وفي كل مرة تتساقط قطرات فوق ملابسه، لكنه يواصل حديثه، كأنه لا يشعر بها:

- ساعات ورقك هايبقى سيئ جدًا لكن هاتمثل إنه في غاية القوة، وتخدع اللي قدامك وتخليه يعتقد إنه أكيد خسران فيعلن استسلامه. الخداع طبيعي في البشر: احذر تنخدع، واتعلم تخدع!

اضطربت ناديا حين سمعت جملته الأخيرة، فاندفعت تقول:

- يعني نكسب بالغش؟

- قلت نخدع مش نغش! الغش خيانة يا ناديا، لكن الخداع مهارة، نبقى غلطانين لو ما استخدمنهاش.

- والخدعة مش غش؟ الخدعة فيها كذب.. والكذب غش.

- لا مش غش.. سميها دهاء، ذكاء.. سمّيها أي حاجة تريّح ضميرك!

توالت الأسئلة، وتعددت إجاباته، تثاقل لسانه واختلطت أفكاره، لكن سؤال أمين أثار انتباهه، وأوقد جذوة أفكاره من جديد. سأله أمين: كيف يضمن الفوز؟ فأجابه:

- مفيش حد بيكسب على طول. ساعات هايكون في إيدك ورق واثق إنه كسبان، فتتفاجئ بورقتين أقوى بكتير في إيد اللي بيلاعبك. أحيانًا هاتغامر وتكسب، والمرة اللي بعدها هاتغامر وتخسر؛ الدنيا مغامرة بس ما تغامرش بكل اللي معاك، دايمًا سيب حاجة للي مش محسوب. في لحظة هاتعتقد إنك انتهيت فتلاقي ورقة جديدة بترجعك أقوى من الأول. اتفائلْ دايمًا بالورقة اللي جاية، واوعى يوم تخللي اليأس يغلبك. بس افتكر إن قلبة الورق اللي رجعتك كسبان، في قلبة تانية ممكن تقوي اللي قصادك وتخسرك. فكّر في كل الاحتمالات وماتبتديش تحتفل قبل الأوان.

أثارت كلمة الاحتفال رغبة هدى في الحديث، بعدما ظلّت منذ تنا واجمة منذ بداية الجلسة، قالت بصوتٍ عالٍ:

- وماله الاحتفال يا أونكل.. أحلى حاجة في الدنيا الفرحة والاحتفال، صح؟

- الاحتفال جميل يا هدى، إحنا بنعيش ندور على الفرح والاحتفال لأي سبب، بس مهم نفرح في الوقت المظبوط، لا بدري ولا متأخر.

لم تدرِ هدى لمَ خالجها الخجل لما أطال النظر إليها قبل أن يسترسل:

- وقت ما تكسبي افتكري إنك إنتي سبب المكسب وإنتي اللي كسبتي، زي ما قولنا مفيش ورقة وحشة وورقة حلوة.

توقّف قليلًا محاولًا قراءة أثر كلامه في ملامحهم. انتبه للمرة الأولى أن لكل منهم انطباعًا مختلفًا، قد يشي عن شخصية لا تشبه الأخرى، أحدهم تدهشه التفاصيل مهما كانت بسيطة عادية، وأحدهم لا يبدي انفعالًا ملموسًا، بينما أخرى ترفع حاجبيها وتتسع حدقتاها من حين لآخر، لكن يسري تجاوز شروده، واستأنف حديثه، قائلًا:

- ساعات مش هاتقدّر اللي في إيدك، وهاتتصرف بحرص زايد، وبعد فوات الأوان هاتندم إنك ضيعت الفرصة. المغامرة مطلوبة لو كنت عايز تعلى وتتقدم.. كل اكتشاف جديد ابتدى بمغامرة عملها واحد قالوا عنه مجنون.

صاح عزيز:

- طبعا.. لازم الواحد يكون شجاع ويقبل التحدي.

ابتسم وهو يرى وقع كلامه في نفوسهم. بدا له أنه حكيم يلتف حوله المريدون يستزيدون من فيض حكمته.

- أوقات هاتندم إنك انسحبت بدري لما تكتشف إنك لو كملت كنت هاتكسب كتير.

قاطعه عزيز للمرة الثانية:

- الضربة القاضية.. التردد معناه الخسارة.

- مش هاقولكم ما تندموش، الندم شعور طبيعي بس بلاش تطوّل وقت الندم على فرصة ضاعت، لأن الدور الجديد بيبدأ وتقدر تعوض فيه خسارتك. ورغبة الفوز جواك مش لازم يكون سببها إنك خسرت الدور اللي فات. لو متضايق أو منفعل لازم تنسحب وتاخد استراحة. ومهما كنت لاعب محنّك، إوعى تقلل من منافسك لأنه "يوضع سره في أضعف خلقه"!

سأل كريم:

- مفيش قواعد ثابتة للفوز؟ نقط محددة نتبعها فمانخسرش؟

- القاعدة الأهم إنك تعرف إمتى تستمر وإمتى تتحدى وإمتى تنسحب.



لمعت عيناه وهو يعيد تذكيرهم:

- والحيلة؛ استخدم الحيلة لكن ماتخليهاش أسلوب حياتك.. الحياة اللي كلها خداع بتفقد معناها.

همّت ناديا بمقاطعته من جديد، إلا أن عايدة لحقتها بلكزة من مرفقها فتراجعت والتزمت الصمت. بينما قرر إبراهيم أن يتحدث محاولًا إخفاء نبرة سخرية سيطرت عليه:

- كنت فاكر الموضوع أبسط.. كنت فاكرها مجرد لعبة، لكن طلعت معقدة، وكلها حكم ومواعظ..

- حكمتك وخبرتك غصب عنك هاتتغلب عليها مشاعرك في أوقات كتير، وهاتنسيك كل اللي تعرفه عن أصول اللعب. لأننا بشر وده جزء من تركيبتنا، تبقى مشكلة لما تبقى دي عادة، ساعتها هاتفضل خسران دايمًا.

حين أحس أنه أطال أكثر مما ينبغي، وأن بعضهم تسلل إليه بعض الملل وتسرب اهتمامه، قرر إنهاء الحديث، ونهض من مقعده ليعانقهم واحدًا واحدًا. أطال عناق أمين بصورة ملفتة، وقبّل جبهته، وهمس في أذنه، بينما اعترت الابن دهشة غامرة، وشيء من الحرج، ولم يستطع فهم تصرف أبيه غير المعتاد:

- لو فهمت البوكر يا أمين هاتفهم الحياة!

ظلوا جالسين حول الطاولة، بعد أن غادرهم يسري، ساهمين يتطلعون في وجوه بعضهم البعض. قرر أمين أن ينتفض من مكانه

ليكسر حالة الوجوم، ويعيد تشغيل شريط الموسيقى ويدعوهم للرقص من جديد. كأن تحركه نبّه ناديا إلى مرور الوقت، إذ صاحت:

- الساعة واحدة ونص، لازم نمشي!

توسّلت هدى أن تمهلها دقائق أخرى للبقاء واستكمال السهرة، لكنها رفضت وأصرّت على تنفيذ اتفاقها مع أمّها، وحين بدا موقفها صريحًا لا لين فيه، نهض ثلاثتهن مع عزيز ليوصلهن بالسيارة إلى بيت عايدة. وانضم إليهم إبراهيم كي لا يترك صديقه وحيدًا في رحلة العودة.

في السيارة ران الصمت المطبق، كلّ منهم يستعيد السطور التي خطّها الرجل على صفحات عقولهم بصوته المرتعش ونبرته المؤثرة. يستعيدونها كومضات سريعة في مشهد طويل غير واضح المعالم. نصف ساعة تقريبًا مرت قبل أن يعود عزيز وإبراهيم إلى عمارة ليبون. أوقفا السيارة بجوار سور حديقة الأسماك وترجّلا متجهين إلى حيث سيستكملون السهرة. استرعى انتباههما جلبة كبيرة أمام مدخل العمارة. تجمّع هائل لم يكن من سبب منطقي لتواجده هنالك في مثل هذه الساعة المتأخرة. حوقلة تتردد على الألسنة ودعوات بالرحمة والغفران، ووجوه مألوفة بين الجمع، اندفعا باتجاهها ليتبينا حقيقة ما يدور.

مايو 1983

في مايو 1983 كانت روزي ماكبرايد تستعد لامتحانات عامها الأخير بجامعة أدنبرة حيث تدرس القانون. تتبدّى في ملامحها الأصول الأسكتلندية بشكل واضح، الشعر الأحمر المجدول، والعينان الخضراوان، والبشرة الوردية المملوءة بالنمش. وجهها مستدير يتوسطه أنف شديد الاستقامة يتواطأ مع عظمتي وجنتيها المرتفعتين لشد شفتها العليا لتنفرج كاشفة عن صف أسنان يسبق الصف السفلي بمليمترات قليلة. هي الابنة الكبرى لأبٍ يعمل مدرسًا، وأم ممرضة، التقيا وتزوجا في مدينة أبردين شمال شرق أسكتلندا، حيث يلتقي نهرا الدي والدون مع بحر الشمال. لم تكن روزي الطالبة الأكثر تفوقًا، ولكنها، دون شك، كانت من أكثرهم جدية.

لم تتوقع روزي أن تختلف أشهر دراستها الأخيرة بالجامعة عن سنوات دراستها التي مرت دون أحداث جسام. ولكنها على مدار شهرين ظلّت تواعد ذلك الفتى الشرق أوسطي وهي تغالب أحاسيس لم تعتدها. أصبح وجهه ضيفًا دائمًا في مخيلتها في النوم واليقظة. تلازمها دغدغة خفيفة في بطنها كلما جال بخاطرها لقاؤهما الأخير،

ولقاؤهما المنتظر التالي. حاولت أن تقاوم سطوة تواجده الدائم في مخيلتها فتحاشت رؤيته لأسبوع كامل، لكنها وجدت نفسها مستغرقةً في التخطيط للقائه في الأسبوع التالي.

لمْ يكن مهما بالنسبة لها ما يفعلاه حين يلتقيان، بل كان اللقاء هو الأهم. كلما التقته فقدت قدرتها على الإفصاح عمَّا عزمت أن تُسرّ به، فتسير إلى جانبه كالمسحورة. صوته وطريقته وحكاياته وكل التفاصيل التي تحدث بينهما، يلتقطها عقلها ويظل محتفظًا بها حتى يلتقيا من جديد. أحسّت أنها تخون دماء الأسكتلنديين الباردة بمشاعرها المتأججة، وأدركت لِمَ اختارت عبارة "الوقوع في الحب" للتعبير عن حالتها تلك في جميع اللغات. صارت قيد مصيدة لذيذة مستساغة مفعمة بمشاعر فوارة لا مهرب منها مهما حاولت. مشاعر صاحبتها أحاسيس أخرى لم تكن مفهومة بالنسبة لها. نوع من الغموض غلّف شخصية مَن تهواه، دفعها للتنقيب في أثره وجعل من أمين محورًا لتفكيرها وتحليلها. قررت أن تمضي خلف فضولها لتبحث في ماضيه قبل أن تلتقيه، برغم أنه حكى لها الكثير عن حياته وبلاده وأصدقائه الذين تركهم خلفه بعد أن جاء للدراسة بإدنبرة.

أكثر ما أقلقها، كان شعورها بأنه رغم رقته البالغة، لم يصل إلى نفس درجة ما تشعر به نحوه. أحست بأنها مجرد فتاة أخرى يواعدها، في حين أصبح هو الفتى المسيطر على فؤادها. تعجبت لتبادلهما الأدوار؛ فهو الجنوبي ذو الدماء الحارة لكنه يتمالك نفسه ومشاعره، بينما هي ابنة الشمال البارد صارت حارة الدماء ونبض قلبها بحب لم

تخطط له. ومع اختلاج مشاعرها تجاهه نمت داخلها رغبة في التملك جاهدت في إخفائها.

اتصلت بزميلتها التي تعمل بإدارة الجامعة، وطلبت أن تطلعها على ملف أوراقه، وتحت إلحاحها لانت صديقتها ودعتها إلى مكتبها. ما إن جلست حتى ادّعت صديقتها أنها ستذهب إلى مديرها وأن عليها انتظارها حتى تعود. قبل خروجها أومأت برأسها إلى ملف ملقى على سطح المكتب. التقطت روزي الملف المعنون "أمين يسري". تسارع نبضها وهي تقلب صفحاته وتلتقم معلوماته. استمرت في تقليب الأوراق حتى وصلت إلى صفحة المعلومات المالية. شخصت عيناها وهي تطالع المسطور داخل الملف. أعادت القراءة عدة مرات لتتأكد من المكتوب، وكلما أعادت قراءة ما اكتشفته ازدادت شعورًا بالحيرة والغرابة.

بصعوبة شديدة اضطرت لترك الملف حيث كان، وغادرت مبنى إدارة الجامعة. احتارت في تفسير ما عرفته، لماذا أغفل أمين إطلاعها عليه؟ أيقنت أنها ليست أكثر من نزوة سريعة أو قصة عابرة في حياته، ما دام يخفي عنها تفاصيل مثل تلك التي علمت بها. أجهدها التفكير والتمحيص في اكتشافها. فقدت شهيتها وذبلت، فقررت أن الحل لحالها أن تواجهه وتطلب منه تفسيرًا.

***

بنفس سرعة سحبه للورقة التي وضعت عليها بصمة إبهامها، سحبها إلى سرير قابع في ركن غرفة مكتبه، جثم فوقها دون أن ينسى

أن يعيد على مسمعها ما كرّره طوال الأسبوع الفائت حين كان يقنعها بزواجهما العرفي:

- ترين يا زينب ما أبغاكِ إلا في الحلال.

مضى شهر، زارها خلاله ليلًا نحو خمس مرات. في بداية الشهر التالي فاجأها سكرتير فهد باستدعائها إلى مكتبه:

- دول مرتب تلات شهور ودي تذكرة رجوعك يا زينب.. طيارتك النهارده آخر النهار!

تذكرت، وهي قابعة إلى جانب السائق الهندي في طريقها إلى المطار، ورقة الزواج العرفي التي تحمل بصمتها. تساءلت إن كان سيدها قد مزقها، وهو يصدر تعليماته للسكرتير بإنهاء خدماتها أم يحتفظ بها مسكنًا لضميره أو ليوم حسابه مع ربه. كان بها شيء من الحزن لأنها لم تودّع خليفة الطفل الذي جاءت لتكون مربيته. امتلأت خجلًا حين تذكّرت أنها لم تودع عايدة أم خليفة قبل ذهابها.

هل عرفت عايدة بما فعلته مع زوجها فأجبرته على طردها؟ لو كان حدث، فلا لوم على مَن فتحت لها بيتها وأتت بها من مصر. تتذكّر زينب يوم أخبرتها أمها أن عايدة التي كانت مربيتها تبحث عن مربية لابنها خليفة ذي الثلاث سنوات. جاءت فرصة الرحيل في وقت دقيق، بعد أن طلّقها سيد زوجها حين اكتشفت خيانته مع فتاة لعوب تسكن على بعد بيتين من شارعهم بإمبابة.

أحسنت عايدة استقبالها منذ لحظة وصولها، واهتمت براحتها وهي تكرّر على مسامعها كمْ أحبت أمها وقدّرتها. أسهبت في سرد ذكريات طفولتها مع أم زينب حتى أحست بالغيرة مما تمتعت به عايدة. وحُرمت هي منه من أمها. لعل هذا سهَّل قبولها وتمتعها باهتمام زوج عايدة بمربية ابنه الشابة. منذ رآها، أفصحت عيناه عن إعجابه بها. لم تُفاجأ زينب بهذا الإعجاب، فهي خمرية جميلة ذات قوام ملفوف يعشقه رجال الشرق. حين بدأ يُفصح عن رغباته راودها حلم ساذج بأنها ستتجاوز خطّ الفقر وتصير من الأسياد إن سايرته ولبّت نداءه. لم تجد فيما ستأتيه خيانة، وهي ترى مخدومتها ضرة على امرأتين أخريين تقيمان معها في نفس المنزل المهيب.

لكن المغامرة انتهت سريعًا كما بدأت، وبعد أقل من ثلاثة أشهر، وفي قيظ مايو الملتهب، تجلس في الطائرة منزوية في مقعدها في طريقها إلى القاهرة، وقد ربت ثروتها فقط بما نفحها إياه سكرتير الشيخ من عُملة يصفونها بالصعبة.

***

- حاضر يا فندم.. هاعمل اللازم..

أغلق الضابط النوبتجي سماعة التليفون بعد أن استمع إلى تعليمات مأمور القسم بخصوص المحضر الذي أمامه، استدعى أحد العساكر ليملي عليه أمره:

- هات لي المصاب اللي في المحضر الأول!

دخل شـاب نحيف ضئيل الحجم، وجهه متورم، عليه آثار ضرب مبرح.

- خير يا أستاذ؟

- زي ما حضرتك شايف، أنا تم الاعتداء عليّ.

- اهدى بس يا أستاذ واحكيلي.. الأول حضرتك بتشتغل إيه؟

- أنا مخرج مسـرحي.. واحنا بنعمل البروفة بتاعت المسرحية في مسـرح قصر النيل دخل علينا اليلطجي اللي بره وهاتك يا ضرب لغاية لما وقعني على الأرض.. لو سـمحت يا فندم أنا عايز أثبت الإصابات اللي فيا دي.

- ممكـن حضرتـك تهدى بس.. حقك هاتخده بـس أنا بانصحك يعني.. لو عملنا محضر وقضية وكل الكلام ده هاتكسب إيه؟

- مش فاهم ؟ هاكسب إيه يعني إيه؟

- بص أنا هاجيبه دلوقتي وأخليه يعتذرلك ويبوس رأسك كمان.

- يعتذرلي ويبوس رأسي!! يعني بعد العلقة اللي أخدتها يعتذرلي ويبوس رأسي.. هو ده القانون؟ هي دي البلد اللي إحنا عايشين فيها؟

- بلاش كلام كبير يا أستاذ.. إحنا عندنا شـغل أهم من الخناقات والكلام الفاضي ده.. اسمع الكلام وخلينا نلم الموضوع!

لم يعطه الضابط فرصة للرفض، إذ سـارع بإصدار أمره للعسـكري بإدخال الطرف الآخر، وما إن دخل حتى دعاه الضابط للجلوس، بينما

ظل المخرج المسرحي واقفًا:

- إيه يا كابتن الموضوع.. إيه اللي حصل؟

- الأفندي ده أنا حذرته بدل المرة عشرة إنه مالوش دعوة بخطيبتي..

- خطيبتك؟ هو عاكسها؟

قاطعهم المخرج:

- خطيبته يا فندم هي بطلة المسرحية.. هو مش قادر عليها يقوم يضربني؟ مش عايزها تمثل ده موضوع يخصهم، أنا مالي.

نظر إليه عزيز نظرة نارية وقد نفرت عروق رقبته:

- مالك يعني إيه؟ ما انت اللي مالي دماغها بموضوع التمثيل.

تدخّل الضابط:

- بالراحة يا كابتن.. إحنا عندنا تصفيات إفريقيا الأسبوع الجاي، وعايزينك تكسب علشان توصل الأولمبياد إن شاء الله.. سيادة اللواء سكرتير الاتحاد كلم المأمور ووصى بحل الموضوع ودي.

ثم توجّه بحديثه إلى المخرج:

- ده موضوع يهم البلد يا أستاذ، فمن فضلك تقبل اعتذاره والموضوع يخلص عند كده!

رد عزيز وقد أدرك أن له اليد العليا في الموقف:

- أنا هاعتذر له بشرط.. يمشي هدى من المسرحية.

وهكذا وقبل نهاية مايو، تم استبدال هدى بممثلة أخرى لتصبح بطلة للمسرحية التي ظلت تسعى لتؤدي فيها أول أدوارها كممثلة محترفة.

***

وضع إبراهيم اللمسات الأخيرة لمقال الجمعة الأسبوعي. لم تكن هناك أحداث سياسية كثيرة وقعت في تلك الفترة. توفيت ميمي شكيب يوم 20 مايو 1983، وتبعها الشاعر أمل دنقل في اليوم التالي. بدأ المقال بافتتاحية من قصيدة دنقل "لا تصالح" استعذب فيها أبياته المفضلة منها:

لا تصالحْ!

ولو منحوك الذهب

أترى حين أفقأ عينيك ثم أثبت جوهرتين مكانهما.. هل ترى...؟

هي أشياء لا تُشترى..:

ذكريات الطفولة بين أخيك وبينك،

حسُّكما - فجأةً - بالرجولةِ،

هذا الحياء الذي يكبت الشوق.. حين تعانقُهُ،

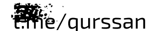
الصمتُ - مبتسمين - لتأنيب أمكما..

أعجبه مدخله ولكنه سرعان ما مزّق الأوزاق وأشعل سيجارة وفكر مليًّا قبل أن يبدأ في كتابة رثاء للنجمة ميمي شكيب، ويطنب في وصف الفراغ الذي ستخلفه. أدرك أن هذا سيكون مناسبًا أكثر للكاتب الكبير الذي يكتب المقالات باسمه، والذي يكتفي بأن يمهر المقال بتوقيعه وتلقي المدح عمًّا كتبه إبراهيم. فهو يعلم إن رثى دنقل سيصب عليه الكاتب الكبير جام غضبه، بل ربما ينعته بالجنون إن ظن أنه من الممكن أن ينشر مقالًا عمَّن مات وهو على ذلك الموقف الصريح من معارضة النظام وسلامه مع العدو الأبدي.

يكتب إبراهيم المقالات لرئيس التحرير منذ التحق بالجريدة قبل عام، بعد توصية من والد كريم لصديقه رئيس التحرير. اكتشفه أستاذه يوم تعيينه واختاره بديلًا لسابقه الذي ترك البلاد ليعمل بإحدى مجلات الخليج. لم يحتج إبراهيم على هذا الوضع لما ظنّ أنه سيساعده على صعود سلالم عوالم الأدب والصحافة كما وعده. أزعجته فقط مماطلته في تنفيذ وعده بالتوصية لدى معارفه لكي يترشح لإحدى أهم جوائز الدولة لشباب الأدباء. أيقن مع مرور الوقت أنه مجرد وعد فارغ آخر من مديره الذي يتقن صنعة الكلام.

***

في مايو 1983 كان علاء عبد الحميد قد أتم عامه الثامن بالشركة التي يعمل بها. بدأ مهندسًا حديث التخرج في قسم الميكانيكا بهندسة



القاهرة، وتوسط له والده لدى صديقه صاحب الشركة ليوظفه. كان فخورًا بما حقّقه وقد أتم عامه الواحد والثلاثين، حيث صار مديرًا بالشركة التي ساهم في أن تصبح أحد أكبر توكيلات المعدات الثقيلة في مصر. وهو ما جعل مالك الشركة يعتبره كابن له. لم يُلقِ بالًا بانضمام ناديا ابنة صاحب الشركة إلى فريق العمل بالشركة بعد تخرجها في الجامعة الأمريكية، ولم يشعر بالقلق على مركزه، وحين طُلب منه أن يأخذها تحت جناحه ليعلمها كل ما تحتاج معرفته من أمور وتفاصيل، لم يبخل عليها بأي معلومة بل على العكس من ذلك، رأى فيما كُلِّف به حقًّا طبيعيًّا لمَن ستؤول لها ملكية الشركة يومًا من الأيام.

لم تكن علاقته جيدة فقط بأبي ناديا، بل كانت أشد وأوثق مع أمها سويدية الأصل التي كانت الدينامو الحقيقي وراء نجاح الشركة باتصالاتها في بلدها الأم، والتي كانت سببًا لأن تكون الشركة وكيلًا لأكبر منتجي المعدات الثقيلة في السويد، حتى امتد نشاطها من مصر إلى عدة دول أخرى في منطقة الشرق الأوسط.

كان علاء ما زال يسكن في بيت عائلته بالمهندسين قريبًا من الفيلا التي يحتلها مقر الشركة. مع نبوغه وصعود سهمه في عمله ازداد ضغط أمه عليه ليسعدها بزواجه. استجاب أحيانًا لرغبتها في لقاء بنات صديقاتها ممّن ترشحهن له، وعاند في أحيان كثيرة بعد أن وجد فيمَن تختارهن بُعدًا شديدًا عن الصورة الذهنية التي رسمها لمَن ستشاركه حياته.

وحين جاءت ناديا للشركة، عثر فيها على تلك الصورة التي تمناها. رغم أنه عرفها صبية لم يفكر فيها يومًا كزوجة، لكنه وجد فيها شابة يافعة جميلة تجمع بين ما يحبه في المصريات وما أصبح يعجبه في الأوربيات من تحضّر وانفتاح. فكّر مليًا في إبعاد رغبته تلك وما قد تسببه من تعقيدات لحياته العملية والنجاح الذي يعيشه. حين ألمح لأبيه بشعوره، أشار عليه أن يتأكد قبل أن يقدم على الخطوة التالية. نصحه بالانتباه، إذ ستكون نتيجة الرفض فقدان وظيفته!

واصل تقرّبه لناديا بحذر شديد، وقرر ألّا يخبر والدها إلا بعد أن يتأكّد من فرصه لديها. لم يكن سيفصح لها عن شيء، إذ قرّر أن يكون تقليديًا ويطلبها مباشرة من والدها حين يستشعر لديها القبول، على الرغم من أنه لم يكن غرًّا فيما يخص النساء؛ إذ إن عزوبيته كانت مفعمة بالمغامرات سواء في مصر أو في أسفاره المتكررة إلى بلاد جدود ناديا من الڤايكنج. في الأسابيع الأخيرة، أحس بتجاوبها، وشعر بميلها تجاهه. وفي ذلك اليوم من شهر مايو، وصل مكتبه مبكرًا كعادته وشرب فنجاني قهوته الصباحيين، وجلس ينتظر وصول صاحب الشركة. قرّر أن يخطر والده ليطلب له يد ناديا.

طال انتظاره لوصول العائلة ذلك اليوم وتحول صبره قلقًا بما يعرف من اهتمامهم بمواعيد العمل. خرج من مكتبه إلى حيث تجلس سكرتيرة صاحب الشركة فراعته وجنتاها المبللتان بالدموع.

كاد النوم يخرج من جدول كريم اليومي وهو يستعد لامتحانات بكالوريوس الهندسة الميكانيكية في جامعة القاهرة. توزّع ليله ونهاره

ما بين حضوره للمحاضرات ومراجعته للمواد العلمية، ووضعه التفاصيل الأخيرة في مشروع التخرج. لم يشك أحد في أنه سيحرز تقدير الامتياز، وأنه بالتأكيد سيظل أول دفعته كما اعتاد طوال سنوات الدراسة الخمس. لم يساور أحد الشك سوى كريم نفسه! الذي أفقده معيد إحدى المواد ثقته بنفسه، حين استمر في منحه درجات دنيا في أعمال السنة عن تلك المادة. ناقشه مرارًا محاولًا فهم ما يمكنه عمله لكي يحرز الدرجة كاملة كما اعتاد، فلم يُعطه جوابًا شافيًا. قرّر اللجوء لأستاذ المادة كي يشكوه، لكن أحد أصدقائه حذره أنه بذلك يفتح على نفسه نيران عداء زملاء ذلك المعيد، ليمتد التعسف إلى المواد الأخرى. ثم عاد صديقه بالبشرى والحل قدمهما له في نصيحة سديدة:

- يا عم كريم الحل بسيط وفي إيدك.. خد معاه درس!

- أنا فاهم المادة كويس.. مش محتاج درس.

- يا سيدي افهم الدنيا كويس، زي ما انت فاهم المادة.. تاخد الدرس تقوم الدرجات تتعدل.. فاهم والا ؟!

بعد التشاور مع والده اتفق مع المعيد على الدرس ودفع ثمن الحصص. ولم يأبه بحضورها، بعدما اطمأن إلى أن درجاته تعدلت في دفتر أعمال السنة لتصبح القصوى.

***

ليلة رأس السنة 2010

قدّرت القاهرة ثلاث ساعات زمنًا لرحلة أمين من مطارها إلى عمارة ليبون.

أصبح لديه أقل من نصف ساعة قبل أن يبدأ أصدقاؤه التوافد إلى هناك. وبرغم عجلته لم ينسَ التوقف لحظات ليقرأ الفاتحة عند البقعة التي ودّع فيها أباه، في مشهد لم يفارقه مهما طالت الأوقات أو بعُدت به المسافات. يتذكّر بدقة كل تفاصيل تلك الليلة البعيدة، حين خرج يسري من غرفته مترنحًا يتساند إلى الجدران التي تطالها يده، يقول بحشرجة صوت مخيفة:

- خذني إلى الأنجلو يا أمين!

سارع أمين وكريم يساعدانه على الوقوف وبدأوا يجرانه إلى خارج الشقة نحو المصعد. ابيضّ وجهه أثناء نزولهم، لم يعد الشحوب وصفًا دقيقًا لما اعتراه. أحكم قبضته على ساعد أمين، وهو يعاونه على نزول درجات السلم القليلة المؤدية إلى بوابة الخروج. رآهم عثمان بواب العقار فجرى تجاههم ليمد يد المساعدة حتى بلغوا الشارع. ظلّ أمين يشير بجنون نحو السيارات المسرعة، متغافلًا عن سيارتهم المصفوفة

قريبًا، حتى توقفت إحداها، فسأل سائقها أن يتجه بهم فورًا إلى مستشفى الأنجلو أمريكان في آخر شارع الجبلاية. وحين التفت إلى أبيه ليساعده على الركوب وجده وقد افترش الرصيف يمد يده إليه بعيون خائرة، وأنفاس بطيئة. انحنى فوقه أمين وحاول رفعه نفرجئ بأبيه يجذبه إليه. اقترب وجهاهما حتى كادا يتلامسان، تلاحقت أنفاس يسري واختلطت بها آخر كلماته:

- سلام يا أمين.

قالها وارتخت كفّه، وتهاوت من يد ابنه الذي شدّد قبضته محاولًا الإمساك بروح أبيه التي تنفلت من ثنايا بدنه. لكنه أدرك في هذه اللحظة كم هي بسيطة وظيفة ملك الموت، يقبض على صاحب الموعد دون حاجة لمقدمات طويلة أو مبررات كافية. يترك الأحياء يتحبون مشدوهين، ثم سرعان ما تجرفهم حياتهم المعتادة حتى تجيء أدوارهم واحدًا بعد الآخر. لا يهم طريقة تنفيذ الأمر الإلهي إذ يبقى طعم الفراق عالقًا وتتلاشى ذكرى الوسيلة مع مرور الزمن. لا فرق إن كان السبب أزمة قلبية أو حادث سيارة أو فرحة زائدة أو حزنًا دفينًا ظل يسحب من رصيد الحياة. في هذا اليوم كانت مواجهة أمين الحقيقية مع الموت إذ كان أصغر من أن يعي معانيه يوم اختار أمه.

دُفن يسري وأقيمت جنازته، وأصبح أمين حديث مَن حوله. الفتى اليتيم الذي لا قريب له يرعاه: كيف سيعيش، بل كيف سينجو؟ قيل إن مصير الفتى إلى ضياع، بعد أن تركه يسري دون مقدمات ودون أي نوع من الترتيبات!

تذكر أمين تفاصيل كثيرة عن هذه الأيام إلا ما يخص منها مشاعره آنذاك. امتلأ بالخواء، وتجمّدت بداخله قدرته على الشعور. كانت أول دمعة ذرفها على أبيه يوم وصل إلى الجامعة في أسكتلندا بعد وفاته بقرب العامين. عامان تعثر فيهما في دراسته كما أملت عليه الظروف التي يعيشها.

لكنه يدين لأهل صديقه وجاره كريم بالفترة التي عاشها وحيدًا. أصروا على أن يقيم لديهم في غرفة كريم، عدا وقت النوم، يستطيع أن يعود ليبيت في شقته التي أضحت موحشة باردة.

قاطع أفكاره ترحيب ابن عم عثمان البواب، يستقبله بعد توقف السيارة أمام العقار:

- أهلًا أمين بيه.. ألف حمد لله على السلامة.

ومد يده ليحمل عنه حقيبته ويسبقه إلى المصعد. انفرجت أسارير النوبي واتسعت ابتسامته حين نقده ورقةً خضراء من فئة المائة دولار. أصر ألا يتركه إلا بعد دخوله الشقة التي كانت جميع أنوارها مضاءة في انتظار وصوله. جال بنظره سريعًا ليجد كل تعليماته قد نُفذت بحذافيرها. توسطت الصالة الواسعة طاولة الملك فاروق وهي تلمع إثر دهان جدد بهاءها. التفّ من حولها سبعة مقاعد متناغمة معها تم شراؤها وشحنها خصيصًا من باريس قبل عدة سنوات. خوت صالة الاستقبال من أي مفروشات أخرى عدا منضدة طويلة قبعت في أقصى ركن منها، وارتصّت فوقها أطباق وأكواب العشاء. وكأنه يطمئنه أخبره الخادم:

- طقم الفورسيزونز في المطبخ بيجهزوا العشا يا سعادة البيه.

تركه وتوجّه إلى الداخل حيث غرفة النوم. سارع إلى الحمام ليأخذ دشًا سريعًا قبل أن يرتدي ملابس السهرة استعدادًا لزمرة الأحباب التي غدت على وشك الوصول.

كعادته اعتنى كثيرًا باختيارات ملبسه. لم يكن بحاجة لإثبات شيء لأحد، لكنه كان يؤمن على الدوام بأن ملابس الرجل هي أول ما يلفت أنظار مَن يلتقيهم. مهم جدًّا أن تتناغم الألوان بلا صراخ وأن تعلن عن تميزها دون فجاجة. مضت سنوات وهو يشتري ملابسه من محلات لا يعرف نطق اسمها الصحيح أغلب الناس. مصانع وعلامات تجارية يصمم فنانوها أزياءهم، بينما أمين وأمثاله من ذوي القدرات الشرائية الخارقة في أذهانهم، ويضعون أسعارها قبل عرضها، وهم على علم بمدى عمق جيوب زبائنهم. زبائنهم شلل أعضاء نادي شديد الخصوصية، هم فقط مَن يلحظون ويقدرون ما يرتديه نظراؤهم. يترفعون في تميز وتمييز عما يسيل لعاب مَن هم أدنى ثراءً. تمامًا مثل السيارات، فنادي البليونيرات لا يهتم أعضاؤه بالمرسيدس التي هي حلم لكثيرين، بل يقتنون، دون جلبة تذكر، البوجاتي أو الماكلارين، وفي أحيان المايباخ، طالما ظلت بعيدة المنال للعامة. أعضاء هذا النادي المميزون تعدوا شراء أغلى ساعات الرولكس، وانحصرت رغباتهم في ساعات هاري وينستون أو پاتچيه على أقل تقدير. هم يعشقون العلامة التي تحيّر العوام، وتدفعهم للتساؤل دون أن يجدوا إجابة حاضرة.

خرج إلى الصالة من جديد يراجع الترتيبات وتفاصيلها. بدأ في رص وحدات الفيش الممهور بحرفي الألف والياء المذهبين على المنضدة. تلفت حوله وهو يتفحص للمرة الأخيرة أربع مجموعات بعينها من أوراق اللعب، لعلها الأهم في هذه الليلة!

تأكد من ترتيب أوراق المجموعات التي أمضى رحلة الطائرة في إعدادها قبل أن يضعها في الدرج الخفي أمام كرسي الموزع. جلس إلى المنضدة وكرّر ثلاث أو أربع مرات سَحْب المجموعات المخبّأة بخفة غير ملحوظة. أحسن إغلاق الدرج غير المرئي، ونهض من مكانه.

كان سعيدًا لأنهم سيجتمعون من جديد. لقاءٌ اعتادوه لأكثر من ثلاثين عامًا؛ ليلة رأس السنة من كل عام في شقة أمين بعمارة ليبون في زمالك القاهرة. تجمع أعضاؤه السبعة غير مسموح بأن يُضاف إليه أحد. حتى حين كان يتزوج أحدهم، كان يخطر شريكه بأن هذا اليوم محجوز للقاء "شلة ليبون". ولا بد للشريك أن يمتنع؛ لأنه غير مدعو لها، ولم يكن خيطًا من نسيج قماشة ذكرياتها. عدة أعوام افتقدوا وجود ناديا بينهم، حين مُنعت عنوة عن الحضور. لم تقتصر لقاءاتهم على تلك العادة السنوية، بل استمر الاتصال بين سبعتهم على مدار الأعوام دون انقطاع. احتفظوا ورعوا العلاقة التي تشاركوها، حتى غدا لفظ الصداقة غير كافٍ لوصف ما يربط بينهم.

احتفظ أمين، نزولًا على رغبتهم، بشقة ليبون على حالها دون أي تعديل أو تجديد. سمحوا له فقط بدهان حوائطها، بنفس ألوانها

القديمة، وتلميع أرضياتها الخشبية كل بضع سنوات. أصروا أن يظل الأثاث والإضاءة على حالهما دون اختلاف كما كانا أيام المدرسة. اختاروا أن يعود بهم المكان إلى زمان يحبونه ليلة من كل عام جديد.

- إيه رأيكم نلعب دور بوكر زي ما علمنا أونكل يسري!

كان ذلك اقتراح عزيز في رأس السنة التالية لرحيل يسري. طرح الفكرة حين طال الصمت على لقائهم يومذاك. أعجبت كريم، فاتجه نحو طاولة الملك فاروق في ركن الصالة وهو يدعو الباقين:

- فكرة حلوة يا عزيز.. يالا بينا!

لم يكن في حسبانهم، وهم يتخذون مقاعدهم حول المنضدة، أنهم بصدد إرساء ما سيصبح طقسًا ثابتًا للقائهم السنوي. سيكون دور البوكر الذي يلعبونه الجزء الثابت في احتفاليتهم بقدوم كل عام جديد. لم يقامروا بالمال في أي مرة ولا جال بخاطر أيهم أن يستبدلوا الفيش بأموال حقيقية. ظلت لعبةً بين أصدقاء ازدادت إثارتها وحميتها مع تمرسهم وصقلهم لمهاراتهم.

يتذكرون جميعًا تلك السنة التي وجدوا فيها أمين وقد علّق لوحة على أحد الحوائط مسجلًا عليها اسم الفائز في كل سنة سابقة. وبعد مرور ثلاثة عقود جاورت اللوحة اثنتان أُخريان يكملان سجل الفائزين. كريم كان الأكثر فوزًا، يليه أمين، بمسافة ليست بالبعيدة. ثم ناديا، التي غدوا يلقبونها "بطلة الخداع" لكنها كانت تبتعد بفارق

ملحـوظ. فاجأتهـم عايـدة بالفـوز ذات مـرة متفوقـة على هـدى التي لم تسـتطع على مدار سـنين طويلـة أن تنهي ليلة وهـي متوجة بالفوز. إبراهيم وعزيز تـساويا معًا بفوزين لاسم كلٍّ منهما. لم يحبط عزيز لقلة مـرات فوزه، وظـل يدّعي دون إثبات أنه أكثـر الحاصلين على المركز الثاني، متجاهلًا أن اللعبة لا تعترف سوى بالفائز الأول!

لعبهـم اليـوم سـيكون مختلفًـا عـن كل ما سـبق. ليس لأنهـا بداية سـنة يُتمّـون فيها تباعًا عام كل منهم الخمسـين في هـذه الحياة، ولكن لأنهـا المرة الأولى التي سـيظفر فيها الفائز بجائـزة. جائزة تولّدت من إحـدى أفكار أمين غير المألوفة كما اعتـادوا منه، أو بالأصح، تولّدت بخبـر غريب عرفوه منـه، وتطوّر بمقترحاتهم إلى مباراة ذات مكسـب مختلف!

كانـت الفكـرة وليدة ذلك الصباح الذي أفـاق فيه من نومه في أحد الأجنحـة الملكية بفندق يتجـاوز تصنيفه عدد النجوم التي تُعرف بها فنـادق العالـم الفخمة. ولمدة ليسـت بالقليلة، أبى ذهنـه أن يحدد في أي بقعة في العالم بات ليلته التي شـهدت ميلاد الفكرة، لكثرة أسفاره متتبعًـا أعماله وشـركاته في أنحاء العالم المختلفـة، اختلطت في ذهنه الأماكـن، وتشـابهت أسـرّة الفنـادق الوثيرة التـي لا يقضي بـأي منها -في أغلب الأحوال - غير سـويعات قليلة قبل أن يهرع من جديد إلى طائرته الخاصـة، حيث ينتظره اجتماع أو تفاوض أو إنهاء صفقة ستترك أثرًا على ثروته.

لكنـه لـم يسـتطع أن يوقف ذهنه عـن التفكير في حالـه وما آل إليه. أغلب البشـر يحلمون أن يحققوا شـيئًا من نجاحه، وأن يمتلكوا جزءًا بسـيطًا مما يحوزه. وهذه الأغلبية نفسـها ستشـخص شكواه من الوحدة والملل بأنها عرض من أعراض الوفرة، بل هي أسوأ أنواع البطر بالنعم. لكن شعوره بالضبابية، في ذلك الصباح، جعله يتفكر في أحواله، وإن كان يرغب في استمرار حياته على وتيرتها.

كعادتـه، لم يُطل التفكيـر ليصل إلى قرار، وكان قـراره هو التغيير. ولأنـه اعتـاد أيضًا ألّا تكـون التغييـرات طفيفة أو متدرجـة، بل قاطعة حازمة أقرب إلى الثورية، قرر أن يعتزل العمل، وأن يبدأ صفحة جديدة في حياته عنوانها الاسـتمتاع بما أصاب من الثـروة. وحين اطمأنّ إلى هـذه القناعـة، بـدأ يفكر في خطـوات التنفيذ. بـدا له الأمـر أقرب إلى المسـتحيل، بالنظـر إلى حجـم أعمالـه وتداخلاتها. أرّقـه قليلًا ذلك الفـراغ الـذي لا بد وأن يملأ حياتـه إن اعتزل العمل تمامًـا، فتراءى له أن يعتزل العمل اليومي وأن يستمر في إدارة أمواله كمسـتثمر، وبالتالي يخفف عن نفسـه ضغط العمل دون أن يغرق في تفاصيله اليومية.

احتاج ما يربو على ثلاثة أعوام، حتى اسـتطاع بيع شركاته وتحويل اسـتثماراته إلـى أسـهم يتابعها في بورصـات عالمية عـدة، تحوّل يوم عمله إلى سـاعة أو اثنتين أمام شاشـة الكمبيوتر يتخذ خلالهما قراراته بالبيع أو الشـراء أو إبقاء الوضع علـى حاله. برع في مضارباته فكادت ثروته تتضاعف في وقت وجيز. توفر له الوقت ليجوب العالم سائحًا، وحرص على أن ينضم إليه أصدقاؤه كلما اتسـع وقت أحدهم لذلك.

أكثر ما استمتع به كان تمكّنه من قضاء وقت أطول في القاهرة، بعد أن كان قد هجرها عشرات السنوات. ظل التحدي الذي يواجهه أن ما زالت به طاقة وفراغ كبير غير مستهلكين. فكر آنذاك في أنه لو بقي في غربته لاستطاع أن يكرس تلك الطاقة في النشاط المجتمعي. طالما أعجبه الفكر الغربي الذي يُعلي من شأن وأهمية مثل تلك النشاطات حتى أضحت مسئولية وإن كانت غير مكتوبة ينتظر المجتمع من أمثاله من الأثرياء أن يضطلعوا بها. احتار كثيرًا إن كانت مصر مستعدة لمثل هذا وإن كان سيجد مَن يشجع إقدامه على هذا.

يدين لناديا بأنها مَن جعلته يتخلى عن بعض تردد قد يكون خالجه فيما يخص الفكرة يوم فاجأته باقتراح مطابق لما بذهنه في إحدى مكالماتهم:

- وجّه جزء من فلوسك للعمل المجتمعي!

أجابها بثقة:

- ربنا عالم أنا باتبرع للخير قد إيه.

كان يدرك أنها لم تكن تقصد التبرعات الخيرية، وإنما تلك الاستثمارات التي توجه إلى التطوير المجتمعي في مجالات كالفن والتعليم والثقافة. ذكّرته ناديا بأمثاله في مجتمعات أورُبا، وما يفعلونه بالمتاحف والجامعات ومراكز الأبحاث.

فهم ما تعنيه وأعجبه ما فهم. انشغل عقله بكم المجالات التي يستطيع أن يشارك بها، وأن يلعب دورًا في خدمتها وتطويرها وترك

بصمة بارزة عليها. أعجبه أن يقترن اسمه بمثل هذه المساهمات فيتبوأ مكانة ربما لم يحصدها برغم نجاحه المشهود في عالم المال حتى الآن. لم يخطر بباله، وهو يقلب الموضوع في ذهنه، سوى صندوق الخدمة المجتمعية الذي سيُنشئه. قضى وقتًا لا بأس به في دراسة ما تقوم به مثل هذه الصناديق في الدول المتقدمة. لم يفته، تمامًا مثلما تعود في شركاته، أن يدرس ما في مصر من صناديق مماثلة يقف وراءها أثرياء. انتهى إلى أن يبدأ صندوقه بعشرين مليون دولار. عزم على أن يزيدها بعد ذلك في المستقبل من أمواله ومن أموال تبرعات وثق في قدرته على جلبها متى بدأت مساهمات صندوقه في البروز على الساحة.

لم يحتج سوى لحظات حتى يختار مجلس أمناء للصندوق. ولم يكن اختياره انحيازًا ولا لقلة معارفه، إنما عن اقتناع عما يستطيع كل منهم تقديمه في مجالات عمل مختلفة. أحب أيضًا فكرة تجمّعهم معًا في عمل مشترك، وشجعته رغبة ناديا في العودة للديار ومن قبلها رجوع كريم لتكتمل عدتهم في وطن واحد من جديد. أثاب نفسه كثيرًا على تشكيل مجلس أمناء صندوقه الذي اختاره لما وجده من حماسهم حين أعلنهم باختياره لهم.

هدى الممثلة المشهورة التي تحبها مصر تحمست لقيادة إسهاماتهم في مجال الفن. وجد لديها أفكارًا كثيرة يحتاجها هذا المجال ويعجز عن تحقيقها لعدم وجود تمويل كافٍ، وهو نفس ما أسر به له إبراهيم في مجال الثقافة والإبداع. أمّا عزيز فتحمّس كثيرًا

لفكرة تخصيص جزء من إسهاماتهم في صناعة أبطال رياضيين وعدّد كريم كمًّا هائلًا من المشاريع البحثية التي يعلم بحاجتها لمساندات مادية لكي تكتمل. أما عايدة بانغماسها في الأعمال الخيرية منذ عادت إلى مصر، فكانت مؤهلة لطرح أفكار لتطوير القرى وتحسين ظروفها المعيشية. في حين أطالت ناديا في أطروحاتها من أجل برامج توعية بأهمية الصحة النفسية وزيادة الوعي بخطورة إهمالها.

ومنذ اتخذ القرار وأخبرهم بأفكاره، صاروا شركاء معه خطوة بخطوة. اعتادوا إجراء محادثة جماعية أول كل شهر. يتحدثون عن أفكار كل منهم في مجاله ويتحاورون عن نقطة البداية. امتلأوا جميعًا بالحماس والشغف. وفي مكالمتهم الأخيرة قبل نحو شهر من ليلة رأس السنة أخبرهم كريم بأن هناك مشكلة فعلية تؤرّقه، هي كثرة نقاشهم وأفكارهم، دون قرارات تُذكَر!

أجاب أمين:

- لما تخلص الأوراق يا كريم ناخد القرارات.

- الموضوع مش أوراق يا أمين.. أفكار كتيرة، لكن وقت التنفيذ هاتحصل خلافات!

رد إبراهيم:

- يبقى لازم نتفق إزاي هانبدأ.

أراد الكاتب الشهير أن تكون نقطة انطلاقهم، هي طرح أكبر جائزة ثقافية في مصر، فتدخّل عزيز معتبرًا أن رعاية النشء في المجالات

الرياضيـة الفرديـة هي الأوْلَـى بالاهتمـام، وبينما فضّـل الجميع عدم الاهتمـام بالـرد، تصـدّت ناديـا للمواجهـة، لتؤكـد أن الرياضـة رغم أهميتها لكنها ليست الأهم. فيما قالت هدى بهدوئها المعتاد إن إعادة الإحساس بالجمال لدى الناس هو الضرورة القصوى.

قال كريم:

- ده قصـدي.. لازم نتفـق علـى طريقة الاختيار وأسـلوب الإدارة وإلا هانفضل نتخانق!

رد أمين:

- ده الغـرض من المجلـس اللي انتم أعضـاؤه.. قراراتكم بأغلبية الأصوات.

وأضـاف بعد برهة قصيرة:

- ورئيـس المجلـس صوته مُرجِّح.

تسـاءل عزيز عمّا بدا بديهيًا:

- مَن هو الرئيس؟

لحظات غلب فيها الصمت مع تسـاؤل عزيز. الكل يعلم أن رئيس المجلـس سـيكون واجهته والجميع يعرف كم الأضواء التي سـتحيط به. سـيلعب الأعضاء دورهم ولكن كرسـي الرئيس هو الذي سيحظى باهتمام العدسات. تحرج أمين من أن يرد ببديهية أن يكون هو الرئيس وهو يتذكر كيف ازداد إعجابه بالفكرة لما وجد فيها من جاه يصطحب

عودته إلى مصر. استمر السكون لحظات ثقيلة نوعًا قبل أن تقطعه عايدة قائلة:

- أكيد أمين.

قال إبراهيم بشيء من التبجح:

- علشان فلوسه؟!

شعر أمين بالحرج الشديد من تعليق إبراهيم، فأجاب سريعًا:

- لا يا سيدي مش عايز أبقى رئيس المجلس.. ماينفعش أبقى مدير تنفيذي ورئيس.. مش هبقى أكتر من عضو.

هنا سارع عزيز، وأعلن مقترحه بأن يقبلوه رئيسًا للمجلس، وأجاب أمين من جديد بأن الرئيس لا بد أن يُعيّن عن طريق الانتخاب.

عادوا للصمت قبل أن تنفرج شفتا عزيز بابتسامة واسعة سرعان ما انقلبت إلى قهقهة وهو يقترح عليهم على سبيل المزاح:

- عندي فكرة.. رئيس المجلس هو اللي يكسب بوكر رأس السنة.. وكل سنة اللي يكسب يبقى الريس!

- والسنة دي أمين مش ها يلعب.. ها يوزع بس!

عزيز نفسه تعجب حين وجدهم يناقشون اقتراحه بجدية. كأن الأمر بديهي وجدهم يقبلون جميعًا بالفكرة. وهكذا صارت ليلة رأس سنة 2010 هي المرة الأولى التي يتنافسون فيها على جائزة: منصب رئيس مجلس الأمناء!

وعلى رغم ما تحويه الفكرة من عبثية، إلا أن أمين رأى في كل منهم صلاحية من نوع أو آخر للفوز بالمنصب. كريم العبقري، ذو الذكاء الخارق يؤهّله علمٌ أمضى حياته يطارده ويروضه، وإن تولى المنصب، ستسير الأمور بحسابات دقيقة ومعادلات رياضية تسهّل له قرارته وتضيء له طرق النجاح. سينقصه دون شك قدرات تخص الحياة العملية إذ تركز تفوقه في تقصي النظريات أكثر من تحقيق التطبيقات، لكن هذا النقص سيكتسبه بسرعة ودون جهد كبير.

هدى إن فازت ستكون وجهًا جميلًا مريحًا ومرحبًا به للصندوق. سيستسلم مَن حولها لجمالها الطاغي فيلينون في طلباتهم ابتغاءً لرضاها وتحت تأثير سحرها الذي يُبعثُ في أي مكان تحل به. لم تكن هدى جميلة فقط، بل خبرت الحياة جيدًا وتعاملت مع لطماتها حتى صعدت إلى القمة. لن تكون مجرد واجهة رائعة ولكنها ستكون قادرة على قيادة الصندوق إلى دهاليز الفن وتفجير الطاقات والمواهب المرتبطة بمجالها. كان داخله انحيازٌ لها، انحياز يكمن في قلبه منذ الأزل، وقد ازدادت رغبته في أن يشرك العالم في عشقٍ آن أوان إعلانه، ولو في ذلك مخالفة لأعراف صداقات الذكور.

إبراهيم سيكون معينه ثقافته المتنوعة، وقراءته النهِمة، ومعرفته العميقة بشتى مناحي الحياة. لكنه برغم تفوقه وشهرته ككاتب قدير وأديب كبير، فقد كان على عكس كتاباته المثالية التي ينبهر بها القراء، كان أبعد ما يكون عن المثالية. أدرك بدون أدنى شك، أنه إن فاز

فسيكون شديد البراجماتية في تعامله مع أي معوّقات قد تظهر في سبيله نحو تحقيق النجاح ليثبت للعالم من جديد تفوقه.

عزيز سيقدم بلا خوف كما اعتاد، فيصيب نجاحات تغطي على كثير ممّا يعده الآخرون حماقات. سيكون إقدامه عنوانه. سيكون قائدًا لا يتردد ولا ترده تحذيرات مَن يحسبون لكل خطوة مرات ومرات.

حتى عايدة التي عاشت حياة بلا إثارة بها جانب روحي تؤمن به وتتحرك بموجبه، رأى أنه سيعينها مع ذكائها الفطري على تسيير الأمور. ثم إنها كرست نحو عشرين عامًا للعمل الخيري بجميع أنواعه، بددت فيه كثيرًا من ثروتها.

ناديا، بجمال روحها ومثاليتها الحقيقية البعيدة عن التصنُّع، ستقود المشروع إلى توجهات إنسانية اختبرتها في الغرب الذي أمضت به معظم حياتها.

كلما أمعن أمين في التفكير انشرح قلبه وسر عقله باختياراته. راوده مثل شعور الثقة الذي تعوده حينما يكون مقدمًا على أحد مشاريعه التي انتهت ناجحة وارتبطت بذكائه وألمعيته في عالم الأعمال.

***

تذكّر أمين مداولاتهم المطولة منذ طرح فكرة الصندوق المجتمعي. حين طال انتظاره داخل شقته، بدأ يتسلل إليه شعور بالشجن لا يعي مصدره، كأنه يتسلل من الجدران القديمة وقطع الأثاث المتناثرة. عادت به الذاكرة إلى أيام كان فيها وحيدًا بين هذه الجدران بعد أن غادر

أبوه الدنيا. كم مرّت به الأوقات ثقيلة وهو ساهم لا يستطيع التفكير في حاضر أو مستقبل، غرٌّ لم يختبر الحياة ولا يملك ما يجرؤ به على تحديها ومجابهة ما تخبئه له الأقدار. لعلّ رحيل يسري المباغت جعله يستكين لشعوره بأن كل ما عليه هو فقط الانتظار، ليُفاجأ من جديد بما سيعيد الأمور إلى مسار أكثر واقعية وأقل قتامة. وسرعان ما وقع تحوّل لم يخطر بباله. في يوم جمعة وبعد مرور نحو شهرين أو أقل على الوفاة، دقّ جرس الباب عند الظهيرة. كان متكاسلًا في سريره يظن أن عثمان يمرُّ ليطمئن عليه بعد الصلاة كما اعتاد، لم يكن في نيته النهوض ولم يُعره بالًا، كان يريد أن يظل ممددًا تحت الأغطية في ذلك اليوم البارد، لكن إصرار مَن كان على الناحية الأخرى من الباب أجبره على القيام، بل والركض ليفتح له الباب بعد أن علا ضجيج جرسه المستمر.

فوجئ برجل ذي ملامح طيبة يقدم له نفسه ببساطة شديدة كأنه يعرفه، دون أن يعي أمين أن ذلك الرجل سيكون أهمِ مَن يتكئ عليهم مستقبله:

- أهلًا أمين.. أنا عمّك حامد.. صديق يسري أبوك الله يرحمه.

***

لم يسمح له رنين جرس الباب المتواصل، معلنًا وصول المدعوين، بالغوص في ذكرى يومٍ ورجلٍ انقلبت حياته من بعدهما.

ورقتان

امين

بعـد السـلامات المتبادلـة والأحضـان الحـارة، ابتعـدتُ دون أن يلحظوا، وجلسـت إلى منضدة اللعب التي توسَّـطت الصالة. استمروا في تبادل كلمات الاشتياق وتعالت ضحكاتهم وانطبعت على الوجوه ابتسـامات اللقاء بعد الغياب الطويل. وجدتني منشـغلًا بعدة أمور في آنٍ واحد، من بينها رسـالة هدى التي قرأتهـا وتعمّدتُ ألا تعرف بأنني قـد فعلت. لم أستسـغ طلبها بتأجيل إعلان ما نويـت أن يكون مفاجأة سـهرتنا. تـواردت علـيّ ذكريات رحلـة إلى برشـلونة والسـعادة التي أحبتها خلالها. أملت أن تكون الليلة تتويجًا لحلمي الذي طال.

منحتنـي أحاديثهم الفرصـة لكي أراجـع ترتيباتي للمـرة الأخيرة. تأكدت سـريعًا من مجموعات أوراق اللعـب الأربع التي جهزتها قبل وصولهم. لم أشـك أن الأدوار يمكن أن تزيد عمّا رسـمت. السنوات الطويلة التي جمعتنا نلعب سويًّا مكنتني من ترتيب الأوراق على النحو الذي اخترته. كل منهم له طريقة أحفظها ولزمات لا تتغير وأسلوب في اللعب كأنه بصمة أصبع. تعمّدت أن تتسـق الأوراق مع شخصية لعب

كل منهم. وثقت تمامًا فيما توقعته، فكدتُ أرى بعيني لحظة خروج مَن سيخرج وفوز مَن سيفوز. نعم قررتُ أن أتحكّم في سير اللعب دون أن يدروا، واخترت الفائز قبل أن يبدأ اللعب. لم أعتبر ذلك غشًا أو تحايلًا، بقدر ما كان توصلًا لنتيجة أظنها في النهاية ستسعد الأجدر بالجائزة، أو بمعنى آخر، ذي الحاجة الأكثر إلحاحًا. ومع هذا، وبحكم أن اللعبة تعكس كينونات شخصية اللاعب، فقد تعمّدت أن تظل الفرصة متاحة لآخرين كي يفوزوا إن تصرّف مَن مهدتُ له طريق الفوز بتهور، أو أساء استخدام ما منحته. تملكني وأنا أتخذ قرار ترتيب الأوراق هاجسان؛ هاجس أظنه ارتبط بميل لديّ للتحكم في الأمور التي أسوسها، والآخر وجدت فيه استكمالًا للنهاية المفرحة التي أردت ضمانها عند مشاركتي لهم مفاجأة نهاية السهرة.

حين اتخذت قراري بالاعتزال أو بالتقليل من عبء أعمالي اليومية، كانت الفكرة الوليدة شديدة الضبابية، لكنها بعد أن تملكتني قادتني إلى حزمة قرارات استحسنتها. فكرت في البداية فيمَن ستؤول إليه ثروتي حين ينتهي اعتزالي برحيلي عن الدنيا نفسها. في العادة يجد الناس فكرة الإرث سهلة واضحة لا ريب فيها، ولكن في حالتي بدت شديدة التعقيد حين وجدتُ أنه لا وارث لي. ودون جهد في التفكير، أو تردد، وجدتُ مَن جمعتهم اليوم هم الأجدر بميراثي، إذ لم أجد حولي عائلة أو أقارب تربطني بهم علاقة. منذ وفاة أبي ثم سفري للجامعة في بريطانيا، انقطعت أية أواصر تربطني بأولاد عمومته، أكاد أجزم أني لا أتذكر معظم أسمائهم دون عناء. أما هؤلاء الذين يمتون

لأمي الإنجليزية بصلة، فكانوا أكثر برودة من أن يهتموا بالنصف مصري الذي جهل أغلبهم بوجوده بالأساس. كعادتي لم أُطل التفكير، وسرعان ما أصدرت تعليماتي للمحامي بأن يخط وصيتي وفيها تؤول كل ثروتي إلى أصدقائي الستة بعد وفاتي.

عدت للجلوس في مقعدي، أنصت لحواراتهم الجانبية. التقطت أذناي أصوات هدى وناديا وعايدة المختلطة بضحكاتهن. بدت ناديا كأنها اكتشفت جديدًا في هيئة عايدة، إذ قالت لعايدة فجأة:

- إنتي قلعتي الحجاب؟!

ردت هدى بدلًا من عايدة، بينما تطفر ضحكتها رغمًا عنها:

- أيوة.. بعد تلاتين سنة خدمة قلعته، شوية وهاتلبس بيكيني.

صاحت عايدة بخفة دمها التي اعتادوها:

- مش أحسن من اللي اتحجبت خمس دقايق..

صاحت ناديا من جديد:

- اتحجبتي يا هدى.. معقولة؟

- احكي لها يا هدى.. احكي والا هاحكي أنا..

- عايدة مجنونة يا ناديا.. ولا اتحجبت ولا حاجة!

- احكي يا هدى.. احكي!



حاولت متابعة حديثهن الذي بدا شائقًا، لكنـي رغمًا عني توقفت عن المتابعة وغرقت من جديد فيما مررت به خلال الفترة الماضية. لم أعتد التفكير طويلًا، ولكني ضبطتُ نفسـي في الشـهر الماضي متلبسًا بتزاحـم الأفكار التي لعلها تناسـب أبطال روايات إبراهيـم أكثر مني. بعد أن وقّعتُ الوصية وقام المحامي بتوثيقها بعد أن أبدى اندهاشه من الأسماء الواردة ضمن المستحقين الذين لم يسمع بهم من قبل، بدأت فكرة أخرى تلحّ عليّ. كنتُ أرى نفسي طوال حياتي إنسانًا فاعلًا منفذًا للأمـور لا مفكـرًا في الحيـاة وما تحمله في طياتها، نعم سـعدت حين أوصيت لهـم ثروتي، ولكنني بدأت أفكر مـن وجهة نظر أخرى؛ فمن ناحية المتوسـطات العمرية هناك احتمالات ليسـت بالقليلة أن يتوفى أحدهم أو بعضهم، أو حتى الجميع من قبلي، فتصبح وصيتي بالنسـبة لهـم بلا جدوى. سـيطرت علـيّ تلك الفكـرة لأجد نفسـي من جديد متمعنًـا في فكرة أكثر غرابة: لمَ لا أشـاركهم الثروة منـذ الآن ليتمتعوا بها وهم ما زالوا قادرين على الاستمتاع؟

أجهدنـي الفكر الـذي أصبح يلازمنـي، وظلت الفكـرة تلح، وزاد اسـتمرائي لها. حسـبت مقدار ما أملك فوجدته يكفي جيلين أو ثلاثة، بل وربما أكثر، لكي يعيش أحفادهم حياة أصحاب الملايين دون أدنى عوز أو فاقة. مرة أخرى توصلت إلى قرار، لكني رأيت ألا أشركهم فيه إلا بعد انتهاء الليلة. سأحتفظ بثلاثة أرباع الثروة، ليقتسمها مَن سيعيش بعدي، أما الربع الأخير فسـأمنحه لهم اعتبارًا من الغد. اسـترحتُ إلى فكـرة أن يسـتمتعوا معـي بما جمعته فـي حياة كنت أركـض فيها وراء

المال دون هوادة. ولم تصل بي فلسفتي الوليدة إلى ازدراء المال، لا سمح الله، فقد ظلّت قناعتي بأن المال هو السبيل إلى السعادة. هو لا يشتريها فقط، بل إن السعي وراءه قد أعطاني أسبابًا للانتشاء لا تقارن بغيرها طوال السنين. الآن حان الوقت لأشرك أقرب الناس إلى قلبي - أصدقاء الصبا والكهولة - في ثراء يشترون به السعادة كيفما يتراءى لهم. ازداد إعجابي بالفكرة حين وجدتها ستمهّد لقبول ما سأخبرهم به بعد ذلك!

برغم سعادتي تلك، فقد بقيتْ بي بعض مرارة لفكرة اختيار رئيس المجلس. لم يعجبني إسقاط إبراهيم يوم المحادثة الجماعية، حين ألمز إلى أنني سأتولى المنصب لأني صاحب المال. انتظرت أن يدافع الآخرون عن حقي في ذلك، لكنني وجدت انجرافًا من الجميع نحو تلك الفكرة الطفولية للتنافس على المنصب من خلال اللعب. شعرت بالحرج، فاخترت أن ألعب دور الموزّع لأوراق اللعب، وأتركهم يتنافسون، ولعل ذاك ما زاد دوافعي فيما أقدمت عليه للسيطرة على سير اللعبة!

استدعيتهم فور انتهائي من الاستعدادت..

شرعت بإجلاسهم بالترتيب الذي استقررت عليه. ترتيب جلوسهم كان شديد الأهمية لتنفيذ خطتي وتنظيمي. إلى يساري أجلست كريم وإلى يميني ناديا. إلى يسار كريم جلس إبراهيم وجاورته عايدة، بينما اتخذ عزيز المقعد الشاغر بينها وبين هدى. أمسكت الأوراق

وقمت بتوزيع أول ورقتين لكل منهم بالترتيب كما ينص قانون اللعبة. تفحصت وجوههم وكل منهم يتطلع إلى الورقتين باستغراق شديد.

سيحسب كريم احتمالات أن يكون الولد والثمانية اللذان يحملهما نواةً لخمس أوراق متسلسلة. إبراهيم لن يكترث كثيرًا بورقتي الستة والتسعة اللتين بيده وسيتظر ما سأكشفه على الطاولة في التوزيعة التالية. عايدة ستسعد بالسبعة والشايب وتوافقهما على علامة القلوب. عزيز سيتشي بحصوله على الورقة الأقوى على الإطلاق: "الآس السپايد" يجاوره الولد من نفس العلامة. هدى ستصطبر على ضعف ورقها واختلاف علاماته، ورقتان يحملان رقمي الخمسة والاثنين. ناديا ستناور حين تجد ستة واثنين مختلفتي العلامات بين يديها، أوراقها الضعيفة ستحثها على اللجوء لمهارتها المدهشة في الخداع.

قبل أن أبدأ في صفّ الثلاث ورقات المكشوفات على سطح الطاولة نظرت إلى كريم وسألت:

- هاتراهن يا كريم؟

أعددتُ نفسي جيدًا للفوز. ومثلما تعلمت خلال دراساتي العليا بإنجلترا، وضعت خطةً مماثلة لخططي البحثية بالأمبريال كوليدج. رغم تمرسي في اللعبة عبر السنين لم أعتبر هذا كافيًا. قرأت نحو عشرة كتب جديدة عن استراتيجيات البوكر، كتبها أساطين اللعبة. منذ تقررت جائزة الفائز وأنا أمضي ساعتين على الأقل يوميًا، أبحث عبر الإنترنت وألعب على المنصات الإلكترونية. ولأنها لعبة ذهنية تعتمد بالأساس على استقراء المنافسين، قررت تكثيف قراءاتي في علم النفس. أيقنت أنه كلما برعت في توقُّع ردود أفعال منافسيك واستنباط أنماط لعبهم، دانت لك الطاولة وسهُل عليك الفوز.

بحكم لعبنا سويًا لأكثر من ثلاثين عامًا، كنت أعرف أسلوب كل منهم. أعلم تمامًا ما يحرّكهم وأكاد أجزم أنني أستطيع استقراء ما بأذهانهم وما بين أيديهم. الأوراق، وإن كانت مهمة إلا أنها تتوارى إلى مرتبة ثانوية متى وصلتَ لأن تجعل مَن حولك يغردون في سربك، لا يبادرونك بتحركاتهم. الأهم دائمًا أن تضعهم تحت ضغط رد الفعل لا الفعل نفسه. أتذكر مرات خسارتي القليلة، جميعها حدثت حين كنت أترك الحماس يتملكني. لكنني اطمأننت لقدرتي على هزيمتهم إن تمسكت بمنهجي العلمي. اليوم لا يوجد لديّ شك في أنني سأتسيّد الطاولة في آخر الليلة. لم يكن ذلك غرورًا، بل إيمانًا مني بالمنهج العلمي وحسابات نظرية الاحتمالات ولوغاريتمات ومعادلات حساب المخاطر.

تحليلي لقدرات المنافسين رجّح انتصاري بسهولة. نظرتُ حول المنضدة وقد احتل كل منهم موقعه فامتلأ جوفي بمذاق فوز قريب. هدى الجميلة مبتسمة مقبلة عازمة على الاستمتاع بمغامرة جديدة لا يشغل بالها فوز بقدر رغبة في التجربة والإثارة مع أصدقاء العمر. ابتسامة عايدة الساذجة أكدت ظني إذ سيقودها، في الأغلب، ولعها بالإشارات وتبحرها في علوم الفلك وتماس النجوم وما توقعته الأبراج لها هذه الليلة. ناديا بالتأكيد لم ينشغل بالها بالاستعداد للعب بقدر سعادتها بعودتها إلى الديار. عزيز يمتلك إرادة الفوز ولكن إرادته كالمعتاد مرتبطة بعضلات لن ولم تنفعه يومًا في لعبة أساسها دهاء التفكير. سيحاول ويحاول وسيثور ويلعن ثم سيضحك على نفسه وهو يستسلم دون أن يعترف بمحدودية تفكيره. لعل إبراهيم يشكّل بعض الخطر، وإن كان تفوقه دومًا إبداعيًا ولم يكن قط الأكفأ حين تصبح الألمعية مطلوبة. فراسته جعلت منه كاتبًا يشار إليه، ولكنها لن تعينه على طاولة البوكر. يعشق التفوق ويكره الانسحاق، لذلك حين تناله الهزيمة سيفلسف الموقف ويحيله إلى شاغله الأكبر: استمرار تسيد البرجوازية والطبقية التي يعيث فيها أمثال أصدقائه. لعل مصدر الخطورة الوحيد كان سيشكله أمين، فهو لاعب ومقامر متمرس تدرب على يد أبيه منذ الصغر، لكن ما عزز فرصتي اليوم قراره بألا يلعب، وأن ينحصر دوره في التوزيع.

كثرة الأفكار دفعتني للابتسام، كنت أدرك حجم التنافس الصبياني الذي تملكني. ولكن لقاءنا دومًا تظلله عبثية الأطفال المحبوسين

داخلنا. هنا فقط ووسط هذه الصحبة دون غيرها نستطيع دون خجل أن نطلق سراحها مهما مرّ من زمن.

كانت هدى تواصل حكي قصة حجابها، وناديا وعايدة تتابعان ما تقول بمقاطعات باسمة:

- كنت ابتديت أحضر شوية دروس في التفسير والتجويد.

ناديا:

- والشيخ أقنعك بالحجاب؟

- الشيخ ماحاولش يقنعني، ولا الدروس كانت عن الحجاب من الأساس.. مجرد دروس في التفسير وتجويد القرآن.. استمريت في موضوع الدروس فترة وبعدين انشغلت بفيلم جديد.. واحنا بنصور لاحظت تكرار حضور شاب مهندم كل يومين تلاتة للأستوديو. في زيارته التالتة قدموه لي على إنه شريك في الإنتاج. ماحصلش بينا كلام تاني أكتر من تحية مهذبة لما ييجي الأستوديو. في آخر يوم تصوير طلب يقابلني في مكتبه..

صمتت هدى لحظات قليلة، كأنها تتعمّد إثارة فضول صديقتها الذي بدا في ذروته، ثم عاودت الحديث:

- أنا متعودة على الطلبات دي من المنتجين، أغلبهم بيعتقد إنهم اشتروني مش تعاقدوا معايا على فيلم. اتهربت منه ووعدته أتصل بيه.. نسيت الموضوع لكن هو بدأ يطاردني بالتليفون وبإصرار شديد لغاية لما اضطريت أوافق أروحله المكتب!

توقفتُ عن متابعة حديثهن حين وزّع أمين أول ورقتين. ومنذ اللحظة الأولى، عزمتُ على الالتزام بخطتي المبنية على الاستكشاف قبل الإقدام على أية خطوة. نظرتُ جيدًا إلى الورقتين فرأيت أنهما لا بأس بهما. تمنيت لو كانت بداية أقوى، لكني استعنت بنظرية الاحتمالات، وشعرت بالراحة لأن الورق المتوسط قد تكون احتمالاته جيدة في النهاية بتطبيق نظرية الجرس. ورقتا الولد والثمانية اللتان حصلت عليهما، قد يكونان نواة لفوز كبير إن أحسنت استخدامهما. ظللت أسترجع المقولة المأثورة التي دأبت كتب اللعبة على تكرارها، والتي سمعتها لأول مرة من أونكل يسري ليلة فارقنا:

– القاعدة الأساسية إنك تعرف إمتى تستمر وإمتى تتحدى وإمتى تنسحب!

متى تنسحب يا كريم؟ هل وجب عليّ الانسحاب يومها؟ أم كان عليّ أن أواصل التحدي؟ وهل كان التحدي سيأتي بنتيجة مغايرة؟

تدافعت في ذهني تساؤلات تحاصرني منذ خمس سنوات أو أكثر. دومًا تبدأ الدوامة الذهنية التي تجتاحني بمذاق حلم جميل ينتهي بكابوس.

هأنذا الأول على قسم الميكانيكا في كلية الهندسة، أُعيِّن معيدًا بالجامعة لأضع أولى خطواتي على طريق المجد الأكاديمي، الطريق الذي لم أتخيل نفسي أسلك سواه. أمارس عملي ما بين حصص التدريس التي يتركها لي الأساتذة ثقة بقدراتي، وبين أوراق أبحاثي التي

صارت تحتفي بها الدوريات العالمية المتخصصة وتمنحها الصدارة. أنهيت دراسة الماجستير في وقت قياسي ما زال يُشار إليه حتى اليوم. بعد حصولي على الماجستير بأيام جاءني خطاب الأمبريال كوليدج يخطرني بأنهم مهتمون ببحثي عن الديناميكا الحرارية ويدعونني للالتحاق بفريق أبحاثهم. دعوة مصحوبة بمنحة للحصول على الدكتوراه والعمل بالجامعة.

حلم!!

بالتأكيد، كان ذلك هو الحُلم والمبتغى لمَن كرّس حياته للعمل الأكاديمي، ومَن يرغب في أن يتحوّل مروره في هذه الحياة إلى مساهمة حقيقية في تقدّم البشرية. حلم يتناسب وقدرات عقلية كبيرة تمنح لأمثالي عضوية خاصة في نادي العباقرة. لم أحتج لثلاث أو أربع سنوات لأنال دكتوراه واحدة، إذ نلت درجتين في نفس المدة. بعدها استقرت أموري في لندن وأصبحت بالإضافة لقيادتي فريق بحثي كامل، أستاذًا بأعرق جامعة هندسية في إنجلترا.

مضت أيامي سعيدة أتحقق فيها يومًا بعد يوم، وأزداد شهرة. لم أكن مهتمًّا بحياتي الشخصية أو الاجتماعية، إذ غصت في عملي، وصار مصدر متعتي فيما أنجزه من طفرات مهنية. وأبى الحلم إلا أن يتحقق كاملًا دون نقصان، فاصطدمت بأنجيلا ذات يوم في مؤتمر الجزيئيات السنوي بسويسرا. باحثة إنجليزية عرفتها قبل أن ألتقيها من خلال ورقة بحثية نشرتها في دورية لجامعة أكسفورد اطلعت عليها.



بمقاييس الجمال المعتادة قد تحرز درجة القبول، بينما كان مستوى ذكائها يحرز الامتياز بسهولة. قارئة نهمة، لديها القدرة على المناقشة دون هوادة، تتطرق إلى كم مذهل من المواضيع، ذاكرتها الحديدية تمدها دائمًا ببراهين تجعلها في أغلب الأحيان منتصرة في أي جدال تدخله. افتتنتُ بها ولم يمضِ وقت طويل حتى كانت معادلاتي تشير إلى أنها مَن كنتُ أتمناها شريكة لحياتي.

لم أكن أطمع فيمَن تقارعني عقليًا، لكن أنجيلا كادت أن تلامس ذلك؛ ثم إن زواجي بها سوف ينقل لي بعد أعوام قليلة الجنسية الإنجليزية، لأصبح مواطنًا كامل الأهلية في البلد الذي عشقته منذ الطفولة: البلد الذي قدم للعالم المحرك البخاري!

تزوجنا وبعد تمام عامين اكتملت عائلتنا بالطفلة التي خطّطنا لوجودها: دينا. اخترنا لها اسمًا يعبّر عن امتزاج حضارتي أبيها وأمها، فلا يجعلها غريبة في مصر أو إنجلترا. اسم لا يصعب لفظُه على الأوربيين ومنتشر في الشرق العربي. استعنّا بكتب التربية الحديثة ولم نترك نظرية علمية للسلوكيات إلا وحاولنا تطبيقها في تعاملنا مع الصغيرة التي شبّت بيننا طفلة جميلة ذات ذكاء وقّاد، جعلها الأكثر تفوقًا على مدار دراستها، تُوِّجتْ بنتائج ساعدتها على الالتحاق بجامعة "كمبردج" العريقة. لم أستسغ رغبتها في دراسة علم الاجتماع، ربما لاعتقاد قديم لديّ بأن علوم الإنسانيات لا ترقى إلى مرتبة العلوم الطبيعية، وإن احتفظت باعتقادي هذا دون أن أفصح عنه، لإيماني بحريتها في الاختيار. وبينما الصغيرة تشب وتكبر تحت أعيننا كانت

علاقتي بأنچيلا مثالية. كل منّا كان منشغلًا بعمله وأبحاثه، ينال كل منّا التكريم تلو الآخر. تجمعنا جدران البيت آخر يوم العمل ليرتاح كلٌّ منّا على الطريقة التي يختارها. يوم السبت صباحًا نخرج جميعًا لنتنزه مع ابنتنا، ومساءً - بعد نوم دينا - نتشارك اللحظات الحميمية قبل النوم. نستيقظ يوم الأحد وقد خطّطنا لفسحة تجمعنا مع صغيرتنا نغدو من بعدها مستعدين لأسبوع آخر من إنجازات جديدة نطمح إليها. حياة مثالية رفضت أثناءها عروضًا كثيرة من كبريات الشركات التي حاولت إغرائي برواتب خيالية كي أنقل علمي إلى أروقتها لزيادة أرباحها باكتشافاتي. لكني استمررت في تفضيل أن أبقى راهبًا في المحراب الأكاديمي مساهمًا في تقدُّم عموم البشرية.

إلى أن جاء اليوم والحدث الذي توقعته، أو بالأحرى تمنيته لما طلبت دينا أن تتحدث معي في شأن يخصها. سعدت واتفقنا على موعد لحديثنا، وإن كنت متيقنًا من مضمونه. انتظرت ذلك اليوم منذ زمن، وكعادتي كنت جاهزًا بإجاباتي. سأخبرها أن ليس لديها ما تخشاه جراء اختياراتها؛ لأنني أثق بها وسأقصر دوري على مساندتها فيما تزمع الإقدام عليه. سأنقل لها تفهمي ألا يكون الشريك الذي اختارته على ملّة أبيها؛ لأنها نشأت في مجتمع غالبيته ليسوا على هذا الدين، وبناء عليه وبحسبة بسيطة يصبح الاحتمال الأقرب ألا يتحقق مثل هذا الشرط في اختيارها. منذ انتقلتُ إلى إنجلترا وأنا أؤمن بأن الديانة أمر شخصي بحت وشديد الخصوصية. لن أوصيها حتى أن تطلب من شريكها تغيير صوري على الورق لديانته، أريدها سعيدة بدون شروط مسبقة؛ فقط لا غير.

التقينا في ميدان بيكاديللي حيث مطعمها المفضل، أشهر مطاعم النباتيين في لندن، وقد توقفتْ عن أكل اللحوم منذ أتمت السادسة عشر. أسعد دائمًا بانفرادي بها وتحدثنا معًا بعاميتها المصرية المكسرة كما يصفونها. منذ صغرها أصرت على التحدث معي بلغة بلدي برغم عدم توجيهي لها يومًا بفعل هذا. وجدت بها خجلًا طبيعيًا يعيق دخولها في الموضوع، فبادرتها مبتسمًا محاولًا استعراض قدراتي في التوقّع:

– حبيبتي أنا فاهم إنك عايزة تكلميني في موضوع جوازك؛ صح؟

تأكّد حدسي من نظرة الاندهاش التي تملكتها فواصلت إلقاء محاضرتي التي جهزتها مسبقًا:

– أنا واثق من اختياراتك، وواثق إنك اخترتي الراجل المناسب.. مش مناسب بس، ورائع كمان!

اكتسى وجهها بحمرة أعرفها، وطال صمتها قبل أن ترد بصوتٍ متقطعٍ ومتردد:

– أنا فعلًا عايزة أتكلم عن ارتباطي.. أنا حكيت لماما وهي تفهمت.

قاطعتها سريعًا مؤكدًا موقفي من موضوع الديانة، فلم تُتح لي فرصة الإسهاب قائلة:

– الديانة مش هي المشكلة يا بابا.

عـادت للصمت، وهذه المرة أدهشـني استمرار تحرجها، فظننت أن السـبب يتعلق بشيءٍ آخر غير الدين فسارعت أطمئنها، بأنني أوافق علـى اختيارها أيًـا كان لونه. لم أتوقَّـع القنبلة التي ألقتهـا وظننت أني أخطأت السمع حين قالت:

- صاحبتي اليزابيث طلبت يدي!

أعادنـي صـوت أميـن إلـى حافة طاولـة البوكـر، ينتشـلني من نهر أفكاري المتدفق، كان يسألني:

- هاتراهن يا كريم؟

علـى عكس ما كنت قـد عزمت عليـه حين التقطـت أول ورقتين؛ وجدتنـي أدفع بربع الفيش الملقى أمامي إلـى منتصف المنضدة معلنًا عن رهاني.

قبضتُ على الورقتين اللتين ألقى بهما أمين أمامي. كانتا بلا معنى. ورقتان عاديتان لا تتسمان بالقوة ولا بالضعف الشديد. فكرتُ لحظة أن ألقي بهما إلى الطاولة مكشوفتين لأعلن انسحابي من هذا الدور، وحين رأيت كريم يلقي برهانه أبيت أن أظل متفرّجًا دون مشاركة حتى انتهاء الدور أو اليد كما يسمونها، قررتُ أن أستمر رغم عدم اقتناعي التام بورقي. منذ بدأنا اللعب، سيطر عليّ هاجس عجيب، كأنني أعيش مشهدًا سرياليًّا في إحدى رواياتي أو سيناريوهات أفلامي. فكرتُ فيما قد أختاره مشهدًا افتتاحيًا لتلك الرواية أو ذاك الفيلم. سيدهش المتلقي حين يكتشف مع سير الأحداث ما جمع بين هؤلاء اللاعبين من دوافع حول هذه الطاولة. في الأغلب قد أبدأ بوصف الجلوس حول المنضدة. سأشير إلى إصرار أمين أن يجلس كريم إلى يساره حيث يبدأ التوزيع في بداية كل دور تجاه عقارب الساعة. سأتبع ذلك باستعراض ترتيب بقية الجلوس، مشيرًا إلى غموض هذا الترتيب ورغبة أمين العارمة في إنفاذه دون غيره. سأسهب بعض الشيء في وصف ما بدأ يحيط بالطاولة من إثارة مختلطة بالتوتر وتسيد رغبة الفوز أغلب الجالسين وانغماسهم في اللعبة مع أول الأدوار.

تفكرت قليلًا في المشهد الذي ظننته بداية مناسبة للرواية، فوجدت أنه شديد الكلاسيكية لن يشد قرائي الذين اعتادوا بدايات قوية تجعلهم يقلبون الصفحات ولا يتركون كتبي إلا مع سطر النهاية. فكرت من جديد في بداية أقوى. بدأ مشهد جديد يرتسم في ذهني.

الكتابة بالنسبة لي كانت كرسم لوحة، أرى تفاصيلها في ذهني، ألوانها واضحة جلية مملوءة حياة. ابتسمت حين داعب خيالي مشهد رائع يأخذ القارئ إلى زمن أكثر رومانسية أغازل به النوستالجيا التي تُسيل لعاب القرّاء. اتسعت بسمتي حين جاءتني فكرة أن أبدأ بقص تاريخ المكان الذي يحتوينا: حكاية ليبون.

تخيلت المهندس المعماري أنطون سليم نحاس جالسًا في مكتبه في انتظار موعده مع الثري المعروف الخواجة شارل ليبون. كان المعماري الكبير على علم بالموضوع الذي يريد أن يتحدث فيه معه. سيطلب منه رسم مشروع البناية لقطعة الأرض المطلة على نيل الزمالك والمجاورة لحديقة الأسماك. أنطون نحاس كان أهم اسم في مجال الهندسة المعمارية في مصر. تخرّج في الفرير ودرس العمارة في باريس وعاد إلى مصر ليقترن اسمه بمشاريع عدة أشهرها كنيسة قصر الدوبارة ونادي الصيد المصري وعمارة اللواء بل وبتوسعات مدرسته الفرير بباب اللوق.

أما شارل ليبون فقد كان سليل الأسرة التي أضاءت شوارع المحروسة بداية من الإسكندرية في أواخر القرن التاسع عشر ومنها إلى القاهرة. بدأوا بالغاز ولكنهم سرعان ما انتقلوا إلى الإنارة بالكهرباء فكانوا سباقين إلى تبني التكنولوجيا الأحدث برغم غلو ثمنها في ذلك الحين.

في مخيلتي حين وصل ليبون إلى مكتب أنطون نحاس تبادلا حديثًا قصيرًا قبل أن يسارع الثري إلى الدخول في الموضوع الذي جاء من

أجله، إذ لا أظنه كان من محبي المقدمات الطويلة، فبادر مضيفه:

- مهندس أنطون عايز منك تصميم لأرضي في الزمالك.. عايز أبني أحلى عمارة في مصر.

- شرف لي مسيو ليبون.. أنا عارف الأرض وشايف إن مكانها رائع.

- عايز أكبر عدد ممكن من الشقق.. تفتكر تقدر نطلع كام دور؟

- أظن حوالي خمستاشر دور.. عمومًا شغلنا الأساسي إننا نعمل لسعادتك أكثر استفادة من المسطحات.. من غير ما ننسى الجماليات طبعا..

- مهم جدًّا الجماليات مهندس أنطون.. لأنها هي اللي هاتخلي المكان مطلوب وتعمل لي المردود التجاري اللي أنا عايزه.

اتفق الرجلان في أواخر أربعينيات القرن العشرين ليتحقق حلم ليبون في أول الخمسينيات، حلم مشترك بتشييد العمارة التي أصبحت حديث أرستقراطيي مصر ورمزًا للأناقة المعمارية في ذلك الزمن. أربعة عشر دورًا وأكثر من مائة شقة، ومدخل فسيح مكسو بالرخام الإيطالي وسلالم عريضة تقود إلى عدة مصاعد وردتها شركة شندلر السويسرية، بالإضافة إلى غرف خدمات بالبدروم والطابق الأرضي تطل على حديقة صغيرة خلف المبنى.

قاومتُ التدخل في حديث النساء عن قصة حجاب هدى أو بالأحرى قصة عدم حجابها. كنت متأكدًا أن دهشةً لن تصيبني حين

تنتهـي من قصة سـمعتها مرارًا في الوسـط الفني ولكنـي أدركت خطأ توقعي، حين قالت هدى:

- لمّـا رحـت المعـاد، ابتـدا حديـث طويـل عـن دخولـه الإنتـاج السـينمائي والتلفزيونـي، وعـن أحلامـه وأهدافه اللي نفسـه يحققها. حديـث مهذب مرتب مليـان كلام عن الضمير ومراعـاة ربنا، مخلوط بآيـات قرآنية وأحاديـث واسـتعراض لثقافته وتنوره، وطبعًا إشـارات لدراسته في الجامعة الأمريكية وإتقانه للفرنساوي والإنجليزي. شوية ووصل للسـبب اللي طلب يقابلني علشـانه. قالي إنه نـاوي ينتج فيلم تاريخـي عن فترة ازدهار الإسـلام في الأندلس، وإنه شـايفني البطلة. فاجئنـي العـرض المالي اللـي عرضه لأنه كان تـلات أو أربع أضعاف أجـري. اعتبـر إني قبلت عرضه فابتدى يحكي لـي عن إنه ناوي يخليه فيلـم عالمـي، وإنـه عايـز يعرضه فـي الغـرب وإن الإنجليـزي بتاعي بيخليني أحسـن اختيار للبطولة. اتحمسـت وهو بيوصـف لي ثقته إننا هانكسب أوسـكار أحسن فيلم أجنبي.. وشـوية كده وراح رامي عليّ قنبلته: عايزينك تتحجبي علشان تكوني ممثلة حقيقية للإسلام!

شـدني خيالي من جديـد ليعيدني حيث توقّف تدفق مشـهد غرف خدمـات عمـارة ليبـون بالـدور الأرضـي. اعتدلـتُ في جلسـتي وأنا أسـتعيد مـا تخيلتـه مـن لقـاء ليبـون ونحّـاس والمعلومـات الخاصة بالعمـارة. كنتُ مفتونًـا بعمارة ليبون حد الهوس، ومفتونًا بما احتشـد فـي ذاكرتي من معلومات عنها عبر سـنين طويلـة. تمنيت منذ صغري أن أكون من سـكان هذه العمارة التي اختارها المشـاهير وتكالبوا على

سكناها. وحين كنت فتى في غمرة الأمل حظًا حلمت طويلًا وأنا أزور أصدقائي القاطنين بها، أن أكون في جيرة فاتن حمامة ورشدي أباظة وعلي أمين ومن بعدهم شيريهان الفنانة الفاتنة. لم يفارقني الحلم وأنا أرتقي درجات الشهرة وأصيب معه ثراءً معقولًا. انتقلت من غمرة إلى المهندسين ثم إلى الشيخ زايد في فيلًا صغيرة أتممت دفع أقساطها، ولكن ظلت ليبون الرابضة على ضفة النيل الشرقية هي الأمل الذي لم يتحقق حتى ذلك اليوم قبل عامين حين سمعت أن ملاك العمارة بصدد تأجير غرف الخدمات بعقود سنوية. نجحت في الحصول على إحداها بعد أن أقنعت أحد محبي كتاباتي من ذوي النفوذ أنني أريدها صومعة أنعزل فيها لأخرج مزيدًا من إبداعاتي. لم أصطبر أسبوعًا بعد توقيع العقد حتى كنت قد غيرت عنواني في بطاقة الرقم القومي ليشير إلى أنني من قاطني ليبون والزمالك. إنجاز احتفظت به لنفسي وأخفيته عن أصحابي خوفًا من أن يكتشفوا ما بداخلي من خفايا نفسية دفينة. فكرتُ قليلًا بمشهد البداية الذي أبحث عنه، سيصبح عبقريًا لو وصفت مشاعري وأنا أتسلم بطاقة الرقم القومي بعنواني الجديد: عمارة ليبون - الزمالك. بالتأكيد تلك افتتاحية مدهشة لرواية أنسجها عن قصة صعود ورمزية انتصار بطلها حين حقق حلمًا كمَنَ بداخله طوال سنوات عمره. ابتأست وأنا أنحي الفكرة وأجنبها متخيلًا كم السخرية التي سأنالها حين يتوصلون إلى أن بطل الرواية هو أنا ولا غيري.

نظرت من جديد لورقتيَّ اللتين لم تنجحا في إقناعي بجدواهما فتذكرت ما قاله يسري تلك الليلة البعيدة:

- مفيش حاجة اسمها ورق وحش وورق حلو، كل ورقة ممكن تكون سبب للفوز.

وجدت في فكرة الرواية التي بدأت تراودني حافزًا جديدًا للاستمرار في اللعب، حافزًا جعلني أدفع إلى منتصف الطاولة بفيشات مماثلة لفيش كريم بحثًا عن مشهد النهاية.

شعرت بخفقان قلبي وأنا أطالع الورقة الأولى التي تلقيتها حين رأيت رقمي الفردي المفضل: السبعة.

لكن الورقة الأخرى أصابتني بالوجل حين وجدت عليها ملك أو كما نسميه "شايب". من المفترض أن أشعر بالسعادة لأن كليهما زينتهما علامة القلوب. لكني بقدر تفاؤلي بالورقة الأولى وسعادتي بفرديتها بقدر ما جاش بي قلق من الملك الذي جاورها. حياتي كلها دارت حول الشائب الذي اقتحم دنيتي وتحكم في مجرياتها لمدة ليست وجيزة. لم أدع قلقي يتمكن مني، فسارعت باتباع حدسي المتفائل بالورقة الفردية وأنا أسترجع ما رأيته في طالعي قبل السهرة بأنني بصدد قضاء ليلة من ليالي العمر. بهدوءٍ شديدٍ وابتسامةٍ واثقةٍ، دفعت بفيش مماثل لقيمة ما دفع به مَن سبقوني. شعرت بالارتياح لقراري قبل أن تغالبني ذكريات شائب عبث بي.

جسدي الممتلئ نوعًا وتقاطيع وجهي غير التامة التناسق، لم يمكناني في شبابي من المنافسة على تاج جميلات نادي الجزيرة. ولكن ذات الجسد كامل الاستدارة وبياضي الملفت وشعري المتفحّم المنسدل حتى خصري جعلوني من المرغوبات في البلد الخليجي الذي هاجر إليه أبي مطلع السبعينيات. حياة عائلتي منذ ارتحل ربُّها بحثًا عن البترودولارات صار لها روتين لا يتغير. أبي غائب طوال العام عدا شهر أغسطس الذي يعود فيه لنقضيه سويًا في إجازة بمنتزه

الإسكندرية. وفي إجازة نصف العام الدراسي تصحبني أمي أنا وأخي لنقضي أسبوعين برفقة أبي في مهجره. ثم ما لبثت زيارات نصف العام أن توقفت حين التحقنا بالجامعة. مع تضخم حسابات أبي البنكية، أُضيفت زيارات إلى باريس ولندن لبرنامج تجمّع العائلة الصيفي. تميز أبي في لعب دور الممول السخي واقتصرت علاقته بنا على محادثات تليفونية أسبوعية لا نفتقدها إن لم تجرِ. مع غياب الأب يتصور البعض أن دور الأم قد يتعاظم، لكن أمي اكتفت بمراقبتي أنا وأخي عن بعد مطمئنة إلى حسن خلقنا والتزامنا التعليمي، مفضلة أن تكرّس كامل طاقتها لشراء أحدث الأزياء وإرضاء ولعها باقتناء الألماسات واللآلىء. لم يكن هناك أي دفء في شقتنا بشارع المنتزه بالزمالك، فأخي منطوٍ يلزم حجرته، وأمي لها حياتها الاجتماعية الصاخبة، نكاد لا نراها إلا حين تعود إلى المنزل لتنام أو لتغير ثيابها من أجل الخروج من جديد. مع الوقت صار تدفق الدولارات الخليجية له مصبّان؛ أمي التي استمرت على نهجها في التسوّق الذي لا يهدأ، وأخي الذي اقتنى أحدث السيارات، ولبس أغلى الثياب وودّع انطواءه ليصبح محط أنظار مجموعة من الأصدقاء التفوا حوله فقط لقدرته على دفع فواتير سهراتهم.

ثم كانت رحلتنا إلى لندن في أغسطس سنة ثمانين. فاجأنا أبي بالشقة التي اشتراها في حي "الماي فير" أرقى أحياء عاصمة الضباب. شقة من ثلاث غرف في عمارة احتفظت برونق العصر الفيكتوري التي بُنيت إبانه. بعد يومين من وصولنا، أخبرنا والدي بدعوته شريكه

الخليجي على العشاء. في ذلك المساء تدخلت الأم في اختيار أدق تفاصيل مظهري، وأصرّت أن أرتدي قطعًا من مجوهراتها الأثيرة دون أن أدري ما كانوا يعدونه من أجلي. وحين انصرف الضيف تفاجأت بتعليمات أمي:

– المرة الجاية ما تقوليلوش يا أونكل.. اسمه فهد.

– بس دد من عمر بابا!

– مش صحيح.. ده أصغر من أبوكي بسنتين.. وبرضه ما تقوليلوش يا أونكل.

قلت ضاحكة:

– يعني أنادي بابا باسمه من هنا ورايح؟

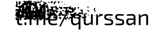
لم يمضِ سوى أسبوع حتى انكشف المخطط، إذ صارحاني بأن فهد قد تقدم لخطبتي، وحين أبديت دهشتي نظرًا لفارق السن بيننا قالت أمي إن كثيرين كانوا يرون أبي أكبر سنًّا منها حين تزوجا.

– زمننا غير زمنكم يا ماما.

لم تفلح محاولاتي المستكينة في المعارضة. لم تكن لديّ الشخصية التصادمية التي تقف في وجه أهلها. وقد كان فهد في نظرهم يحقق المعادلة التي ارتأوها فيمَن سيحظى بابنتهم. معادلة كلها حسابات بنكية وقدرات مالية وتأمين مادي تشابكت فيه مصالح الأب مع مستقبل ابنته.

وكي لا أجور على فهد نفسه، فقد كان به شيء من الوسامة بشعره الفحمي الخالي من أي شيب، وكثير من الكرم اختبرته بنفسي حين امتثلت لأوامرهم بالخروج معه في لندن لمزيد من التعارف، حينها أظهر كرمًا باذخًا وأخذني إلى تلك الأماكن والمطاعم التي لا يرتادها إلا أثرى الأثرياء.

مع تكرار اللقاءات بدأ شعور مختلف يداعبني. أصبحت أشعر بأمان أكبر وأنا أسير إلى جانبه. استمتعت بشعور الفتاة الصغيرة التي تتسوق وإلى جانبها رجل كبير يتصدى لنظرات الشباب ويحيطها بسياج من الاهتمام يدفع بها عنها نظرائها في السن. حين يبدأ في التحدث تتسرب إلى داخلي الحكمة التي تغلف كلماته والمعرفة بأمور كثيرة لم يُتِحْ لي عمري الصغير أن أتعرض لها. استمتعت باعتراضاته على بعض مظاهر ملبسي وتدخله في اختياراتي، حين صحبني للشراء من متجر هارودز. غلف تحكماته وتعليماته بحنانٍ لم أختبره من قبل، فلنت لطلباته وأحببت ما وجدته اهتمامًا افتقدته طوال حياتي. لم أستطع أن أشعر بالرومانسية في علاقتي به، ولكنني استعضت عن ذلك بكثير من مشاعر جديدة لم أُدرك وهي تغمرني أنني حُرمت من مذاقها وأنا أشب بعيدًا عن أبي. وددتُ وقتها أن أتقرب إلى أمي فأشاركها أحاسيسي وأستنير بنصائحها. لكنها كانت منشغلة في عالمها اللندني ما بين رحلات التسوّق اليومية ومآدب فهد المتوالية. لم يستطع أبي وأمي أن يمنحوني سوى برودٍ يلامس حدود الوحشة، واستمر فهد يحتل بتؤدة مكانة الحاني الودود بالنسبة لي.



طرق الاغتراب أبواب دنياي، وأنا بعد أتوق لدفء كان لا بد أن يكون مبعثه أبوين فضلًا أن ينغمسا في اهتماماتهما الخاصة.

حين انتبهت من جديد، كان حديث هدى حول قصة حجابها والمنتج السينمائي متواصلًا. وكانت ناديا قد اشتعل حماسها غير مصدقة:

- دي أكيد حكاية من تأليفك يا هدى.. وعايدة متفقة معاكي..

- كل اللي حكيته حصل.

- وقبلتي عرضه؟

- لا طبعًا.. لأنه مجرد عرض مادي..

تدخّل أمين في الحديث:

- صفقة حلوة يا هدى.. رفضتيها ليه؟

- لأني حسيت إني هابقى زيهم باتاجر بديني.. وبفني كمان.

جذبت ورقة الشايب الرابضة على الطاولة انتباهي مرة أخرى، خلته ينظر إليّ بسخرية. نفس السخرية التي شعرت بها حين تبدّلت معاملة فهد لي بعد أن زرنا قنصلية بلاده في لندن لنوثق عقد الزواج. حتى يومها لم أكن قد رفضت أو قبلت بالزيجة؛ فقط ذهبتُ حيث دفعت بي الريح السائدة. لم أستغرب حتى إنه من لحظة توقيعي على العقد اعتراه شيء من التكبُّر، وتغيرت لهجته من اللين والحنان إلى

سـيل من الأوامر المتاليـة، دون أن يتكلف النظـر باتجاهي في أغلب الأحيان. لم يجاوز حدود اللياقة بأي شـكل، لكن العلاقة بيننا صارت كتلك التي تسود بين الآمر والمأمور. لم أعد ذلك اليوم إلى شقة "ماي فير" بل إلى جناحه في فندق الدورشيسـتر ليسـتمتع بحلاله كما أصبح يطلق علي.

بعد انتهاء إجازة لندن، طرتُ إلى جانبه على مقاعد الدرجة الأولى للطيـران الوطني لبلده. ارتديت يومها ثوبًـا فضفاضًا صممته دار أزياء عالميـة وسـعّرته بثلاثـة آلاف مـن الجنيهات الإسـترلينية لاسـترضاء سـوق الخليج الأغنى في العالم. لم يضجرني الثوب بقدر ما ضايقني الحجاب و"الشـيلة" أو الطرحـة، اللتان لم يكونا موضـع تفاوض بيننا، بل أمرني بارتدائهما ففعلت.

غريبـة هي الذكريـات حين تقرر أن تتصدر مخيلتنـا دون رغبة منّا. وبرغم انشغالي البادي باللعب وتركيزي من أجل الفوز بالدور، استمر ركض شـريط الذكريات فـي ذهني. أخذت عدة أنفـاس عميقة متتالية وأنـا أصـارع طيف ما ظننته أكثر لحظة مهينـة في حياتي. حين وصلت إلى بيته ظننت أنه سيصحبني في جولة بأرجاء المنزل، فوجدته يجذبني إلـى غرفة كبيرة في الدور العلوي ويتركني، ليعود وبيده امرأة في عمر أمي:

– هـذي زوجتـي أم عبـد اللـه.. سـت البيـت، وكلامهـا أوامـر يا عايدة..

كأنّ ذاكرتـي اختـارت أن تـرأف بي، فطمـسـت بقيـة لحظات تلك المهانة، عدا رد فعل أبي حين قصصت عليه باكية:

- ما أنا عارف من أول يوم إنه متجوز، وده حقه على فكرة.. المهم إنك هاتعيشي مرتاحة ومتأمّنة بقية عمرك.

عزيز

ماذا لو؟

السؤال الذي أظنني قضيت سنوات عمري أطارد إجابته، لكنني فشلت المرة تلو الأخرى في إدراك إجابته. لم أطرح سؤالي هذا – ولو مرة واحدة – بعد انتهائي من تجربة ما، لكنني كنت دائمًا ما أطرحه قبل الإقدام على خوضها، بل كان هذا السؤال نفسه هو دافعي لخوض غمارها مرة تلو الأخرى بدون حساب. كلما صرتُ في موضع اختيار رفضت الاختيار الأكثر أمنًا أو الأقل خسارة، دائمًا أسعى خلف المغامرة متسائلًا: ماذا لو أن هذه هي المرة التي أحقق فيها الفوز الساحق؟ ومع كل هذا الإقدام، أصرت الأقدار على معاندتي دون هوادة. ولأن روح البطل الذي بداخلي ظلت تدفعني، فإنني لم أستسلم، وبهذه الروح واصلت إقدامي، أجتاز كل خطوة من خطوات حياتي بما يعتبره الآخرون حماقة وتهورًا لا شجاعة وإقبالًا.

أمّا لماذا يحضرني هذا الخاطر "ماذا لو؟" في هذه اللحظة، فالأسباب متشابكة صعبة الفضّ. فها أنا أمسك بيدي ورقتين أرى أنهما بمقاييس اللعبة من أقوى ما يمكن أن يأمله لاعب ماهر في مطلع دور. ولكن مبعث قلقي أنهما أول ورقتين يوزعهما الموزع، فماذا لو أبدلت الأوراق التالية هاتين الورقتين من مجموعة قوية تفوق على ما يحوزه بقية المنافسين إلى أوراق خاسرة؟

لـم أعتد أن يطول بـي التفكير في احتمالات الانهـزام. لكن الليلة مختلفـة، تعدّدت أسـباب رفضـي لتقبل الخسـارة. لعل هـذا ما جعل الحـذر المبالـغ فيه يـسيطر على كياني ربمـا لأول مرة فـي حياتي. لو أننـي في حالتي الطبيعية لدفعت بـكل الفيش الملقى أمامي رافعًا قيمة التحـدي إلى أقصـاه. أمعنت النظر فـي الورقتين وكأنني أسـتجديهما ليدلاني عمّا يجب أن أفعله. أعيد تذكرة نفسي بقوة الورقتين لأخلص مـن تـردد لم أعتده بدأ يتسـلل داخلي. حسـمت قـراري بالدفع بفيش مماثل لما دفع به كل مَن سـبقني. فقط أكبح حماسـي وأكبّل جموحي وأعـزف مؤقتًا عن رفـع التحدي انتظارًا للأوراق التي سيكشـف عنها أمين حين يعاود التوزيع.

ما إن ألقيت بفيشي حتى عاودت الانتشاء بالحضن الذي استقبلتني بـه هدى حيـن رأتني الليلـة. حضـن فاجأنـي تمامًا مثلمـا تفاجأ به كل الحضور، لعلمهم بتاريخ غير سعيد يجمعني بالجميلة. حضن افتقدته سـنوات طويلة. أثار نشـوتي رغـم علمي أنه ما كان ليوجـد، لو لم أزُرْ هدى صباحًا وأصارحها بالسـر الذي سـيصبح خبرًا حزينًا عن قريب. لعلّ علاقتي بها،وما اعتراها من تقلبات هي الحالة الوحيدة في حياتي التي ظللت أتسـاءل حين أسـتعيد تفاصيلها "ماذا لو لم...؟" نعم! هي ما ندمت وسأظل نادمًا عليه ما بقي من عمري. لقد ظل حب هدى هو الشـعور الوحيد الذي لم يفارق قلبي، لذلك لم أجد سـواها لأبوح لها بسـري الحزين، فكانت زيارتي التي لم تتوقعها، وطلبي الذي حمّلتُها أمانته.

لكنني أخالف الحقيقة قليلًا، أو ربما كثيرًا، إن ادعيت أن خسارتي لهدى هي الخسارة الوحيدة التي كان بيدي تفاديها وندمت عليها. نعم كانت الخسارة الأكبر، لكنني أعلم يقينًا أنها ما كانت لتقع لو لم تقع خسارة أخرى فادحة لعلها الحجر الذي تعثرت فيه فغير مجرى حياتي. حجر بدايته حضن هو الآخر وإن كان حضنًا من نوع آخر اختلط فيه العَرَق بالدم بالألم الشديد الذي تبعه.

لفت نظري تدخل أمين في حديث النساء، ومحاولته مجادلة هدى في دوافعها لرفض عرض المنتج أن تتحجّب. في الحقيقة أعجبني منطقه حين قال إن العالم الذي نعيش فيه يُسعّر كل شيء، وكان عليها أن تعتبر ذلك العرض بمثابة إعلان عن بضاعة ما، لا عيب في ذلك، فكل الشركات تستخدم النجوم لترويج منتجاتها، وقد كان منتجهم هو الحجاب!

لم يكن مدخل أمين مفاجأةً لأحد، فهو دائمًا يبحث عن الربح ويجيد تقنين أسبابه. الحياة بالنسبة له صفقة إن خسرها، سيقتنصها آخر.

قال إبراهيم:

- فيه بُعد أخلاقي يا أمين.. يعني مش ممكن مثلًا رياضي يعمل إعلان سجاير!

- لو نجحت شركات السجاير في استخدام نجم رياضي ها تعمل طفرة رهيبة.

التقت نظراتي بأمين حين ذكر النجم الرياضي. حققتُ الكثير في مشوار بطولاتي حتى تأهلت لتصفيات الملاكمة لقارة إفريقيا المؤهلة لأولمبياد لوس أنجلوس 1984. منذ بدأت مشواري حلمت بالميدالية الأوليمبية. لم أتواضع في حلمي، بل وضعت الذهبية نصب عينيّ، لا مجرد ميدالية، فالموسوعات القياسية لا تدون سوى اسم حامل الذهب، وتتوارى بين سطورها أسماء أصحاب الفضيات والبرونزيات. طوال مشوار التصفيات الإفريقية كنتُ مرشحًا بقوة لتمثيل مصر والقارة في الدورة التي باتت على الأبواب. وكانت مبارياتي التمهيدية وصولًا إلى المباراة النهائية أشبه بالحصص التدريبية، لم يصمد بها منافس لأكثر من جولة أو جولتين قبل أن يتلقى الضربة القاضية.

ليلة المباراة النهائية حلمت بلحظة تتويجي بذهبية لوس أنجلوس، وامتد الحلم بي فشهدت الوزير على رأس حشد كبير يستقبلوني في مطار القاهرة حين أعود متوجًا بالميدالية. منذ بدأت المباراة دانت لي الأمور كما خططت لها. كان منافسًا قوي البنية، لكنه لم يكن غريمًا يستطيع التصدي للكماتي وفنياتي التي وسمت أسلوبي. يخطئ الكثيرون حين يظنون أن الملاكمة رياضة عنف، يفوز بها الأقوى، بل هي فن وقوة تحمل. هي بالفعل رياضة النبلاء وفن يتفرد بخططه وخدعه وإبداعاته لا يتفهمها إلا عاشقيه. ميز منافسي في تلك المباراة قوة تحمله، إذ ظلّ طوال الجولتين الأوليين متحملًا لكماتي التي طالت كل نقطة يسمح القانون لمسها بالقفازين. وضح بعد انتهاء الجولة الثانية أنني حتى لو لم أُسقطه بالقاضية فسأفوز عليه بالنقاط. رفضت الجلوس بين الجولات، تأسيًا بعظماء اللعبة، معلنًا سيادتي

لمجريات اللعب. رسالة وجهتها لخصمي بأنني ما زلت في كامل لياقتي لتحطيم معنوياته قبل بدء الجولة التالية. قبل أن يُدق الجرس معلنًا بداية جولة الختام سمعت صوت مدربي يصرخ بي عاليًا:

- إنت كسبان الماتش يا عزيز.. إنت رايح لوس أنجلوس خلاص.. ماتتهورش.. مش لازم القاضية!

وجدتها نصيحة عقلانية وبدأت في التعامل مع الخصم وفقًا لها. أحسنت تغطية وجهي، وتفاديت لكماته التي أصبحت واهنة بعض الشيء، وأكثرت من احتضانه كلما سنحت الفرصة، كي أستهلك دقائق الجولة الثالثة. ركزت جيدًا كي لا يستطيع أن يوجّه لي لكمات مؤثرة، ولكمته كلما سنحت الفرصة فاخترقت دفاعاته وأصبت وجهه. عرفت فيما بعد أنه كان قد تبقى نحو خمس وأربعين ثانية حين احتضنته للمرة الأخيرة فاختلط العرق الذي يغطي جسدينا قبل أن يقترب الحكم ليفصل بيننا. قبل أن ننفصل للمرة الأخيرة، همس خصمي بلهجة عربية مغاربية واضحة:

- لاكمني كالرجال.. أعطني قاضية إن قدرت.. شكلك خايف يا عزيز!

أنستني كلماته الاستفزازية نصيحة المدرب، ومعها نسيت أيضًا ما أتقنه من فنون النزال. تحولت إلى ثور هائج؛ ثور لا عقل له يهاجم دون عقل أو تروٍّ. نجح في تفادي لكماتي التي لو كانت أصابته إحداها لقتلته من فرط ما بها من غضب. عدت من جديد أهاجمه، وتجاهلت كل ما أعرفه عن أصول اللعبة وأهمها ألا تنسى

الدفاع في حالة الهجوم. لم أعد أغطي وجهي، وبدا للناس سذاجة اندفاعي. استغل ذلك الاندفاع لتصلني لكمة قوية من يسراه إلى فكي السفلي. ارتجّ رأسي من فرط قوة تسديدته، فأتبعها بمجموعة لكمات أصابت المواضع التي قصدها. لا أنسى كيف زاغت عيناي، والدوار الذي وصل إلى ساقيّ فأحسست أنهما على وشك الانهيار قبل أن أتلقى لكمة أخيرة ارتطم من بعدها رأسي بالبساط الخشبي. حاولت النهوض، وصوت الحكم يتردد في أذني وهو يحصي عداته العشرة، ولكني لم أستطع، كانت الأضواء مبهرة فأخذت تنطفئ ضوءًا تلو الآخر. قبل أن تستحيل صالة الملاكمة إلى ظلام دامس، شاهدت من بين جفوني نصف المغلقة منشفة بيضاء تطير إلى منتصف الحلبة. لم أدرك أنها منشفتي وقد ألقى بها مدربي معلنًا استسلامي وانسحابي.

قيل لي إنني بقيت في غيبوبتي لأكثر من شهر، عوّل الأطباء خلالها عودتي للحياة على تدخلات إلهية. لم تكن إصابتي عادية، فقد أحدثت لكماته كسورًا في جمجمتي. حين بدأت أستفيق، كان والداي وبينهما هدى يحيطون بي، فشقت بسمتها سحب ظلمتي. اختلطت ابتساماتهم بالدموع. كل منهم يقول شيئًا ما وإن لم ألتقط منه سوى ما قاله أبي:

- خلاص مفيش ملاكمة تاني.. إلا لو عايز تموت!

لم أمت، ولكن مات الحلم بداخلي، وماتت معه قدرتي على الحلم مرة أخرى. وما زلت حتى اليوم أعاود السؤال:

- ماذا لو لم؟

أرهقتني محاولة إنهاء سـرد القصة. كثرت المجادلات واحتدمت الآراء، بينما اخترت الصمت وتركتهم يتابعون مناقشاتهم.

كعادتـه، كان كريـم يحاول أن يمنطـق الأمر، ويبحـث عن مدخل فلسـفي في غياب البعد العلمي للمناقشـة. شـعرتُ أن طـرح أمين قد أعجبه، إذ قال:

– اعتبارهـم معلنيـن وجهـة نظـر جديـدة.. المشـكلة في تشـابك الموضوع مع الروحانيات والدين..

قاطعه أمين:

– طب ليه مفيش اعتـراض على إعلانات الجـمعيات الخيرية اللي دعايتها بتلعـب على أوتار الأخلاقيات والضمير؛ إيه الفرق بينها وبين اللي الراجل عرضه على هدى؟

فوجئت بتدخل عزيز، الذي أعلم عنه تجنبه للنقاشات المطولة:

– هـدى بدأت عارضة أزياء، وفي الآخر طلبوا منها عرض للأزياء برضه، أزياء مختلفة مش أكتر..

لـم أدرِ إن كان بصوتـه نبرة أسـى أم سـخرية، لكن قهقهـة إبراهيم واستهجانه استثاراني:

– مختلـف؟ مختلف بالنسبة لكم يا أهـل الزمالك.. لكن ده الزي الرسـمي لستات مصر.

قال كريم:

- بقى الزي الرسمي من يوم الهجوم اللي حصل على هويتنا يا سعادة الكاتب العظيم.

- نرجع لنظرية الربع في الميّة.. نسل الأرستقراطيين اللي مقتنعين أن صور أجدادهم في شارع سليمان باشا في الأربعينيات بتمثل الشعب.. يا دكتور، كل فلاحات مصر وستات مناطقها الشعبية طول عمرهم بيغطوا شعرهم! حتى هدى شعراوي كانت بتغطي رأسها، أي نعم خلعت البرقع، لكن استمرّت تغطي شعرها. غاويين بس نُعجب بصور قديمة ونصدق إننا كنا مختلفين من غير ما ندقق في الصورة واللي مش ظاهر فيها. عارفين يا جماعة انتم ليه مصدقين إن الأمور كانت مختلفة؟ علشان جدودكم اللي كانوا شايلين الكاميرات ويصوروا بعض، هم اللي كانوا معاهم الكاميرات، فمصوروش اللي مش شبههم، طلّعوا الحافيين والمعدمين بره الكادر.. هما واللي مغطيين رأسهم!

خيمت حالة وجوم فرضتها سفسطة إبراهيم وتفلسفه الفارغ. لم أكن ،حتى هذه اللحظة، قد طالعت الورقتين اللتين ألقاهما أمين أمامي. كان انتباهي موجّهًا لمحاولة معرفة إن كانت رسالتي قد وصلته، وإن كان قد قرأها واستجاب لما طلبته أم لا؟

دون اكتراث كبير، ماثلتُ رهان مَن سبقوني، وأنا أفكّر كيف انقلب يومي منذ ساعات الصباح الأولى، وقد كان من المفترض أن يكون يومًا احتفاليًّا.

لما دقّ جرس الباب، مع انتصاف النهار، كنتُ أتمدّد في سريري قبل أن تفتح خادمتي باب حجرتي لتخطرني، بأن شخصًا يُدعى عزيز ينتظرني في غرفة الصالون.

انتابتني مشاعر متباينة، فما الذي قد يدفع عزيز لزيارتي اليوم؟ هل علم بالخبر وجاء ليعترض؟ هل سيعيد تصرفاته الموتورة بعد كل هذه السنين؟ هل أخرج للقائه أم أطلب من الخادمة أن تستدعي السائق ويصرفاه؟

في النهاية لم أجد أمامي سوى أن أسارع بتغيير ملابسي، والخروج لمقابلته بعد أن طلبت من السائق أن ينتظر بالمطبخ تحسُّبًا لأي طارئ!

يبدو أن دهشتي من زيارته كانت واضحة على ملامحي، إذ بادرني قائلًا:

- عارف إنك متفاجئة، وآسف إني تطفلت عليكِ من غير ميعاد!

انتظرت أن يفسر سبب زيارته، فأطال نظرته بين قدميه، وظل صامتًا، ثم رفع عينيه ونظر إليّ بابتسامة رأيت بها الكثير من الأسى:

- لو كان لي خاطر عندك.. هاطلب طلب قبل ما اتكلم وتوعديني تنفذيه..

حاولت أن أخفف بنصف ابتسامة يبدو أنها شجعته فأضاف:

- طول عمرك ابتسامتك جميلة.. أنا بقى هاطلب منك إن تفضل الابتسامة دي على شفايفك حتى بعد اللي هاقوله..

زادت حيرتي وأصابني بعض الارتباك، لم أفهم ما يرمي إليه، وزاد من حيرتي إصراره على طلبه المبهم:

- اوعديني تفضلي مبتسمة.. من فضلك اوعديني!

ولأنني أعرفه منذ سنين شبابي، وأوقن أنه سيظل يراوغ، ولن يتنازل عن مطلبه، لم أجد بُدًّا من الاستسلام:

- أوعدك يا عزيز.. قل لي بقى عايز إيه؟

لم يكن غريبًا أن أكون حادة بعض الشيء برغم مرور سنين على النهاية الحزينة لقصتنا، أو بمعنى أكثر دقة، النهاية الباهتة للقصّة. تغلّب على ارتباكه، وتحشرج صوته قليلًا وهو يفجّرعلى مسمعي قنبلته:

- أنا مش فاضل لي في الدنيا كتير يا هدى.. عندي سرطان في مرحلة متأخرة.. يعني أيامي في الدنيا بقت معدودة..

انقبض صدري، وتمنيت لو كانت هذه إحدى مزحه السخيفة التي اعتاد إلقاءها في وجوهنا، أردت أن أصرخ ليكفّ عمّا يقول، لكن جدية صوته منعتني. حاولت أن أتفوه بأي شيء فلم أجد ما يتناسب مع هذه الفجيعة. أطبق الصمت علينا، ولمحت أثر الدموع يغسل عينيه، قال:

- أنا جاي لك لأني بأرتب الباقي من حياتي، ولي طلب عندك!

- إيه اللي بتقوله ده يا عزيز.. أكيد فيه علاج.. أنا هاكلم أمين يرتب لك تسافر فورًا تشوف أحسن دكاترة في العالم.

- حتى أحسن دكاترة في العالم ما يقدروش يعملوا حاجة.. أنا مش عايز أتبهدل الأيام اللي فاضلالي.. عايز أموت من غير ما حد يشوفني ضعيف ومتهالك.. عايز اللي بيحبوني يفتكروني دايمًا قوي ومتماسك، ولو على شوية الألم فأنا هاقدر أستحملهم..

- اللي بتقوله ده استسلام، وأنا عمري ماعرفتك بتستسلم.

- أنا ماعملتش في حياتي حاجة غير الاستسلام.. عمومًا لو سمحتي خليني أقولك طلبي!

- ....

- إنتي عارفة إني مش فاضل لي في الدنيا غير أمي، وطبعًا صدمتها هاتكون رهيبة..

- أخوك موجود يا عزيز..

قلتها وشعرت بالندم، إذ عنت قبولي بفرضية مرضه وقرب موته.

- بعد كل اللي عمله فيّا، هو ما يهموش غير ثروته وولاده.. هايرميها صدقيني!

استمر بصوتٍ ملآن شجنًا:

- لـو كان عنـدي ذرة ثقة إنه هاياخـد باله منها ماكنتـش هابقى هنا دلوقـت.. طول عمرها بتحبك، ولغاية دلوقت بتقولي إنها كان نفسـها نفضل لبعض.

- طنط في عيوني يا عزيز.. ما تخافش!

- مـن فضلـك يـا هدى مش عايـز حد يعـرف حاجـة.. أنـا هاختار الوقت المناسب وأقول للي هختاره.

لـم أسـتطع كبح دموعي، تركتهـا تنهمر فوق وجنتـي ونهضت من مقعـدي، وأحطتـه بذراعي في حضـن طويل، لكنني لـم أتبيّن، بشـكلٍ واضح، ما همهم به قبل أن يغادر، كأنه قال:

- أنا واثق إنك لسه بتحبيني يا هدى..

بعـد ذهابـه، ظللت غارقـة في نوبة بـكاء متواصلة، ومـا إن هدأت قليلًا حتى وجدت أنه عليّ الاتصال بأمين، لكن يبدو أنه كان على متن الطائـرة، حيث لـم أتمكـن من مهاتفته، اسـتمرّت محاولاتي للاتصال بـه، ثم تبيّنت أنني لن أسـتطيع أن أقص عليه ما قالـه عزيز وفاءً بالوعد الذي قطعته على نفسي. تناوبت عليّ مشاعر الحزن والحيرة والغضب وقلة الحيلة. حزن على مَن أحببت يومًا، وحيرة فيما يجب عليّ فعله، وغضب من موقف لـم أختر أن أكون بطلته، وقلة حيلة في القدرة على الوصول لطريقة أتدبر بها موقفًا شديد التعقيد.

لـم أحـاول أن أغيّـر أي شـيء ممّـا اتفقنـا عليـه حتـى لا أثيـر أيـة تسـاؤلات. مررتُ بعايدة لنذهب سـويًا إلى شـقة ليبون، وفي الطريق

مررنـا بناديـا في الفندق الـذي تقيم به. لم أسـتطع أن أخفي ما بي وإن لـم يسـعفنا الوقت لنطيـل النقاش حول مـا عرفته من عزيـز. ظل رأي ناديا الذي ألقت به في عُجالة يؤرقني وهي تؤكد أنها ستسـهب لي في الشـرح في طريق رجوعنا حيث كنا وصلنا. حيرتني ثقتها في تفسيرها الذي توصلت إليه عن علم ونظريات لم يسـعفها الوقت أن تسهب في شرحها. فقط أكدت لي:

- ما تقلقيش يا هدى.. أنا واثقة من اللي شرحته لك.

حين التقينا في شـقة أمين، اسـتدعيت كل قدراتـي التمثيلية لأبدو طبيعيـة، وأشـارك في الأحاديث الدائرة. وهأنذا الآن جالسـة أتوسـط طاولة اليوكر أخفي ما أسـتطيع من ثقل المشـاعر التي تموج بداخلي. أختلـس النظر لأمين من آنٍ لآخـر دون أن يلحظ الآخرون، أحاول أن أستشـف من قسـماته إن كان قد تلقّى رسـالتي. أعـاود النظر فلا أجد إجابة على تسـاؤلاتي، هكذا هو دائمًا، محتـرف پوكر، لا يبوح وجهه أبدًا بما يدور في ذهنه. حقيقة عرفتها عنه طوال حياتي، وخبرتها مؤخرًا حيـن باح لي بسـر كنتُ أعتقد أنـه مجرد خاطر يلوح لي دون سـند أو دليل. خشـيت أن تخونني نظراتي إليـه، فتظاهرت بأنني أتفحص بدقة الورقتيـن بيـدي وأنا أتمنى أن تكون رسـالتي قد وصلتـه وأن يتفهّم ما طلبته منه في رسالتي:

"أميـن! مـن فضلك ما تقولش حاجـة من اللي اتفقنـا عليه الليلة دي.. محتاجة أتكلم معاك لوحدنا قبل ما تقول أي حاجة".

لـم أتوقـع وأنـا أتمرس فـي هـذه اللعبة أن يكـون الجـزء الخاص بالخداع هو المفضل لديّ. أسـتطيع أن أقـول إنني أتقنته وأحببته حتى الإدمـان. لعـل خبرتي بالحياة ومـا رأيته خلالها، جعلنـي أفهم ما قاله أونكل يسري في تلك المرة:

"الخـداع طبيعة في البشـر: احـذروا أن تنخدعـوا واتعلموا إمتى تخدعوا".

يُصدَم المقربون إليّ حين يكتشـفون أن مـا يعرفونه عني من مثالية يفارقني متى بدأت اللعب. كانت موهبتي في إيهام المنافسـين مذهلة، أستطيع إقناعهم بأن ما لديّ هو الأقوى، بينما تكون أوراقي في أضعف الحـالات. أُتقن تمامًا الإيحاء بما أريد. إن كانت أوراقي قويّة جعلتهم يظنون أنني أخطط للانسحاب، وإن كانت ضعيفة أعرف كيف أرهبهم ليؤثروا عدم المواجهة.

طالمـا وجدتُ فـوق طاولة اللعب سـاحةً أسـتطيع أن أطلق عليها كل مـا بي من تهوّر وفوضوية مكبوتين. كانت دائمًا اللعبة التي أتخلى أثناءها عمّا أصبو إليه من كمال في حياتي. هنا وسط أصدقائي أستطيع أن أكون المرأة التي تخطو خارج إطار مثاليتها بكل أريحية.

لذلـك لم أُبالِ كثيرًا بالورقتين اللتين أصبتهما من التوزيعة الأولى، أعلم أنهما يكادان يكونان بلا قيمة حتى تتكشف بقية الأوراق. سيرى بعضهم قوة في الأوراق التي أصابوها، ولكن تلك القوة مؤقتة تضعفها

الأوراق التاليـة إن اختـارت أن تتبسـم بيد الآخرين. لـم أفكر طويلًا، دفعت بمثل ما دفع به الأصدقاء إلى وسط المائدة من فيش.

بعـد أن وضعـت الورقتين أمامـي، قررت الرد علـى منطق إبراهيم الذي لـم يعجبني، قلتُ:

- كلامـك كالعادة طبقي بحت يـا إبراهيم ومردود عليه.. حتى في الغرب الستات كانت بتغطي شعرها في القرون اللي فاتت..

بدا أن ردي قد أثاره، حيث قال منفعلًا:

- غطـا راسـهم كان تديُّـن.. لمـا بقـت العلمانيـة ديانتهم كشـفوا شعرهم.

- مش هافتي في متطلبات الأديان.. بس مش شـايفة الحشمة غطا للراس.

أيدني كريم قائلًا:

- صحيـح.. كلام ناديا صحيح، الحشـمة مالهاش دعوة بحجاب، الأخلاق والسلوكيات ما بيحكمهاش لبس.

- حجـة العلمانيين الأبديـة.. هاتقول لي دلوقتي إنك يا ما شـفت محجبـات بيعملوا مصايب، والحجاب مـا منعهمش.. وهارد عليك: نسبتهم قد إيه؟

- الإيمان مش بالمظهر. الإيمان نتيجته سلوكيات وضمير وجوهر محترم مش مظاهر.

تدخّل أمين في الحوار المتبادل بين كريم وإبراهيم، رغم أنني لم أتبين إن كان يمزح أم أنه يسأل هدى بجدية:

- لو العرض كان ترويج لمايوهات، كنتي هاتوافقي؟

- ما اظنش، بس الفرق إن ماكانش هايبقى مطلوب مني ألبس المايوه بقية حياتي، كنت هالبسه أثناء التصوير وأرجع ألبس هدومي العادية..

اتجهت أنظارنا نحو هدى ننتظر ما تبقى من وجهة نظرها:

- الموضوع بالنسبة لي كان سهل جدًّا. لقيت إن المطلوب مني أكون صورة ما بتعبرش عني.. أنا طول عمري إيماني بالله قوي، ودايمًا حاسة إني قريبة من ربنا. مالقيتش جوايا رغبة إني أكون حاجة مش مقتنعة بيها مهما كان الأجر المعروض عليّ، فقررت ببساطة إني مش عايزة أتاجر بديني.

نهضت من مقعدي وصفقت لها بيدي، قلت:

- بالظبط يا حبيبتي.. إنتي حرة تتحجبي لما تحبي وللأسباب الصح مش علشان الفلوس.

جلست من جديد وأسندت ظهري إلى مسند المقعد، كنت مستمتعة بتواجدي بين أصدقاء عمري. كلما التقينا أمتلئ شعورًا بأنني في أمان بصحبتهم، أستظل بمشاعر العائلة التي حُرمت منها في شبابي. مشاعر انقطعت حين توفي أبي واختلفت معاييرها هناك في

السويد لدى عائلة أمي، حيث يضعون حدودًا للاقتراب، كي لا يعتدوا على ما يبجلونه من حريات شخصية.

أعشق مصر، ومهما طال بُعدي عنها، لا أعرف وطنًا سواها، على الرغم من الأذى الذي أصابتني به شرائعها والجور المقنن الذي أبعدني سنوات طويلة ظللت خلالها أتوق لشمسها مهما توالت لعنات أمي عليها. وهؤلاء الذين أستدفئ بوجودهم الآن هم أكثر ما أعشق فيها، رغم أن كلًّا منهم يخالف بطريقة أو بأخرى كثيرًا من قناعاتي. شعرتُ بالأمان وأنا أتذكر كيف ارتعدت وأنا أقف أمام ضابط جوازات المطار، حين قدمتُ له جواز سفري السويدي:

- حضرتك معاكي پاسپور مصري؟

وكيف لا أرتعد، وقد سُجل اسمي لسنوات على قوائم ترقب الوصول:

- آه معايا پاسپور مصري.

- طيب ليه حضرتك مش بتستعمليه.. عشان توفري تمن الڤيزا؟

شجعتني ابتسامته فمددت يدي إلى حقيبتي وأخرجت جواز سفري الأخضر، ليضع عليه خاتم الدخول مبتسمًا، ويمنحني سببًا آخر لعشق هذا البلد وأهله لما قال:

- نورتي مصر!

3 ورقات

امين

تنصُّ قوانين اللعبة على أن يلي حصول كل لاعب على ورقتين، أن يقوم موزّع الورق بكشف ثلاث ورقات في منتصف الطاولة. وتكون لحظة انكشاف الورقات الثلاث هي اللحظة الفارقة بالنسبة للجميع، إذ يصير على كل لاعب أن يضع خطته للخطوة التالية. سيجد البعض أن أوراقه غدت قوية، حين يكملها بما هو مطروح على الطاولة، في حين سيرى آخرون تضاؤل فرصتهم. ما فعلته لم يكن بالتأكيد ضمن أية قوانين للعبة، فليس مسموحًا للموزع بترتيب الأوراق ومعرفة ما يحمله كل لاعب وفرصه في الفوز، لكنني لم أجد في ذلك خطأً أو غِشًّا، بل تحقيقًا لهدفي من اللعبة في هذه الليلة. لقد وجدت أنني بترتيب الأوراق وتوزيعها على النحو الذي اخترته سأضع كلًّا منهم في اختبارات متماهية مع المواقف التي سيتعرض لها في إدارة الصندوق في حال فوزه. لم أعتبر أن الموضوع هزلي أو غير جاد، لقد اخترت أن أسيطر، ولو بعض الوقت، وأحدد مَن سيصل إلى المنصب. قناعتي بأن هذه اللعبة بها كل ما بالحياة من مفاجآت ومواقف إضافة

إلى ما خبرته في حياتي، ساعداني كي أصل إلى هذا الترتيب الذي لمس ما أعرفه من نقاط الضعف والقوة في شخصية كل منهم. داعبت عزيز بأوراق تدفعه للتهور، وإن تمنيت أن يكبّل جموحه، ويتصرف بعقلانية. كريم أعطيته أوراقًا تستثير قدراته الحسابية وتجعله يستدعي نظريات الاحتمالات الأكثر تعقيدًا ليصل إلى قراراته. وعلى نفس المنوال، منحت عايدة أوراقًا ذات أعداد فردية تعشقها وأخذت أترقب إن كانت ستتبع حدسها أم ستترك الفرصة لعقلها ليدير المسألة. أما إبراهيم فقد أعطيته أوراقًا لها فرص فوز متوسطة، لكن خططتُ لأن تزداد قوة مع كل توزيعة، قبل أن يصل إلى نهاية درامية.

لكني قررت مع ناديا أن أداعب عشقها للخداع، فتعمّدت أن أضعف ورقتيها الأوليين. وحين ترى الأوراق الثلاث التي كشفتها فوق الطاولة سيحدوها شيء من الأمل في الفوز، وفي نفس الوقت ستسمح لها بشيء من المناورة التي تعشقها. الوحيدة التي لم أهتم بما ستصيب من أوراق كانت هدى، فقد كنت أدرك أنها الفائزة هذه الليلة في كل الأحوال.

أخذت أتفحّص وجوه المتنافسين محاولًا استطلاع ردود أفعالهم بعد انكشاف أوراق الطاولة. وكلاعب متمرّس، أعلم أن وجوه اللاعبين تُفصح في أحيان كثيرة عمّا يمتلكونه. كنت متيقنًا أنهم لن يستطيعوا مداراة انفعالاتهم، لكني فوجئت برباطة جأشهم جميعًا، عدا عايدة التي كانت منفرجة الأسارير. كنت أعلم أن أكثر ما يشكل

خطـرًا على اللاعـب أن تختلط قدراتـه الذهنية بحالته النفسـية، أو أن تكون لديه لزمات جسدية تُفصِح عمّا يفكر فيه، ولهذا يمضي ممارسو اللعبة سـنوات في محاولات دءوبـة للتخلص من تلك اللزمات، وفي نفس الوقت محاولة تعلم كيفية الكشف عن لزمات منافسيهم.

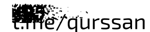
أنـا نفسـي تمرّنـت لفتـرات طويلـة كي أتخلـص من أي إشـارات جسدية قد تفصح عن فرحة أو قلق يتناظر مع الورق الذي بيدي. الليلة لا يوجد ورق في يدي، فلا قلق من أن يكشـف أحد ستري. لم أستطع مقاومة الابتسـام وأنا أجد اللازمة الوحيدة التي لم أنجح في التخلص منهـا تتصـدّر ذهني: تقفز صـورة روزي ماكبرايد إلـى واجهة تفكيري كلما حان وقت الكشف عن الأوراق الثلاث على طاولة اللعب. دائمًا مـا تأتينـي صورتها كلما بدأ أمرٌ ما في التجلي والانكشـاف. إذ كانت روزي أول خيط في الاكتشـاف الذي شـكّل ما تبقى من حياتي، حين جاءتني يومًا في عينيها الخضراوين شرر المغدور تصيح في وجهي:

– تصورت أنني أهم عندك من أن تخشى أن تحكي لي مَن أنت!

متـى كنـت تنـوي مصارحتـي؟ أم أنني جزء من تسـليتك يا سـليل الملوك؟

– من.. أنا؟ أنتِ مجنونة؟

– هل تنوي أن تستمر في الكذب.. أشكرك لأنك أكدت شكوكي. أنا مجرد نزوة أو تسلية؛ جزء من رحلتك الدراسية.. شكرًا أمين!



بذلت مجهودًا مضنيًا ذلك اليوم حتى استطعت تهدئتها. لم أفهم سبب ثورتها وصياحها المتواصل، حول اكتشافها سري الذي أخفيته عنها. احتضنتها، وأقسمت أمامها مرارًا إنني لا أفهم شيئًا ممّا تقول وكنت صادقًا كل الصدق. أخيرًا، ومن بين دموعها التي خضّبت خديها ووجها المنمش، استكانت قليلًا وبدأت تعيد عليّ ما قرأته في ملف إدارة شئون الطلبة:

- هناك خطاب من مكتب عائلة مالكة موجّه للجامعة، يتضمن تعهدًا بأن يتحمّل مصاريف تعليمك بالكامل كونك جزءًا من عائلته، وأنه لأسباب تتعلق بأمنك، لا يجب أن يعرف أحد بهذه المسألة وإلا ستُعد الجامعة مسئولة عن تبعات ذلك!

بعد تلك المواجهة فترت علاقتنا. بل تغلبت الجينات الإنجليزية التي ورثتها عن أمي، فلم يعلق الموضوع بذهني، وانتظرت العثور على التفسير المناسب لدى "عمي" حامد حين نلتقي في حفل تخرجي الذي وعد بحضوره. جزء كبير من عدم انفعالي لما كشفته ماكبرايد أني وجدت تفسيرًا منطقيًا أردت فقط أن يؤكده لي حامد. فمنذ زيارته لي وتعريفه بنفسه بأنه صديق والدي، وتوليه كافة أموري، وإصراره على إرسالي لجامعة في بريطانيا، وأنا أرتاب في قدراته المالية التي قد تتحمل كل هذه التكاليف. كان طيبًا، ذا مظهر متواضع، لم يكن حتى ممّن اعتاد أبي أن يعتبرهم أصدقاءه، وبكل تأكيد لم يكن زميلًا له في فيكتوريا، مدرسة الأكابر، التي تخرج فيها الملوك والوزراء، ولا يُشبه

كذلك مَن زاملوه فترة إقامته في إنجلترا. توقعت أن يكون الصديق الحقيقي الذي تولى أموري ومول تعليمي زميل مدرسة أو جامعة قرّر أن يتكفّل بابن صديقه إثر وفاته المفاجئة. بقي لي أن يفسر حامد الدافع وراء السرية وعدم إخباري بالحقيقة. وحين دعاني للعشاء بعد حفل التخرج، وحين وجدت اللحظة مواتية باغتُّه بسؤالي:

- مش هاتحكي لي يا عم حامد حكاية الأمير وأبويا الله يرحمه؟

بدا كأنه تجمّد في مقعده من وقع سؤالي، تنحنح طويلًا وتسارعت أنفاسه قبل أن يرد بصوتٍ خفيض:

- إنت عرفت منين يا أمين؟

شعرتُ بالزهو حين اكتشفت صحة حدسي، لكني دُهشت لرد فعله، واضطرابه الواضح. أيقنت أنني على وشك اكتشاف ما نجح في إخفائه لسنوات، وحتى الآن لا أعلم ما الذي دفعني لأن أقول بثقة:

- أنا عارف من زمان يا عم حامد؛ بس نفسي أعرف التفاصيل.. احكي لي من فضلك!

أظنني بتلك الكذبة قد رفعتُ عن كاهله حجرًا ثقيلًا يطبق على صدره. بدأ حامد يتحدث دون تردد أو رغبة في التوقف. قال إنه عاش أغلب سنوات عمره في البلد الإفريقي الصغير يعمل في ديوان حاكمه. ثم قفز إلى تلك الليلة، رأس السنة، التي قضاها الأمير الإفريقي في الكازينو الذي كان يديره والدي. حكى لي عن تلك اللحظة التي أصر

فيها الأمير أن يلعب مع يسري، وأن تكون المقامرة على مليوني جنيه. قال أيضًا إن والدي تردد كثيرًا، لكن الأمير لم يلِن حتى نال غرضه وقبل يسري التحدي. واسترسل يحكي كيف تتابعت أوراق اللعب وكيف تفاعل كلا اللاعبين مع كل توزيعة. ولم يتذكر من الأوراق التي نزلت إلى الطاولة إلا الأخيرة: بنت القلوب. وكيف اكتسى وجه أبي بالسعادة حين رأى تلك الورقة تستقر فوق الطاولة، وكيف دفع بكل ما يملك من فيش مراهنًا على فوز كبير.

استفاض من جديد يصف لي كيف تحولت الفرحة حسرةً حين كشف الأمير أوراقه التي لم يتوقّع أيّ من الحاضرين أن توهن قوة أوراق يسري. تملّك الحزن نبرات صوته وهو يصف السخرية التي نالها الخاسر، وكيف أحس حامد بانكساره، بينما يمعن الأمير في إذلاله والتشدق بفوزه. اغرورقت عيناي بالدموع وأنا أستحضر اللحظة التي وقّع فيها أبي كمبيالات الدّين لصالح الأمير بمبلغ لم يكن كثيرون يجرؤون على التلفّظ به في ذلك الوقت: مليون جنيه!

رفع حامد رأسه للمرة الأولى منذ بدأ يحكي، قال:

– لما وصلنا خبر موت أبوك.. سموه انفعل بالموقف، وقطّع الكمبيالات، وأصدر تعليماته إننا نتولى كل أمورك. متهيأ لي إنه حس بشوية تأنيب ضمير.

أتذكر جيدًا تلك الليلة، وكيف فقدت القدرة على تمييز المشاعر التي تلاطمت بداخلي. امتزجت داخلي مشاعر الحنق والغضب

والحسـرة، وتحوّلت إلى بركان ثائـر، تنصبّ حممه على مَن رأيته منذ هـذه اللحظة قاتل أبي. سـاد صمت حزين، وحيـن حاولتُ أن أغادر، عجزت ساقاي عن حملي.

أسـاء حامد قـراءة سـكوني، إذ رأيته يتحدث من جديـد وقد بدت على وجهه ابتسامة مصطنعة:

– واجب عليك تقابل سموه علشان تشكره على اللي عمله لك..

كريم

حين انكشفت الأوراق الثلاث على الطاولة استغرقتُ دقيقة أو أكثر قليلًا، لكي أتناسى ما تمنيته من ورق قبلها.

أعدت النظر إلى الأوراق الثلاث اللاتي استلقت على ظهرها وسط المنضدة. ورقة واحدة ما أحتاجه الآن للفوز بهذا الدور. ركزت جيدًا، وتمنيت أن تكون تلك الورقة هي ما سيكشفه أمين في الدور التالي. عدت للتركيز من جديد محاولًا التأكد ممّا يجب عليّ انتظاره. دائمًا ما تداعبني تلك الألعاب الذهنية، فأتخيل ما أتوق إليه واقعًا، في حين أن الواقع مختلف تمامًا. سرعان ما بدأت في إعادة حساباتي، والتمعن في فرصي بناءً على ما استطعت توقّعه من مجموعات تتكون بين ما بيدي وما أصبح يزين السطح الأخضر من أوراق.

طالما كنت مؤمنًا بأن العلم ومعادلاته يستطيعان حلّ أي معضلة مهما استعصت. لكن إيماني هذا غدا رخوًا في مواجهة المشكلة التي زلزلت أسس حياة ظننت حين اخترتها أنها غير قابلة للصدع. كرستُ حياتي لأجل الوصول إلى الماكينة المثالية التي لا تحوي شوائب ولا تتأثر بهزات خارجية. كلما طال تعاملي مع نظريات الهندسة الميكانيكية، ترسخت قناعاتي بأن الحياة مجموعة تروس إن أحسنّا تصميمها صارت طيّعة في أيدينا، واستمرت في الدوران بانضباط ينأى بنا عن المفاجآت التي تتسبب في انهيار مَن لم يعتادوا مثل هذا التخطيط.

بصعوبة حاولت أن أطرد تلك الأفكار الثقيلة خارج عقلي لأركز في اللعب. أعدت حساباتي جيدًا وقررتُ أن أنتظر لأرى ما سيقدم عليه الباقون. بهذه الطريقة سأستطيع أن أشتري وقتًا أطول لأدقق في فرصي وأستقرئ من تحركاتهم خطوتي التالية. بهدوءٍ شديدٍ أعلنت أنني لن أراهن لألقي الكرة في ملعب مَن يتلوني. وبنفس الهدوء ودون مقاومة تذكر، استسلمت لسيل من الأفكار الثقيلة أخذت تجذبني إلى فضاء ذكريات، أو بمعنى أدق جروح تأبى أن تندمل.

وجدتني أطيل النظر إلى وجه ناديا الذي طالما أحببت تفاصيله. تفكرت لو كنت نجحت ونحن صغار في إعلان إعجابي بها. لعلي لو تشجعت آنذاك ما حلت بي الفجيعة التي أصابتني في دينا. للحظة تصورتها ابنتي من ناديا وأنها ابنة مطيعة لم تتسبب لي في ألم غير متوقع. أمعنت النظر في وجه صديقتي من جديد فاستغربت إحساسي في كيف تتشابه بعض ملامحها مع دينا. كالعادة كلما ألح عليّ افتقادي لابنتي تتصدر ذكرى صراعي معها ذهني فأستعيد كشريط سينمائي ما مررنا به منذ الخبر الصدمة التي باغتتني به.

كنت قد قررتُ أن أتعامل مع فاجعتي في ابنتي بمنهج علمي مثلما اعتدت، وأول ما عزمت عليه كان التزام الصمت قبل أن أبدأ ببحث الموضوع، وأُعد أدوات التعامل مع ما اعتبرته كارثة مدوية. تحاشيت آنجيلا التي حاولت أن تفاتحني مرات عديدة، وأنا أراوغها في كل مرة مؤجلًا ما لم أكن مستعدًّا لمواجهته بعد. أما دينا فقد احترمتْ رغبتي

في الابتعاد، ومنحتني مساحتي الشخصية كاملة. لعل خطئي الوحيد كان تلك المساحة الشخصية الواسعة التي منحتها إياها. رُبّما كان عليّ أن أعتدي على هذا السياج التي أحاطت به حياتها من حين لآخر، أن أراقبها كي أتدخل مبكرًا إن رأيت شائبة مقلقة.

كرّستُ جُلّ وقتي للقراءة حول حالة دينا، وكل ما يتعلق بنظرياتها النفسية والجينية والفسيولوجية. بوغتُّ حين اكتشفت أن كل الأبحاث والتحليلات خلال العقد الأخير تتناول الموضوع باعتباره طبيعيًا، وأن عليّ التكيف والقبول. اجتهدت في محاولة إيجاد آراء رافضة، فلم أعثر سوى على آراء المتدينين على اختلاف أديانهم. تعجبت كيف استطاع البشر تحويل فعل منبوذ طوال تاريخ البشرية إلى حق مقبول، لأصحابه صوت يصدح عاليًا طاغيًا على مَن يجرؤ أن يشير إلى نشوزه.

منذ هاجرت إلى إنجلترا أخذت على نفسي ألا أحاول أن أنقل عالمي إلى هناك. اخترت بمحض إرادتي أن أصبح إنجليزيًا، وأن أعيش حياتهم كاملة دون محاولة المزج بين ما تربيت عليه وما أصبح عالمي وواقعي. والحقيقة، التي أراها مُرةً الآن، أن انبهاري بتقدميتهم وإعلائهم لقيم اندثرت في المجتمع الذي ترعرعت فيه، جعل تحولي منطقيًا وسهلًا. وجدتُ في المساواة التي ينشدونها راحة لمَن هم مثلي فاغترفت منها وتركت ابنتي الوحيدة تتمتع بما يقدمه هذا المجتمع من إنسانية، كنّا على الدوام نتغنى بأنها كانت قيمةً أصيلة في مجتمعنا.

وفي النهاية، وجدت في نفسـي شجاعة المواجهة، فقررت أن أبدأ بأنجيـلا لعلي أتخذ منها حليفًـا يعاضدني في معركة اسـترجاع ابنتي. أتذكر أنه كان مساء يوم سبت، حين بدأت ذلك الحوار العجيب:

- دينا تكلمت معي في موضوع ارتباطها.

- زواجها يا كريم.. موضوع زواجها.

- زواج! أو ليـس الـزواج ارتبـاط ذكر بأنثى؟ دعينا نـسـميها علاقة يا أنجيلا.. وأتمنى أن تكون علاقة عابرة.

- في الزمن الذي تعيشه يسمونها زواج.

بدأت أشـعر بالإرهاق مـن مدخلها في الحديث. ما أدهشـني أكثر كان انزعاجـي مـن أن مناقشـتنا كانـت بالإنجليزية. برغـم إجادتي لها واعتبـاري أنها لغتي الأم بعد سـنين توطني في إنجلترا إلا أني وجدت لأول مـرة فـي حياتنـا معًا أننـي افتقدت أريحيـة أن تكـون العربية لغة حديثنا. رددت عليها بما وجدته منطقيًا:

- الزواج في الأساس بذرة لتكوين أسرة.

أجابت بضحكة أثارت استفزازي:

- منطقك عفا عليه الزمن.. كنت أظنك متحضرًا أكثر من هذا.

- هل التحضر أن نجافي الطبيعة؟ نسمي الشذوذ طبيعة؟

- هذه طبيعتها.. طبيعتها واختيارها!

- ولو كان اختيارها خطأ، نتركها دون أن نحاول تصحيحه؟

- ربيناها على أن تختار بحرية.. وها هي اختارت!

- اختيار خاطئ، ومحرّم كمان.

- محرّم؟ مَن حرّمه؟

- حرّمته كل الأديان. حرّمه الله.

- وإن اختارت أن لا تؤمن بالأديان؟ هل تلتزم بشرائع لا تؤمن بها؟ لم أعرفك تمارس طقوس دين معين. لا أتذكر رؤيتك تصلي. حتى زواجنا أنت مَن أصررت أن يكون مدنيًا. الآن تطلب منّا أن نطبق شرائع الأديان؟

أُسقط في يدي، مع كل كلمة كانت تتساقط في غور جرح يلتهب. ولم أشعر بنفسي وأنا أصيح عاليًا في وجهها:

- أنا رافض الموضوع من أساسه.. مرفوض!

- رفضك غير مؤثر يا دكتور كريم.. هي حرة في اختياراتها. أنا وأنت ليس لنا سوى القبول.

نقاشاتهم الحادة حول قصة حجاب هدى، ومشاركتي باندفاع في هذا النقاش، أعادتني إلى جدل قديم بيني وبين أنجيلا، وبيني وبين دينا مرة بعد مرة، ودائمًا كنّا نصل إلى نفس النتيجة: اللا نتيجة! كل منّا يتمسك برأيه بل بما تربّى عليه وما آمن به. في كل مرة يصيحان في

وجهـي بأن اعتراضاتي لا وزن لها، وأن ليس بيدي إلا أن أُعمل عقلي وأقبـل الأمر. عنـد هذه النقطة من المناقشـة تجلّى لي القـرار الذي لا بـد من اتخاذه. في هدوء شـديد وبكثير من "التحضـر" انفصلت عمّن أصبحت تراني غير متمدين بالقدر الكافي. وبإصرار دينا على المضي في قرارها لم يعد هناك ما يجمع بيننا. تركت البيت واسـتأجرت شـقة صغيرة بجوار الجامعة. حاولت مقابلة دينا وإعادة المناقشـة، فرفضت المبدأ واشترطت إن تقابلنا أن تصطحب مَن اختارتها شريكة لحياتها. حاولـتُ أن أفـاوض نفسـي مرارًا كـي أتقبـل الأمر، فـازداد صدودي وإصراري على ما آمنت أنه وضع خاطئ وشاذ.

انغمست في عملي وأصبحت الإجازة الأسبوعية حملًا ثقيلًا، تمر سـاعاتها ببطءٍ قاتل، حتى تنتهي بعودتي من جديد إلى عملي. لم تعد لـي حياة اجتماعية بل لا أتذكر - خلال كل هذه الفترة - حديثًا واحدًا مع أي شـخص، خارج الـسياق البحثي. فقدت شـهيتي ولم أعد أجد متعـة في أي شـيء ولا حتى القـراءة التي طالما كانـت ملاذي الآمن. سَـهُل عليّ إدراك أنني أُصبت بحالة اكتئاب شـديدة. قررت استشـارة طبيب نفسـي. لكن الزيارة لم تدم أكثر من خمس دقائق، إذ انتهت مع أول تعليق يدلي به على ما أفضت في شرحه:

- يجب يا عزيزي أن تتعلم قبول هذا الأمر!

كرهـت ضبابية لندن بعدما كنت أرى بها غموضًا جذابًا. وسـئمت الأمطـار التـي تذكّرنـي بلياليّ وحدتي ونشـيجي، واشـتقت إلى دفء

الحيـاة فـي كنـف زوجة وابنـة، يشـيعان الحرارة فـي أجوائـي الباردة الخاوية.

تقابلـت وأنجيـلا عنـد المحامـي لنوقـع أوراق الطـلاق، بعـد أن تناصفنا ممتلكاتي طبقًا للقانون. تمنيت أن ألمح مسحة من حزن فوق ملامحها، فلم أرَ سـوى نفس التعبير الذي لم ألحظ أنه لم يتغير طوال مـدة زواجنـا. حين غادرت طلبـت من المحامي أن يعـد وصية تصبح فيها كافة ممتلكاتي بعد وفاتي وقفًا لمنح دراسية لطلبة مصريين.

بعد أيام فعلتُ ما لم أتصور يومًا أن أفعل مثله: كتبت استقالتي من الإمبريال كوليدج. بنفس الهدوء البارد الذي أصبح يعنون كل سلوك حياتي. قبلت الجامعة الاسـتقالة دون استفسار عن مسبباتها الحقيقية. تأكّـدت أنهم لـم ينخدعوا يومًـا بمحاولة تظاهري بأنني واحد منهم. دون تفكيـر طويـل، أدركـت أن ذلـك طبيعي فـي بلاد: مـات الملك، عاش الملك!

السـؤال الـذي يطرحه قرائي حيـن يلتقونني في النـدوات: من أين جاءتك فكرة الرواية؟

لـو استطعتُ لدعوتهـم جميعًا ليشـهدوا هذه اللحظـة، هنا تكتب روايةٌ نفسـها دون أن يجهد كاتبٌ قلمه. كلما أمعنت النظر في تفاصيل المشـهد رأيـت عناصـر رواية متكاملة تشـخص أمامي. سـبعة آدميين يجمعهم تاريخ مشـترك، شـخصياتهم متباينة، ولـكل منهم قصة ذات خيوط تتشابك مع قصة أخرى لشخص آخر. تملكتني الفكرة، وبدأت الأفـكار والمشـاهد تتوالـى في ذهنـي. لم أعـد أفكر فـي البداية، ولا شـغلتني النهاية بقدر ما سـيطرت عليّ الرؤى لكل خط درامي وكيف ستسردها كل شخصية من وجهة نظر مختلفة. أعجبتني فكرة أن أكون شـخصية حقيقية في إحدى رواياتي. بالطبع سـأمزج شخصية الكاتب بكثير من الغموض وسـأطمس أي بصمات تربطها بشـخصي. أكثر ما أثارنـي وأعجبني في نفس الوقت، أنني سـأقص حقائق عن شـخصية الكاتـب لا يعلمها سـواي وربما آخـرون لم يعودوا أحيـاء بيننا. أخيرًا سأسـتطيع أن أحكـي أحداثًا منعني منها خجلي أو خشـيتي من اهتزاز صورتي التي رسمها لي القراء والمريدون.

حيـن أُقدم على رسـم شـخصية الكاتب، والذي سأسـميه إبراهيم إمعانًـا فـي إرباك القراء وزيادة حيرتهم، سـأبدأ بحكايـة أهم جائزة لم يفـز بها، وإن حاز عليها عمله الأول. عدة سـنوات مـرت وأنا ملتصق

بالأستاذ الكبير، رئيس التحرير، تعلو هامته فأعلو في ظله. صرتُ مدينًا له بأن أصبح لي اسم بين الكبار، وإن كان ضمن الحدود التي سمح بها، والتي لم أحاول يومًا أن أتجاوزها.

ولأن موهبتي حقيقية لم يكن صعبًا عليّ أن أكتب له بأسلوب يختلف عمّا أمهر اسمي به عند النشر.

في الوقت نفسه حافظتُ على سرّ أنني مَن يكتب مقالاته، لم أُفشِهِ لأحد كان، حتى يومنا هذا. للحق، لم أكن متذمرًا من وضعي الذي عليه حسدني أغلب أبناء جيلي. ولكن ظل يداعبني حلم كتابة الرواية على خطى محفوظ والسباعي وإدريس. كنت أعلم أنني أكثر موهبة من كثيرين اشتهروا لو أُتيحت لي الفرصة. وبالفعل عكفت على كتابة روايتي الأولى على مدار عامين كاملين. اخترت أن تكون تاريخية تدور في حقبة المماليك وصراعاتهم. خلطت فيها شخصيات حقيقية بأخرى من نسج الخيال، تتفاعل جميعًا في دراما لا يستطيع القارئ أن يميز فيها بين الحدث التاريخي والإضافة الروائية.

يوم انتهيت من كتابتها لم أستطع الصبر على نسخها، فذهبت بالمسودة الأصلية والوحيدة إلى الأستاذ. قدمتها له راجيًا منه أن يقرأها ويقيمها وإن لاقت قبوله أن يرشحها إلى مسئولي دار النشر التي تصدر صحيفتنا ليتولوا إصدارها. مرت أشهر دون أن يشركني رأيًا، بينما كنتُ أستحي استعجاله. ظننتُ أنها ربما لم تعجبه، وأنه لا يريد إيذاء مشاعري برأي سلبي فاكتفى بالصمت والتجاهل. وفي

أحيـان أخرى كنت أتخيّـل أن تكون الرواية قد أعجبتـه، وأنه بدلًا من مدحي، يحضر لي مفاجأة سـارة، قد تكون نشرها في كتاب يصدر عن الجريـدة. وقـد تحقّق جزء كبير ممّا ظننته، إذ وجدتها بالفعل منشـورة دون زيادة أو نقصان أو تعديل أو تبديل، إلا اسم الكاتب الذي وجدته قد صار اسم الأستاذ الكبير.

سيظن البعض أن ما حدث قد أدى إلى مواجهة اتهمته فيها بالسرقة وهددته مثلًا بفضح سـره وكشـف زيفه، لكن هـذا الظن خاطئ تمامًا، فلـم يحدث أن تناقشـنا في الموضـوع أصلًا، بل إننـي تطوعت بكتابة مقـال نقدي طويل نُشـر على صفحـة كاملة أثبت في سـطوره حصافة الرجل ومهارته الروائية التي كبلتها سـنين تركيزه في كتاباته الصحفية. ذيّلـتُ المقال بتهنئة واحتفاء بوصول روائي من العيار الثقيل سـيحتل الصدارة دون شك. لم أكن الوحيد الذي تشدق بروعة الرواية وحسـن صنعتها، إذ أجمع النقاد على براعتها، حتى خصومه أشاروا إليها وإلى أهميتها واعتبروها إضافة متفردة إلى الأدب العربي كافة.

- عايزين نكتب رواية جديدة بقى!

كان هـذا طلبًا، أو أمرًا، أصدره بينما كنـتُ أجلس إلى جواره على متن الطائرة المتجهة بنا إلى إحدى الدول لحضور معرض كتاب دولي تقـوم بتنظيمه سـنويًّا. أردت أن أثـور، وأن أصرخ عاليـًا داخل الطائرة التي بدأت في الإقلاع، أن أعلن لكل الموجودين أن هذا الرجل الذي يجلس مطمئنًّا سـعيدًا إلى جواري هو لص وسارق إبداع. حين دعاني

لمرافقته تصورت أنه يحاول أن يعوضني عن استيلائه على روايتي، وحين سمعت طلبه علمت أن صفاقته بلا حدود، وأنني لا بد وأن أخرج من ظلال غبنه مهما كلفني ذلك.

كان اليومان اللذان قضيناهما في معرض الكتاب مليئين بالقسوة. كنت أتعذب وأنا أراه يوقع روايتي، ويتكالب عليه المعجبون، وتدار له الندوات التي يتحدث فيها بإسهاب، يثير الإعجاب، عن فكرة الرواية وكيف جاءته، ومجهود البحث التاريخي الذي بذله. الأضواء كلها مسلطة عليه والنظرات المصوبة نحوه يملؤها الإعجاب، وأنا في ظله كالشبح أجهز له النسخة التالية التي سيقوم بتوقيعها. فهمت لمَ يُطلق على أمثالي الكاتب الشبح! لأننا غير موجودين مهما حاولنا الظهور وغير مسموعين مهما صرخنا. ينتهي دورنا مع نهاية آخر كلمة في الرواية وإن سُمح لنا، فمن الممكن أن نشهد النجاح من وراء الكواليس دون أن نشارك في الاستمتاع به.

الأمسية الأخيرة كانت مخصصة لتوزيع جوائز الرواية لذلك العام. وكانت روايتي، أقصد رواية الأستاذ، ضمن خمس روايات مرشحة للجائزة. حين وصلنا إلى القاعة رافقوه إلى مقعده في الصف الأول، في حين جلست أنا في آخر المقاعد الخلفية. توالت الكلمات من المستضيفين قبل أن تجيء لحظة إعلان الفائز بالجائزة الكبرى. أعلنوا فوز روايتي، فذرفت الدموع كيوم دفنتُ أبي.

لم أنتظر حتى انتهائه، وغادرت القاعة إذ لم تعُد بي قدرة على التحمل، وفي طريقي للفندق واسيت نفسي بأن الرواية برغم جودتها

لـم تكـن لتفوز لو أن اسـمي هو الـذي كان يزين غلافهـا. أظنني كنت أحاول أن أعطي الأستاذ سببًا شرعيًّا لفوزه.

وكما في الروايات وقصص الأفـلام القديمة، انزويت عند عودتي للفنـدق في ركن بعيد. تتابعت السـجائر تشـتعل بضراوة مـا بين يدي وفمي. لا أسـتطيع وأنـا صاحـب الموهبة الفـذة في نسـج الكلمات، أن أجـد كلمات مناسـبة تصف ما شـعرت بـه تلك الليلـة. امتدت بي جلستي في ذلك الركن حتى ساعات الصباح الأولى حين قطع صوتها خلوتي:

- ممكن سيجارة!

نظرت نحرها، فوجدت سيدة سـتينية شـديدة التبرج، تقف أمامي منتظـرة ردي علـى مطلبهـا. سـارعت بإعطائها مـا طلبـت، فوجدتها تشعلها وتجلس دون دعوة إلى جواري.

- إيه اللي مسـهرك لغاية دلوقتي.. وإيه كمية السجاير اللي دخنتها دي كلها؟

قـد تكـون هذه نهاية مشـوقة للمشـهد فيها إغاظة للقـارئ وتحفيز على الاسـتمرار في القراءة، لكنني لن أتوقف هنا لأن ما تلى ذلك كان أقـرب إلى الخيال المحض، الخيال الذي لم يسـتطع المؤلف تطعيمه بمحفزات الإقناع فتركه خيالًا يصعب قبوله. .

ما تلى ذلك أنني حكيت لها عن الأسـتاذ وعن سرقته للرواية وعن فوزه بالجائزة وعن ضجري من الاسـتمرار في ظله. ظللت أشـكو لها

دون توقف بينما الدموع تبلل وجهي وهي صامتة تهز رأسها متأسية كلما وجدت ذلك مناسبًا. حين انتهيت ربتت كتفي واستمرت تواسيني. وبعد أن استعدت هدوئي، ذهلت أنني حكيت مأساتي لامرأة لم ألتق بها إلا صدفة قبل أقل من ساعة. شعرت تجاهها بإحساس الأمومة، كانت تواصل تربيت ظهري وتقوم باحتضاني كل فينة وأخرى.

انتهى لقاؤنا ومعه مشاعر الأمومة العابرة التي راودتني حين دعتني إلى غرفتها لأضاجعها. حين انتهيت منها أو لنقل انتهت هي مني همست في أذني:

- خلص روايتك الجديدة، وأوعدك إنك هاتكسب الجايزة.

أنا الأقل إنجازًا بينهم، فكل منهم له إنجازاته ونجاحاته التي أفلح بسببها أن يحوز على وصف يتبوأ به مقامًا على وزن أفعل التفضيل أو الأكثر إفعالًا أو أي من صيغ المبالغة في اللغة العربية. أمين الأبرع، وهدى الأجمل، وكريم الأذكى، وإبراهيم الأكثر إبداعًا، وعزيز الأقوى، وناديا فيما أظن ستحوز على لقب الأمثل أو الأكثر مثالية.

تُرى كيف يرونني؟ الأخف ظلًا؟ ربما، وإن كان كل منهم له نصيب من ذلك. الأطيب؟ كلهم طيبون بلا شك، والأقرب أننا جميعًا متساوون في الطيبة، فلا يتفرد أحدنا دون غيره بهذه الصفة. أي مقارنة أعقدها بيني وبين أيهم، أو بيني وبين أي شخص في حياتي أجدني متذيلة خاسرة. لعل ذلك ما جعل ملاذي الانسحاب ومحاولة الاختفاء وسط الجموع!

لعلي أكون عايدة العادية، أو الأكثر توسُّطًا، أو أي وصف يوغل بي العادية ولا يوحي بتفوق من أي نوع!

أكثر واحدة منهم بلا تفرد؛ مجرد إنسانة عادية بلا مزية. لعلي الأكثر ابتسامًا!

نعم يعجبني هذا الوصف: الأكثر ابتسامًا. وصف متفق أيضًا مع اللحظة التي أعيشها، مع نزول ورقة الولد تتوسط الأوراق الثلاث التي وضعها أمين. لحظة تفاءلت فيها أن تنتهي الليلة وأنا فائزة متفوقة. كانت بي رغبة أن لا أكون متوسطة بل أن أكون وربما لأول

مـرة متسـيدة. رغبة غالبـا نبعت من خنوعي طـوال حياتـي . الليلة لن أقبل سـوى أن أكون رقم واحد؛ الليلة سـأجعلهم يـرون عايدة القادرة البارعة. لم أعرف بنفسـي من قبل ذلك القدر من التنافسية ولا اعتدته ولكني وجدت فيه الآن شـعورًا لذيذًا قررت أن أسايره فتملكتني رغبة عارمة في الفوز.

أعرف تمامًا سـبب ضحكتـي في وجه الولد، فهـو الورقة الحادية عشـرة فـي أوراق الكوتشـينة، الورقة التي تصـرخ بفرديتهـا. كما أنها الورقة التـي طالما ذكّرتني بالحبيب الغالـي "خليفة"، ورفيقي ونصيبي مـن هذه الدنيا. ربما ولـوج خليفة إلى مخيلتي زاد إرادة الفوز بداخلي إذ أردتـه أن يفخـر بي وأن يعرف أني قـادرة على تبوء منصب لا يخطر على باله أن أناله.

لست الأبرع بالتأكيد في وصف، ونقل المشاعر، لكن كل ما أستطيع نقله أنني حين رُزقت بخليفة تحولت إلى كتلة من الأحاسيس المرهفة الموجهـة نحـو ذلك الكائن الذي خرج من أحشـائي، ولـم ينسَ وهو يخرج أن يأخذ معه مفتاح خروج آخرين من حيث أتى!

أصبحـت عيشـتي مـن أجـل خليفة فـي البيـت الذي صـدرت لي تعليمات بأنني لسـت بسيدته منذ اللحظة التي وطأت فيها بوابته. فقط من أجل ابني. اسـتطعت أن أفرغ شـحنة العواطف التي اشـتقت إليها ولـم أجدهـا مـن أب أو أم أو أخ أو زوج، في الطفـل الذي عوضني به اللـه. أصبحـت حياتي بكاملها تتمحـور حوله، وأنـا لا أدري أنه حين يشب سيشحّ عليّ هو أيضًا بما حُرمت منه من شعور الحب.

انشغلت به وهو رضيع، فلم ألحظ اختفاء فهد عن حياتي. ظننت أنه يعزف عني مفضلًا أن أكرس وقتي لمولودي الوحيد، ولكن جفاءه طال واستمر. ومع هذا الانسحاب بدأوجود أم عبد الله يطغى على كل شيء، كانت تتدخل في كل كبيرة وصغيرة تخصني وتخصُّ طفلي. حاولت المقاومة السلبية، كتلك التي انتهجها غاندي في صراعه؛ مقاومة الصمت والسكوت. ومع الوقت بدأت أحاورها ففوجئت بها طيبة القلب بصورة لم أتوقّعها. تحول الأمر من سخط وحزن إلى قبول مني بعد أن لمست فيها أمومة ضنّت عليّ بها أمي الحقيقية. اكتشفت في ابنة عم فهد وزوجته الأولى نفس الغلبة من أمرها التي جعلتنا نتشارك الرجل والبيت. قرّبت بيننا الأخوة التي تجمع أبناءنا، وأننا قد نكون لبعضنا المعين في الصبر على حياة لم تحلم بها أي منّا حين كنّا صبايا ومراهقات.

صبرتني حكمتها على القبول والرضا، حين ضم فهد إلينا الثالثة والرابعة، ليكتمل صف زوجاته وتضيق بهن جدران المنزل.

- خلينا في أولادنا يا عايدة.. انسي فهد لأننا مش على باله أصلًا!

ثم قدمت لي حكمة اتخذتها زوادة لحالي سنين مقبلة:

- ما تدققي كتير، اللي ما تعرفينه لا يؤلمك!

حقًّا، ما لا نعرفه لا يمكن أن يؤلمنا. طوّرت أنا هذه الحكمة وجودتها لتصبح: ما لم ترَهُ لا يؤلمك!

مددت يدي لآخذ رشفة من كوب الماء أمامي، فاستعدت وأنا أبلل حلقي الجاف ذكرى رشفة الماء التي ظمأت إليها، فكانت سببًا جعلني أرى ما آلمني. أغمضت عيني، أحاول أن أطرد ما يمور في ذهني من ذكرى ظننتها دُفنت في غياهب الماضي. لم أستطع إلا العودة إلى تلك الليلة التي عدتُ فيها من القاهرة بعد جنازة أمي. قبل وفاتها بأسبوع غادر خليفة إلى أمريكا لبدء دراسته الجامعية، فلم يتمكن من أن يكون معي في القاهرة. أملت بسذاجة أن يعرض عليّ فهد مرافقتي، لكنه اكتفى بكلمات عزاء جافة خاوية من أي اهتمام حقيقي. عوّضت أم عبد الله بروده بإصرارها على الحضور والبقاء معي لثلاثة أيام بالقاهرة.

لماذا سأعود؟ حيرني هذا السؤال وأنا أجلس على مقعد الدرجة الأولى في طائرة العودة إلى منزل يخلو ممّن أمضيت حياتي في تربيته. هل أعود إلى زوج لا تجمعني به سوى ورقة الزواج، بعد أن فقد اهتمامه، بل فقد إدراكه لوجودي؟ أم لعلي أعود فقط من قبيل اعتيادي لحياة بلا طعم أو رائحة؟ أم أرجع لأنني لا أعرف سبيلًا إلا العودة ولم أفكر يومًا في البديل؟ أبي وأمي لم يتعاطفا يومًا معي واختارا دائمًا، حتى يوم رحلا، أن يتهماني بالمبالغة وأن يصيحا في وجهي كلما حاولت الشكوى بأن كثرة التذمر تقوض بيتي، وتهدد استقراري وحياة ولدي.

وصلت البيت بعد منتصف الليل وصعدت إلى غرفتي. بعد أن أبدلت ثيابي، وقبل أن ألجأ إلى فراشي شعرت بالظمأ. ومثل فنادق

الخمس نجوم طلبت رقم خدمة الغرف كي يأتوني بالماء، فلم يجبني أحد من مجموعة الخدم. حاولتُ عدة مرات أخرى، ثم ترددت قليلًا وكدت أغوص في فراشي وأتجاهل عطشي وأغرق في نومي، لكن ظمئي الشديد دفعني للنزول لأحضر كوب الماء. وفي المطبخ فتحت الثلاجة وأخرجت الزجاجة واستدرت كي أغادر، لكنني سمعت أنينًا مكتومًا غامضًا يأتي من حجرة الخادمة. أنين متواصل يتحول إلى صرخات استغربتها أذني. اقتربت من حجرة الخادمة يساورني قلق أن تكون مريضة تحتاج إلى مساعدة وكلما اقتربت زادت حدة الصرخات المتكررة:

- آه.. آهه.. آههه..

دفعتُ الباب، ولم أتبين شيئًا في ضوء الغرفة الخافت للوهلة الأولى، ثم وضحت تفاصيل المشهد: جسد فهد المترهل يرقد فوق الخادمة الأسيوية العارية. لم يلتفت نحوي ولكن عيون خادمتي تسمّرت وهي تراني أقف عند الباب فانقطعت آهاتها.

لا أدري كم مكثت هناك، ولا أتذكر سوى وجهها الممتلئ بالذعر ويدها التي تحاول دفع الجسد الجاثم فوقها، فلا يزيده دفعها إلا ضراوة فيما يفعله. لا أتذكر أيضًا كيف عدت إلى غرفتي. ما أتذكره أنني لم أذرف دمعة واحدة. لم أنم ليلتها، وأنا أحاول أن أجد أي نوع من الشعور بداخلي. الإحساس الوحيد الذي تملكني كان الخواء التام؛ خواء الصحاري الخالية.

حين واجهته بطلبي في الصباح رد عليّ باقتضابه المعتاد:

- ما عندنا طلاق.

واصلت مطلبي كل يوم، ولم يتغير رده. إلى أن فوجئت بخليفة يعود من أمريكا بعد أقل من أسبوع فأدركت أنه استدعاه.

- إنتي ست عاقلة يا أمي وعارفة إن طلبك مو منطقي.

أردت أن أحكي له، ولكنني قررت ألا أهز صورة أبيه في ذهنه. ترددت أن أحكي له ما فهمته بعد سنين من أسباب ترك زينب مربيته للبيت قبل سنوات دون أعذار أو إنذار. أدركت دون أن يحكي لي أحد أن فهد قد صرفها بعد أن نال مراده منها. كدت أتقيأ وأنا أتخيل طابور الأسيويات اللائي تلينها وصُرفن من بيتي دون أسباب منطقية لطردهم. استمرّت مجادلاتنا، أنا أخبره بضرورة طلاقي وهو يصرّ على أن العيب فيما أطلب، إلى أن فاجأني قائلًا:

- أبوي ما ارتكب معصية، هذي مرته يا أمي.

أطلت النظر إليه، فرأيته غريبًا عني، ملبسه ولكنته وحتى تفكيره، كلها غريبة عني وعن عالمي الذي جئت منه. تمدد التصحّر في داخلي، وأدركت لأول مرة أن حتى طفلي الذي أفنيت عمري لأجله لن يشعر يومًا بما عانيته سنوات في صمت. صارت ملامحه شديدة الشبه بأبيه. حاولت أن أجد فيه شيئًا مني، أو من الوطن الذي جئت منه فلم أجد غير الغربة. رغمًا عني، سالت على وجنتي أول دموعي منذ

تلك الليلة. لكن دموعي لم تُلن قلبه، فواصل محاولات إقناعي بأن ما فعله أبوه يبيحه الشرع، وأن ما عليّ إلا التروي والهدوء.

أعيـد التفكيـر فـي قصتـي، وأحـاول أن أراهـا مـن بعيـد كأنهـا لا تخصني، فلا أرى سوى قصة سيعدها الناس عادية خالية من المفاجأة والإدهاش. هكذا تعودت أن تكون ردود أفعال أبي وأمي، ومن بعدهما ابني ووحيدي؛ الجميع يرى ما حلّ بي عاديًا لا يستأهل الشـكوى ولا المقاومة. كل مَن حولي ما عدا تلك الطيبة أم عبد الله. أظنها تحرّكت مـن أجلـي وقودها ما مرت هي بـه. أخذتني من يـدي وذهبت بي إلى حيث قبع فهد في ديوانيته، وزمجرت في وجهه:

- طلقها يا فهد!

رفع رأسه نحوها ففوجئت بانكسار في وجهه لم أرَهُ منذ رأته عيناي ذلك اليوم البعيد في لندن. تنحنح قليلًا قبل أن يرد:

- بنشوف.. بنشوف!

أؤمن أن الولد هو أقوى أوراق اللعب. قدموا عليه الملك والملكة ربما احترامًا للسن، ولكنه يبقى دائمًا أكثر فتوة ونضارة من كليهما. أظن أن كثيرين آخرين يشاركونني هذا الاعتقاد، حتى إن هناك مَن صمّم لعبة تعبر عن قوته أسماها "الولد يقش". أمّا قوة "الآس" أو الورقة الأولى، فقد اكتسبتها تلك الورقة فيما أظن بالصدفة، ودون مسببات حقيقية، اللهم إلا ورطة وقع فيها مَن سنّ قوانين البوكر، وبعض الألعاب الأخرى حين أراد إضافة بعض الإثارة.

لذلك شعرت براحة كبيرة وأنا أجد الولد مجاورًا "الآس" بين يدي. أحمل الأقوى كما أراه، والأقوى كما يراه بقية العالم، وكل منهما يحمل العلامة التي لا تقهرها أخرى. حين انكشفت ورقة الملك بين الأوراق التي استقرت على الطاولة أحسست أنني أصبحت مسيطرًا على كل أسباب القوة.

نجحت طوال حياتي في أن أحوّل الولد القوي الذي بداخلي إلى ملك. فلم يعجبني كثيرًا أن يكون الملك ملقًى على ظهره هكذا وسط المنضدة. تسارعت إلى ذهني ذكرى لم أستطع محوها يوم أُلقيت على البساط وتحطمت عظامي. ظنّ مَن حولي أنه لا قدرة لديّ على الوقوف من جديد؛ لكنني نهضت، بل لعلي تعملقت رغم الحرب التي شُنّت ضدي. والذين حاربوني كانوا هم الذين ظننتُ أنهم سيأخذون بيدي ويقفون إلى جواري. لن أقول طعنوني ولن أستخدم أيًا من هذه

المبالغات الدرامية، ولكنهم ،كل بطريقته، لم يثمّنوا قدراتي ويعطوها ما تستحقه، وحاولوا دومًا الحطّ من مواهبي التي ظنوا أنها محصورة في عضلاتي وقوتي البدنية.

- خلاص مفيش ملاكمة تاني.. إلا لو عايز تموت!

جملة تلفّظ بها أبي بينما كنت ممددًا في سرير المرض، أعرف أن محبته وحدها هي ما دفعته لينطق بها، ولكنها ألقت بي إلى مرحلة في حياتي فقدت معها الرغبة والهدف. وخلال تلك الفترة القاسية، أمضيت ثماني سنوات طالبًا في كلية التجارة قبل أن أنجح في التخرُّج أو لعلها اتصالات أبي بأساتذتي هي التي نجحت في التعجيل بتخرجي. نفوذ العائلة سمح لأبي بهذا التأثير، خاصة مع تعاظم سمعتنا في مجال الأعمال الذي تسيدنا قطاعًا منها مع انفتاح الاقتصاد.

كانت مقدراتي قد أفلتت من قبضتي، فانضممت إلى شركات العائلة بعد حصولي على إعفاء الخدمة العسكرية بسبب جمجمتي المكسورة. اختارني أبي نائبًا له بقرار لا يقبل النقاش أو المجادلة، وإن شمل القرار كلمة "ثانٍ" حفاظًا على مكانة أخي الأكبر في تسلسل القيادة. لا أدعي أنني أقبلت على العمل، أو أنني رغبت فيه أصلًا، لكني صرت متواجدًا. لم أحاول كثيرًا أن أتفهم طبيعة الصفقات التي كانوا يعقدونها، وإن رأيت أن باستطاعتي تحسين أساليبهم.

- واحدة واحدة يا عزيز!

كان هذا هو ردهمـا، أبي وأخي، كلما اقترحت عليهما جديدًا فيما يخص أعمال الشـركة. كلما تحمّستُ لفكرة ما وأردت إرشادهما إلى طـرق أفضل في تنفيذها، تعاملا معي كأنني لم أفهم بعد وبشـكل جيد فـي هـذه الأعمال، كأنها معضلة اقتصاديـة لا يفهمهـا إلا معدودون. رفضا أي إسـهام لي في الأعمال التـي بدآها صغيرة حتى صارت على أيديهما إمبراطورية واسـعة وممتدة. لم يعجبهما طلبي بأن نكون أكثر حزمًا أو عنفًا مع المتعاملين مع الشركة وفضّلا ما اعتاداه من لين رأيته فـي كثيرٍ من الأحوال ضعفًا وقلـة حيلة. ثم كان اليوم الذي طلباني فيه لاجتماع بدأه أبي وأنهاه بنفس الجملة:

- أنـا عايـزك تفكر في مشـروع لك لوحـدك واحنا ها نمولـه.. أنا وأخوك ها نتولى باقي الشغل.

أعجبنـي العرض، ووجدت في ذلك فرصتـي لإثبات قدراتي التي تشكّكا بها، وبدلًا من المشروع الواحد تواردت على رأسي أفكار عدة لمشـاريع كثيرة في مجالات غير مرتبطة. طالت مناقشاتنا مع كل فكرة أطرقها، ومضت السنوات دون أن أشرع في تنفيذ أيٍّ منها. ظل حسابي البنكـي يُتخم شـهريًّا بمخصصاتي المالية، ويرتفع سـنويًّا بنصيبي من الأرباح، بينما كنت لا أزال أدرس فكرة مشروعي التالي.

لم تنتظرني هدى وأنا أتعثر في دراسـتي. انطلقت في طريقها الذي ما كنت لأوافق عليه لو اسـتمرت علاقتنا. لم تكن لقصتنا نهاية قاطعة ولا وداع يبكي فيه أحدنا ويصر الآخر على موقفه. لكننا انتهينا دون أن

نعلـن أو نناقش. بدا كما لـو أن ما بيننا لم يكن يومًا؛ انقطعت اللقاءات وشحت المكالمات واختفت المشاعر. تمالكت نفسي في تلك الفترة، ولـم أحـاول أن أحفظ الوصال، فلم أعتد يومًـا أن أطارد مَن يفضل أن يبتعـد. فصل النهايـة في قصتنا تلون بألوان باهتة محت ما كان بعلاقتنا من سطوع. لعل ما ساعد على هذه النهاية غير المثيرة تلك المغامرات النسـائية التي خضتها دون تردد. سـهّل لي ثرائي وجسـدي الممشوق المغامرة تلو الأخرى، فتيات يحببن الحياة وينفتحن على التجربة دون خـوف، كل منهن تنتقل بيـن أحضان أمثالي ممّن يستطيعون توفير ما يحلمن به من ترف.

بالغـت الحياة في إمتاعي، فأدمنت السـهر وأصبحت من مشـاهير مجتمـع القاهرة الليلـي. بدّلت سـياراتي كأنني أبدل ملابسـي مع كل موسـم لون جديد وشكل جديد. وانقسـمت الأشـهر قسمة العدل بين وجودي في مصر وأسـفاري إلى أورُبا وأمريكا. أصبح يُشـار إلى أنني ممّن يعيشون حياتهم "بالطول والعرض".

حتـى باغتتنـي وفاة أبـي دون مقدمات. أيام عصيبـة مضطربة. بعد العـزاء الكبيـر الذي أقمناه اجتمعـت بأخي وأمي نتناقـش في الإرث. فاجأنا أخي، وقال:

– مفيش ميراث!

وعلـى عكـس الدهشـة التـي أصابتنـي، لـم ألحـظ لـدى أمي أي استغراب، بينما يستطرد:

- المرحـوم وزّع علينـا كل حاجة في حياته.. الأموال السـايلة في البنوك بـس هي اللي ها تتوزع، وإن كنت شـايف إني أنا وانت يا عزيز نتنازل عنها لماما.

وافقـت علـى اقتراحه قبل أن أكتشـف أن أبي لـم يعـدل في تركته. إذ ترك لي نسـبة قليلة من أسـهم الشـركات، وظن أنـه بذلك يعوضني بتفضيلـه لـي فيما ترك مـن أملاك. حيـن تفكرت حينـذاك لم أمتعض كثيرًا، ووجدت في ذلك حرية أكبر فيما صار تحت يدي من ثروة.

لم تمر سـنوات طويلة قبل أن تحدث المواجهة الكبرى بيني وبين أخي. إذ طلب مني زيارته لأمر هام، فذهبت إلى مكتبه الفخيم قبل أن أذهب إلى إحدى سهراتي.

- عندنا عرض من شركة أجنبية عايزة تشتري أسهمنا!

- وانت موافق؟

- القرار صعب طبعًا، بس أنا شايف إنه عرض ما يترفضش.

- بيع انت، أنا مش هابيع.

- لـو أنـا بعت لازم انـت تبيع، وإلا بعد وقت قصير أسـهمك مش هايبقـى لهـا قيمـة.. هايرفعـوا اسـتثماراتهم وهاتبقى أسـهمك قليلة، ومش هايحتاجوا يشتروها.

- إنت حر في أسهمك.. أنا مش هابيع، وهاتشوف إن قراري صح، وإني هاقدر أجيب قيمة أعلى بكتير من اللي انت اتفاوضت عليه.

- اسمع كلامي وبلاش عِنْد.. أنا عارف اللي بقوله.

- طول عمرك إنت وبابا شايفين ماليش لازمة، هاثبت لكم إني بافهم أحسن منكم، عايز تبيع بيع! أنا مش هابيع وهاستمر معاهم.

لم أُعطه فرصة كي يطيل المناقشة، ولم أستجب لمحاولات أمي التي أوصاها بمحاولة إقناعي. ظننت وقتها أن عدم بيعي سيوقف الصفقة، فلم يصدق توقعي.

أخذت أتمعن من جديد في ورقة الولد الملقاة على ظهرها فوق بساط الطاولة الأخضر. لم يعجبني استلقاءه في استسلام وإن طمأنني قرينه الذي بيدي أنني أسيطر على الموقف. طرق صوت مدربي القديم طبلتي أذني وهو ينصحني بالتريث وعدم الاندفاع، فقررت أن أجرب نصيحته التي لا تتفق مع طبيعتي. كنت أعرف أن موقفي قوي، ولكني قررت أن أراوغهم قليلًا، وأن أظهر في صورة لم يعتادوها فأبديت ترددًا وحيرة غير حقيقيين. قلتُ:

- باص.. دورك يا هدى!

شعرت بثقل شديد حين مرّر عزيز لي الدور. تحوّلت نظراتُهم نحوي تستحثني أن آخذ قرارًا. لم أستطع يومًا أن أتغلب على شعورعدم الارتياح الذي يتملكني حين تتوجه إليّ الأنظار. شهرتي الكبيرة ونجوميتي الساطعة لم تساعدني على اعتياد أن أصبح محطًا للأعين أينما كنت.

أمعنت النظر في الأوراق التي بين يدي. لم يكن بي أي تركيز في اللعبة، إذ ازدحم ذهني بالكثير ممّا لا علاقة له بأوراق اللعب. بعد مدة ظننتها مناسبة رفعت رأسي وفعلت ما فعله عزيز، قلت:

- دورك يا ناديا.

هدأتُ قليلًا واستعدت تركيزي حين ذهبتْ عني الأعين وصُوّبت نحو ناديا التي كانت تجلس إلى جواري بحسب الترتيب الذي اختاره أمين دون إعلان أسباب. ورغم ذلك تلفتُّ حولي في محاولة للهرب من نظرات لم تعُد مصوبة نحوي. وقعت عيني على أركان الشقة وقد بدت لي جديدة، غيّرت جلدها هذه الليلة. بدا واضحًا أن الحوائط مدهونة حديثًا بلون غير محسوم بين الرمادي والبني الفاتح. لون محايد يعطي فرصة لبروز ما تعلق على الجدران من لوحات تشكيلية انسابت فيها الألوان، كلٌّ لوحة تُسلّم الأخرى في تناسق يدفع الناظر لحيرة بين عبقرية مَن رسم وألمعية مَن قام بالاختيار والترتيب. أحببت تشكيلات الزهور التي ملأت جوانب المكان، وقد ظهر قصد

مـن وضعها أن تغـازل ألوانها الطبيعيـة ألوان اللوحـات المعلقة على الحوائط.

بـدا لي المـكان لوحـة مرسـومة بعناية وتدبـر، وإن لـم أسـتعجب ذلك التنسـيق الذي يبدو بسـيطًا ولكنه يحتاج مجهودًا شـديدًا، ويبدو أنه تكلف كثيرًا. هذا ذوق أمين الذي يعبر عن شـخصيته؛ بساطة غالية الثمن، مُعتنى بكل تفصيلة بها. تسللت إلى وجهي أول ابتسامة حقيقية غير مفتعلة منذ بدأت السهرة، بسبب هذا الجمال الأخاذ الذي يحيطني ويترسب داخلي.

الجمـال هـو عنوانـي ووقود حياتـي. لـم أرَهُ يومًا نقمـة كما يحلو للبعض فلسـفة الأمور رغم بسـاطتها، نعمة حباني الله بها؛ نعمة فتحت لـي الأبواب ويسّـرت لي حياة لن أقـول يحلم بها الكثيـرون، بقدر ما حلمت أنا بها فدان لي أغلب هذا الحلم.

نعم عانيت أحيانًا، ولكني استمتعت وانطلقت وحققت الكثير.

أعلـم أن جمالي يثير غيرة بنات جنسـي، ويجعـل أغلبهن بلا رغبة فـي التقـرب منـي ولكني اعتـدت ذلـك. طالمـا وجـدت صعوبة في مصادقـة الأخريات، والقليـلات اللواتي اقتربت منهـن انتهت الأمور بيننـا نهايات غير مرغوبة. لـم أخطئ في حق إحداهن، ولكنهن اخترن أن أكـون غريمة لا حليفـة. لم أخرج بصديقات حقيقيات سـوى ناديا وعايدة اللتين أظنهما لا يقلقهن، بل لا يلحظن طغيان بهائي.

أمّـا الرجـال فقد انقسـموا. جميعهـم يعجبون بي، ولكـن أكثرهـم يتوقفـون عند حد الإعجاب، يخافـون الاقتراب إلى أدنى من ذلك، إذ

يعتقدون أنهم لا يملكون مقومات السماح بهذا الاقتراب. لا يحاولون المغامرة، يتوقعون أن تسفر المغامرة عن لطمة قاسية ممّن يظنون أنها لـن تضع لهم اعتبارًا من الأساس. والذين كانوا أكثر ميلًا للمغامرة، وهم الأقل عددًا، حاولوا، لكن محاولاتهم كانت غير مثيرة ولا ملهمة بالنسبة لي. أغلبهم يعتقدون أنهم أصحاب ذكورية طاغية، لا بد أن تجعل الأنثى التي يراودونها تستسلم مع أول إشارة منهم، تمامًا كما لو كنا في موسم تزاوج لفصيل من الحيوانات في غابة برية.

في أحيان كثيرة، أردت أن أصرخ أن لديّ محاسن كثيرة غير تقاطيع وجهي وتقاسيم جسدي. وددت لو أن بمقدور الأعين أن ترى جوهر الروح بنفس قدرتها على الإمعان في تفاصيل الجسد. أعلم أنني لست بعبقرية كريم وألمعية أمين وإبداعية إبراهيم، ولكني أعرف أيضًا أنني أفكر، وأنني أقرأ، وأن لديّ آراء ذات وزن، وبي ذكاء كافٍ لأن أجعل مَن حولي ينصتون ويتناقشون ويستمتعون بصحبتي. كم أردت أن أزعق بأني لست فقط هذا الوجه الجميل أو "القمر" كما يقولون، لكنني أيضًا ذات عقل وروح يستأهلان الاستكشاف.

أعاود النظر حولي، بينما هم منشغلون باللعب، فأرى جمال المكان يختلط بمشاعر الحب التي أكنها لهؤلاء جميعًا، مشاعر دافئة فياضة لا أشعر بوجودها إلا بينهم. بينهم أشعر بحريتي فأكون هدى الحقيقية دون أقنعة النجومية. أحبهم جميعًا حبًّا جارفًا، حتى إن جرحني أحدهم أثناء الرحلة التي بدأناها سويًّا كزملاء مدرسة. أحبهم وأجد لكل منهم بصمة وفضلًا فيما وصلت إليه.

كيف أنسى فضل كريم وهو يفاوض أبي ويحاول إقناعه بإلحاح شديد أن يرسلني إلى لندن لدراسة التمثيل. أتذكر نظرات أبي لكريم وهو يتحدث بحماس عن أهمية تلك الدراسة. أسهب كريم في محاولة إقناعه بضرورة أن أمزج العلم بالموهبة وأن ذلك سيفتح لي آفاقًا جديدة. تعاطفت مع أبي وهو واقع بين براثن نظرة المجتمع آنذاك للفن والتمثيل وبين شغفي بتلك المهنة. تملكته الحيرة حين أسهب كريم في تثمين اقتراحه وأطال في مزاياه وهو يعلم أننا من نسل مجتمع وزمن لم يعتد سفر فتاة بمفردها من أجل الدراسة. لا ادري حتى الآن إن كانت موافقة أبي على سفري بسبب أنني سألتحق بنفس المدرسة التي تخرّج فيها لورنس أوليڤييه وچودي دنش، أم إنه رأى ذلك مخرجًا وحلًّا لإبعادي عن عزيز. لم يكن لديه قبول لعزيز، ومنذ أخبرته أمي أنه سيتقدم لخطبتي بعد تخرجي لم يشعر بالارتياح، وازداد رفضه بعد حادث اعتداء عزيز على المخرج المسرحي:

- الولد ده بلطجي.. اقطعي علاقتك بيه!

في النهاية وبعد مجهودات مكثفة من كريم اقتنع أبي، لكن عزيز هو مَن رفض، بل قالها لي بعنف وخشونة:

- مفيش حاجة اسمها تمثيل، لو عايزة نكمل مع بعض تنسي موضوع التمثيل خالص.

لم يُدرك حينها، أن فتاة في مستهل العشرينات، مثلتُ أدوارًا صغيرة وشاركت في عروض أزياء، وقُبِلت في أشهر مدرسة للتمثيل

بإنجلترا؛ لن يتوقف طموحها عند الارتباط به. ظنني سأترك ما بدا مستقبلًا ساطعًا من أجل التواري خلفه زوجة مطيعة تنتظر عودته للمنزل يومًا بعد يوم.

نعم كنت أحبّه، وكنت على ثقة بأن حبّه لي سيجعله يقبل - ولو بعد حين - إصراري على تحقيق طموحي. ولكن حسبتي كانت خاطئة، وانتصر عناده على عاطفته. لم ننفصل بعد نقاش أو خلاف أو مشادة. فقط انطفأنا وغرُبت شمسنا وراء سحب اختلاف أحلام كل منّا.

بعد عودتي من الدراسة في لندن استمر صعود نجمي حتى جاء الدور على إبراهيم لكي يدفعني نحو القمة. كتب سيناريو فيلم روائي كبير فصّل فيه دور البطولة ملائمًا لي تمامًا. رسم تفاصيل الشخصية وهو يفكر فيّ كما قال لي فيما بعد، وحين عرض السيناريو على أحد المنتجين الكبار أصرّ أن أؤدي دور البطولة. لما عُرض الفيلم في صالات السينما توالت إشادات النقاد، وحزت على جوائز عدة وبُشرت جماهير الشاشة الفضية بمولد نجمة ستتربع على عرش الفن لسنين قادمة. توالت النصوص التي يكتبها إبراهيم وأؤدي أنا بطولتها. علا نجمانا معًا حتى ذلك اليوم الذي نسي فيه أننا أصدقاء ورأى بي سقوطًا لم أقبله حين تطوع بترتيب لقاء لي مع مَن ظنّ أنه قادر على ثمني. حين واجهته بتدني فعله راعني أنه لم يجد خطأ فيما أتى. وبرغم الإهانة والجرح الذي أصابني بسبب فعلته ما زلت أُكن له الحب والمودة، وإن نأيت بنفسي عن معاودة الاقتراب منه.

أميـن لعب دورًا فـي قصتي دون جلبة ودون حتـى أن أعلم. فضّل ألّا أعـرف مـا فعل لأجلي إلى أن اكتشـفت سـره مصادفـة بعد أن ظلّ دفينًا لـسنوات طويلة. لم أعلم الآن أن شركة الإنتاج التي تولت معظم أفلامـي، كان هـو ممولها. فقط اشـترط علـى مَن تصـدّر واجهتها ألا أعرف مَن يقـف وراءها. ومع صعوده في عالم الثروة والأعمال رصد ميزانيـات هائلـة لأعمالي طالما تعجّـب لها المحللـون والنقاد، وهم يستغربون جدوى البذخ الإنتاجي لتلك الأعمال.

سـنوات طويلة يعلو فيها نجمي، بينما ظل رفاقي هؤلاء يحيطونني كملاذٍ آمن، أشعر بينهم أنني على سجيتي، دون أقنعة.

أمـا ناديا وعايـدة، فهما مَن حفظتا سـري وكانتا خيـر صدر ومتكأ حين أوشكت حياتي "الرائعة" على الانهيار.

أدرت النظـر فـي وجوههـم مـن جديـد، وتحكّمـت بصعوبـة في دموعي التي كادت تنسـال على وجهي مع سـيل المشاهد التي ماجت بهـا الذاكرة. نعم، أسـتطيع الآن بعد أن تمرسـت وصقلت موهبتي أن أتحكـم في إيقـاف دموعي أو إسـقاطها غزيـرة فياضة متـى احتجت. ومضـت في عيني ذكـرى تلك اللحظـة التي ارتميت فيهـا بين ذراعي عايدة منهارة، تغمرني الدموع وأنا أصيح:

- مصيبة يا عايدة، مصيبة، أنا حامل.

ناديا

اسمي ناديا.. ناديا لا نادية!

هـذا ما أرغب في الصـراخ به في وجه إبراهيم حيـن يناديني بنادية ممعنًـا في نطق التاء ممزوجة بتنوين أكرهه. لا أدري لمَ اعتراني الغيظ الآن من مقابلته لي، على الرغم من مرور الوقت وانهماكنا في اللعب. أكـره دعابتـه تلك التي لم تتوقف منـذ أول درس نحو وصرف تعلمناه في المدرسـة والتي لم يكف عن مبادرتي بها عند أي لقاء. يعلم تمامًا كم يستفزني نطقه الخاطئ لاسـمي، وما يلي ذلك من ضحكات باقي الأصدقـاء حين يـرون وجهـي محتقنًا وعينـيّ جاحظتين وأنا أشـتعل غيظًـا وحنقًـا. لا يعون أهمية النطق الصحيح لاسـمي بالنسـبة إليّ. لا يسـتطيعون فهم الفـارق ما بين نادية الاسـم العربي المشـتق من كلمة النـدى وناديا المسـتوحى من معنى الأمل فـي اللغة الروسـية. طالما حاولـتُ أن تصـل إليهـم أهمية تلـك الألـف القابعة في نهاية الاسـم ورمزيتهـا كجسـر بين حضارتين امتزجت بهمـا دمائي. للحق أتعجب من نفسـي أنني وبعد هذا العمر ما زلت أُسـتَار من تلك التفصيلة التي يراها أكثر مَن أعرفهم من المصريين غير ذات قيمة.

المرة الوحيدة التي أغمضت عيني عن هذا الخطأ الهجائي وبكيت فـي صمـت، كان يـوم تصدر اسـمي نعي أبي فـي جريدة الأهـرام. لم يسـمح لي حزني أن أتوقف عند هذا الخطـأ. الخطأ الحقيقي في ظني آنـذاك كان رحيلـه المفاجـئ وهو يجلـس بيننـا نتناول إفطارنـا قبل أن

نتوجّه جميعًا إلى الشركة. في لحظةٍ ضحك وأخرى علت حشرجة صوته وتبعه أنين ضعيف، ثم صمت أبدي وسكون. بقدر ما حزنت على فراقه، بقدر ما غضبت منه حيث تركني دونما تنبيه أو إنذار.

أحاط بنا موظفو الشركة واحتضنوا حزننا فخففوا بوجودهم حولنا صدمة رحيله. رأيت في التفافهم حولنا ردًّا لجميل أبي الذي تعامل معهم دائمًا باعتبارهم عائلته. رغم تماسُك أمي في مواجهة المصيبة لكنها بدت ضائعة مضطربة فيما يجب أن تفعله، فهي الأجنبية الغريبة عن عادات المجتمع الذي تزوجت أحد أبنائه. أشاروا علينا بضرورة نشر نعي في الأهرام يتناسب مع مكانة أبي، وشدّد أحد موظفي الشركة على ضرورة نشر النعي قائلًا:

- اللي مانزلّوش نعي في الأهرام يبقى ما ماتش.

لم نجد أسماء كثيرة لكتابتها في النعي، فقد فقد أبي والديه وأخاه الوحيد منذ سنين بعيدة. حاولت أن أتذكر اسم ابن عمي الذي لم أرَه منذ كنت طفلة فلم أستطع. تذكرت فقط أنه هاجر إلى أستراليا ولم يعُد منذ وفاة والده. وافقت أمي على عدم نشر اسمه في النعي فاكتفينا بإعلاننا أن العزاء سيقتصر على تشييع الجنازة. دفنّاه وعدت أنا وأمي إلى البيت الموحش بغياب رجله الوحيد، وأغلقنا أبوابنا على أنفسنا لنحزن بعيدًا عن الأعين المتربصة.

بعد نحو أسبوع أو أقل، دق جرس الباب معلنًا عن وصول إنذار قانوني للأستاذة "نادية". فكرت ألا أتسلمه بحجة أن الاسم المكتوب



بـه خطأ، ولكن أخذتني الشفقة بالموظف البسيط الـذي أحضره ألا يفهم من الأساس سبب اعتراضي. لم أفهم وأنا أقرأ الخطاب لماذا قد تنذرني المحكمة ولا فهمت معنى كلمة "إعلام وراثة" التي عنونت الورقة المختومة.

استدعيت محامي الشركة لنستطلع رأيه، أنا وأمي، ونحاول أن نفهـم مـا يحتويه الإنـذار، فقال إنه مجـرد إجراء قانونـي خاص بإرث الوالـد، وإنه كان ينتوي البـدء بإجراءات إصداره، لكنـه فضّل التريث حتى تنتهي فترة حدادنا.

ردت أمي بلغـة عربية تحفظ بعض ألفاظها دون أن تستطيع إتقان لهجتها:

– لازم نبدأ في نقل الملكيات باسمي أنا وناديا، وأظن أول حاجة تكون حسابات البنوك.

أكّـد المحامي على كلامها، وأضـاف أن أول خطوة لا بد أن تكون إصدار إعلام الوراثة. ثم عاد لقراءة الإنذار فتجهّم وجهه، وكنت أوقن في هذه اللحظة أنه يعيد قراءة الأسطر القليلة، سألته:

– في حاجة يا أستاذ؟

– الإنذار من وكيل ابن عمك.

– ابن عمي؟ ما له؟

سكت، وهو يجول بنظره بين وجهينا. قطعت الصمت لأسأله مرة أخرى:

- مال ابن عمي ومال ورثي أنا وأمي؟

- له حق في الورث يا فندم.

قال جملته الأخيرة وهو يبتلع ريقه متحسبًا لوقعها في نفسينا، بينما صاحت أمي:

- حق؟ أي حق؟ ما سمعناش عنه من أكتر من عشر سنين، من يوم ما هاجر لأستراليا.

- لكن الشرع والقانون بيدي له حقوق.

- يعني إيه شرع؟ رجل مات ومراته وبنته موجودين يبقى هما اللي بيورثوه؛ مش كده ولا إيه؟

- مش بالضبط يا فندم.

لاحظتُ تردده، أو لعل ما استشعرته كان خجلًا. نظرت إليه مطولًا قبل أن أقرر أن أحاول سبر غور ما يخبئ:

- في حاجة حضرتك مش بتقولها لنا يا أستاذ؟

أظن سؤالي قد أعطاه مدخلًا كان يبحث عنه. أسند ظهره قليلًا إلى كرسيه ونظر إلى أمي:

- حضرتك أشهرتي إسلامك؟

وبمزيج من الدهشة والاستغراب، أجابت:

- إيه دخل ده بالموضوع؟

- حضرتك أشهرتي إسلامك؟

توقعت أن تنفجر في وجهه لما أعرفه عنها من آراء في حرية الاعتقاد والأديان لسؤاله عن شيء لا يخصه، لكنها أجابت في استسلام:

- لأ.. عمري ما فكرت أغير ديني، وعمري ما ناقشت الفكرة دي مع جوزي، ولا هو اقترحها في يوم من الأيام.

لم يعد ينظر لأيٍّ منّا، إذ كان يوجه نظراته إلى الفراغ بيني وبين أمي بينما يتحدث:

- للأسف كده حضرتك مش هاتكوني من الورثة.

- مش من الورثة؟ إزاي؟

- الحديث الشريف بيقول: "لا يتوارث أهل ملتين شتى".

- مش فاهمة.. يعني إيه؟

- لا يرث المسلم مَن على مِلّة أخرى، وبالتالي الوالدة لن ترث والدك ولا لها نصيب في التركة.

لا أذكر أنني رأيت ثورة لأمي مثلما ثارت في تلك اللحظة:

- أنا شريكته في كل ما يملك. أنا اشتغلت معاه من أول يوم والثروة دي عملناها مع بعض. الثروة دي بتاعتي زي ما هي بتاعته.

- للأسف القانون واضح في النقطة دي. الشركة والعقارات وحسابات البنوك كلها باسمه.

- علشان القانون بيصعب تملّك الأجانب، فكنا بنكتب الحاجة باسمه أو باسم ناديا، واللي باسم ناديا حاجات قليلة. وبعدين إنت عارف إنه طلب منك تنقل أسهم الشركة باسم ناديا!

- صحيح هو طلب مني، لكن لم نبدأ الإجراءات.

- نرفع قضية نطلب فيها حقوقي.

- ده دستور وشرع وقانون يا فندم، القضية مستحيلة.

قالت مستسلمة:

- خلاص تورث ناديا وبعدين نتصرف.

احمر وجهه بشدة وهو ما يزال ينظر للفراغ:

- ناديا مش هاتورث لوحدها!

لا أتذكر بقية حديثنا، لكنني أتذكر وقفتي أمام قاضي المحكمة وهو يعلن قراره:

- ترث الابنة النصف فرضًا ويرث ابن العم النصف تعصيبًا.

قطع صوت أمين تسلسل المشهد وهو يستحثني:

- كلامك يا ناديا.. بلاش سرحان!

نظرت لورقتيّ، ثم نظرت إلى الأوراق المكشوفة فوق الطاولة. كانت الورقات الثلاث ذات علامات واحدة: "الدياموند".

كان لديّ أضعف ورقة من ذات العلامة: الاثنين. لو أن الورقة التالية أو التي تتلوها حملت نفس العلامة، سيصبح لديّ فرصة هائلة للفوز. فرصة هائلة، لكنها ليست مؤكدة لأن ورقتي أضعف أوراق المجموعة وقد يحمل أحد المنافسين ورقة بنفس العلامة ولكنها أقوى من ورقتي. قررت ألا أنتظر وأن أبادر بشيء من الخداع. سأستقرئ من ردود الأفعال إن كان أحدهم في انتظار استكمال مجموعة "الدياموند" أم لا. بهدوء دفعت بنصف الفيش المتبقي أمامي إلى منتصف الطاولة، لكنني رغمًا عني استرجعت كلمة "تعصيبًا" وحاولت أن أتذكر معناها.

ورقة رابعة

امين

ألقيت بالورقة الرابعة إلى وسط الطاولة، وبدأ سير اللعب يدهشني، حتى إنني للحظات ظننت أنني لم أُحسن ترتيب الأوراق أو أنني نسيت ذلك الترتيب. كان من المفترض الآن أن يلقي اثنان أو ثلاث منهم بأوراقهم لينسحبوا، ولكني فوجئت بهم جميعًا يناظرون رهان ناديا معلنين استمرارهم. عزوت ذلك لعدم تمرّسهم في اللعبة أو ربما لعدم اكتراث بعضهم، لكن الجدية التي كست وجوههم أكدت لي أن الجميع مؤمن بقدرته على الفوز. أخذت في استعادة ما أعرف أنه بيدِ كلٍّ منهم، أصبحت متأكدًا أنه بنزول الورقة الرابعة لن يتبقى بعد التوزيعة التالية أكثر من اثنين منهم.

برغم كوني مجرد موزع للأوراق كان بي توتر لم أفهم مبعثه، وكأن خطوتي التالية هي التي على المحك. أظن أن توتري زاد بسبب تدافع الأفكار والذكريات التي لم أدرِ سببًا له سوى وجودي بين رفقاء عمري.

لم أجد في صعودي ونجاحي طوال حياتي عجائبيات أو قصصًا تُروى. لعلي لا أبالغ حين أجزم أن أغلب مَن أصابوا مثل ثروتي، لم

يكن بهم عبقرية فذة أو ذكاء فائض. في أغلب الأحوال تكون شارة البدء مرتبطة بالتواجد في المكان المناسب في التوقيت المطلوب؛ لا أكثر ولا أقل. هذا التواجد هو "الفرصة" التي تسنح ويتبقى حينذاك أن يكون بالمرء القدرة أو الانتهازية الكافية لانتزاعها.

أُتيحت لي تلك الفرصة حين التحقت بإحدى كبريات شركات السمسرة المالية في لندن بعد تخرجي. شخصيتي جعلتني محل ثقة عملائي، يثقون في توصياتي التي وإن اتسمت بالمغامرة، لكنها دائمًا ما كانت تُكلَّل بالنجاح. وكان هذا النجاح مجرد إشارة البدء ومؤشر لما هو قادم. أتذكر ذلك العشاء الذي شاركني فيه أكبر عملائي. في نهاية الليلة ونحن نغادر المطعم وبعد أن كان قد اجترع عددًا لا بأس به من كؤوس الخمور، وضع يده على كتفي وهمس بأذني بمعلومة سرية عن صفقة يجري إتمامها. صارت لديّ معلومة لا يجب عليّ أو على غيري أن يعلمها، ومن غير القانوني أن أحاول استخدامها!

أدركت آنذاك أنني كنت في الوقت والمكان المناسبين. كانت الصفقة تتعلق بطرح عقد ضخم ستوقعه شركة إنجليزية في إحدى دول أمريكا اللاتينية. عقد من المتوقع أن يُضاعف أرباحها لعشرة أضعاف ما يحققونه الآن، ومن ثم فإن شراء أسهم الشركة قبل الإعلان عن الصفقة يضمن ربحًا أسطوريًّا بمجرد إعلان خبر التعاقد.

بفضل تلك المعلومة حققت لعملائي أرباحًا تناهز عشرات الملايين من الجنيهات الإسترلينية، واستدفأ حسابي البنكي بأول مليون منها. حين تبلغ ثروتك المليون وأنت ما زلت في أواخر عشرينياتك، وفي

فترة كفترة الثمانينيات تكون قد وضعت قدميك على طريق ثراء بلا حدود إن واصلت استخدام أوراقك التالية بمهارة.

أنشأت أولى شركاتي، ولم أحتج مجهودًا كبيرًا في إقناع عملائي في عملي السابق أن يتبعوني، بعد أن ذاقوا طعم الأرباح التي حققتها من أجلهم. توالت النجاحات ولم أعد بحاجة لتحيُّن الفرص، فالفرص صارت تقدم نفسها لي ولشركتي دون جهد كبير. وحين تنصع سمعة شركة تداول في أسواق البورصة ويرتبط اسمها بتحقيق إنجازات ربحية كبيرة لعملائها لا تتوقف العروض التي تأتيها من كل صوب، إذ تصبح قِبلة مَن يبحثون عن الاستثمار والثراء. لكن الأمر ليس بالبساطة التي قد توحي بها هذه العبارات، إذ احتجت مهارة خاصة في انتقاء الفرصة أو المغامرة التي أسعى وراءها، مهارة وشجاعة المراهنة على مردودها ولعل هذا ما جعل المليون الأول يتضاعف عدة مرت قبل أن أبلغ منتصف الثلاثينيات. ومع تضاعف الملايين تعدّدت الشركات وتنوعت المجالات. وبدأ نطاق أعمالي يتوسع جغرافيًّا ليمتد في عدة دول أورُبيّة وتوالى النجاح وتزايدت الثروة حتى صعب حصرها على وجه الدقة. في الدول المتقدمة الأرباح محكومة إلى حد كبير بمنظومات تشريعية معقدة تضع سقفًا للربح في المشروع أو العملية الواحدة. على عكس ذلك في الدول النامية حيث الأرباح لا حدود لها حين تبدأ أسواقها في فتح أذرعها لاستقبال أموال شركات الدول الأغنى.

وفي مصر وجدتُ فرصًا ذات عوائد خيالية، يحلم بها أي مستثمر؛ لذا بدأت المشاركة في عدة مشروعات، واستقبلني بلدي استقبال الفاتحين. لم أحتج أن أُفسد ولا أُفسَد إذ احتميت بجنسية شركاتي الأوربية التي لاقت ترحيبًا واسعًا من المسئولين. بقي سبدئي دائمًا مرتبطًا بنصيحة أبي:

- لازم دايمًا تعرف إمتى تكمل وإمتى تنسحب!

ظللت أقيم المشاريع وأبذل الجهد، حتى تقف على أقدامها ويصير لها كيان وأهمية، ثم أقبض على أول فرصة لحصد أرباحي والخروج منها لأبدأ من جديد في المشروع الذي يليه. حققت في مصر وحدها أرباحًا تناظر إيرادات دول صغيرة، واستطعت ببراعة أن أُسيّل تلك الاستثمارات إلى أموال منقولة، وسرعان ما جاورت أرصدتي في بنوك سويسرا وإنجلترا. أصبحت ملياردير ًا بالمقاييس العالمية لا المصرية، وأنا على مشارف الأربعينيات من عمري.

سحبتني الذكريات واختلطت في ذهني الأفكار، وسرعان ما رأيتني في أتون ذكرى أخرى في ليلة كهذه، ما زلت لا أعلم لمَ أنهيتها على ذلك النحو الذي كان.

كان ذلك من نحو خمس سنوات حين دخلت إلى كازينو مونت كارل الأشهر. كالعادة استقبلني مدير الصالة كما يفعل مع زوّاره من الأثرياء. وكالعادة أيضًا تقدمني إلى الصالة الخاصة: صالة كبار اللاعبين، وأولئك هم الذين تتعدى قدراتهم في المراهنة أفكار غيرهم

ممّن تمتلئ بهم صالات الكازينو المفتوحة. حجرة لا يستطيع دخولها سوى مَن تشتمل حساباتهم على سبعة أو ثمانية أصفار يمين رقم معتبر. حين فتح باب الحجرة تسمّرت في مكاني حين رأيت حامد يقف خلف رجل عجوز يتوسط الطاولة. لم أكن قد رأيت حامد منذ يوم تخرجي، وبعد أن اختار كلانا أن تنتهي علاقتنا عند هذا الحد. كان العجوز غاية في البدانة، يرتدي قميصًا شديد الزركشة، تتماهى خيوطه اللامعة في الألوان الزاعقة المزعجة. ولم أحتج إلى مزيد من الفطنة لأدرك أنني بصدد مجالسة صاحب النعم الذي أسهب حامد في وصفه لي حين قصّ عليّ حكايته مع أبي.

لعل خطواتي الخمس أو الست من باب الحجرة إلى مقعدي كانت أطول خطوات أطأها في حياتي. حين جلست رفع الأمير وجهه نحوي وابتسم ابتسامة مرحبة رددتها بعبوس لم أستطع إخفاءه، كانت عيناه حمراوين من أثر الخمر. بينما كان وجه حامد موسومًا بالقلق وهو يحاول ألا يطيل النظر إليّ، في نفس الوقت الذي يجاهد لكي يخفي معرفته بي. طالت أدوار اللعب بين الجالسين إلى الطاولة وانسحب الواحد تلو الآخر ولم يبقَ سواي أنا والأمير. بدا عليه بعض الإعياء حين رفع رأسه موجّهًا كلامه إليّ بإنجليزية مثقلة بلكنة بلاده الإفريقية:

- دعنا نختم الليلة بدورٍ واحدٍ نتراهن فيه على مليون دولار.. ما رأيك؟

أعجبني اعتقاده أنني أوربي، وأنه يجاهد ليحدثني بلسان متثاقل. استرعى انتباهي شدة احمرار عينيه، وإن لم أستغرب وأنا أرى كأسه الممتلئة قابعة أمامه. أطلت النظر نحوه قبل أن أومئ إليه بموافقة بدا لي أنها صرفت من ذهنه ما كان به من تعب. بإشارة آمرة نحو موزع الورق، طلب منه التوزيع.

قبضت على الورقتين اللتين ألقى بهما الموزع فكانتا ولدًا وبنتًا. استدعيت كل ما تعلمته من مهارات اللعبة التي أجيدها منذ صباي. انتظرت أن تتكشف أول ثلاث ورقات على الطاولة. كان بينها ولد وبنتان، أدركت حينها أن المليون دولار قد اقتربت من جيبي إلى أقصى حد ممكن حين جمعت ما بيدي وما فوق الطاولة. تصورت حينذاك أبي وهو جالس أمام الرجل في ليلته الأخيرة يلعب على رهان قيمته مليون جنيه. أمعنت النظر من جديد، وقررت ألا أكشف قوة أوراقي بعد. انتظرت إلقاء الورقة الرابعة فلم تزد أو تقلل من قوة ورقتيّ. قررت تحديه لأذيقه ممّا أذاق والدي، فرفعت رأسي صوبه موقنًا أنه سيفضل الانسحاب حين أقترح أن نضاعف الرهان.

فوجئت به يهز رأسه موافقًا. تملكتني حيرة شديدة وأنا أحاول أن أخمّن ما يمكن أن تحويه يداه لتدفعه إلى هذه الثقة. غطّت سحابة التوتر أرجاء المكان، وكتم المتابعون أنفاسهم بانتظار الورقة الأخيرة التي سرعان ما اتضح أنها "بنت قلوب". لم أصدق نفسي وقد صارت مجموعتي أربع بنات! أربع ورقات متماثلة في قوانين البوكر هي ثاني أقوى مجموعة ممكنة.

تسارعت أنفاسي وقد تمثلت نفسي أرد صفعة تلقاها أبي منذ ثلاثة عقود. خطر لي للحظة أن أرفع الرهان إلى عشر أو عشرين مليونًا بعد أن صار سحقي له مؤكدًا. أغمضت عيني وفتحتهما فقط لأغمضهما من جديد. امتلأت أذناي بصوت حامد يوم حكى لي مأساة أبي يوم خسر أمامه. تذكرت كل تفصيلة حكاها ودقّت في رأسي آخر كلماته يوم تخرجي:

- واجب عليك تقابل سموه علشان تشكره على اللي عمله لك.

انتظمت أنفاسي وأنا أطيل النظر في وجهه المتصدع من أثر الزمن. وفي لحظة لا أدري حتى الآن كيف أدركتها، رميت بالورقتين اللتين أمسك بهما دون أن أكشفهما، وأعلنت بصوتٍ مكتوم:

- أنا منسحب!

مع كشف أمين للورقة الرابعة أدركت أن احتمالات فوزي تضاعفت. سعدت أن الأمور تسير وفقًا لعملية التوافيق والتباديل التي تجري في رأسي منذ البداية. أمعنت النظر في الأوراق التي أحملها ومدى تماشيها مع تلك المكشوفة في منتصف الطاولة، أدقق إن كنت سأرفع من قيمة الرهان أم أكتفي بما راهنت. بعد دقيقة أو دقيقتين قررت الانتظار وألا أبادر بالزيادة الآن. لم أكن أريد أن أنقل ثقتي بأوراقي لمَن حولي. آثرت الانتظار لربما اندفع أحدهم وغامر مغامرة غير محسوبة. انتظرت تهورًا أو اندفاعًا يزيد قيمة انتصاري. وكما تعلمت استطعت التحكم جيدًا في انفعالاتي وحجبت عن ملامحي أي تعبير يشي باطمئناني إلى الفوز. بل لعلي زدت في الأمر فجعلت بصوتي شيئًا من التردد والاهتزاز حين مرّرت الدور لمَن يليني:

- مش هازوّد. كلامك يا إبراهيم!

أرحت ظهري إلى مسند المقعد وأخذت أمعن النظر بوجوههم. بدا إبراهيم لا يعبأ كثيرًا باللعبة وأنه منشغل بشيء آخر. وضح ذلك من الوهج الذي أشعت به عيناه. سبق أن رأيته في مثل هذه الحالة، وحين سألته أجاب بأنه حينذاك يكون في حالة إبداعية تتشكل، أو أن فكرة بعينها تسيطر على تفكيره، أو أن مشهدًا من عمل يكون قد قارب على الانتهاء منه يحتل ذهنه.

أما عزيز فقد شعرت بقلقه، وبدا لي متململًا في جلسته. لم يعُد يمسك بالورقتين، بل نحاهما أمامه وأخذ يمرّر أصابع يمناه مرةً تلو الأخرى من فوقهما، قبل أن يعاود نفس الحركة بعصبية من جديد.

ما تبينته من وجهَي إبراهيم وعزيز زاد شعوري بثقة أنني متفوق عليهما. مبعث قلقي حقًّا كان في وجوه صديقاتي الثلاث. ابتسامة عريضة لا تُفصح عن أي شيء ارتسمت على وجوههن كأنهن اتفقن على ذلك. احترت في تفسير نظرات عايدة، هل كانت تنم عن عدم اكتراث باللعبة أو عدم الفهم والتقدير لما تحويه أوراقها؟ أما هدي فقد أدركتُ أنها تستخدم موهبتها التمثيلية في التعبير عن غير ما تُكنّه. شعرت بشيءٍ من الخطر ممّا تخبئه صديقتي الفنانة الجميلة. لعلها الأكثر قدرة بين الجميع على تورية ما تحمله من أوراق وما تكتنزه من أفكار. أيقنت أنها في الأغلب أكثر مَن سأحتاج أن أجتهد لقراءة خطتها ومعرفة ما تخبئ. أما ناديا فقد كنت أعلم عنها قدرتها أيضًا على إخفاء حقيقة أوراقها. بارعة هي أيضًا في استقراء نفوس كل منّا بحكم براعتها في تخصصها. لاعبة لا بد من الحذر في مواجهتها. الصفاء والسلام اللذان كسا بهما وجهها دفعاني للابتسام، ابتسامة تذكرني دائمًا بأيام المدرسة وسنوات الصبا الأولى، حين افتتنت بها ولم أجد شجاعة الإفصاح.

لكن الأكثر إدهاشًا بالنسبة لي كانت حالة التركيز الرهيبة التي ظهر عليها أمين. لم يكن دوره كموزع للأوراق يستدعي تلك الصرامة التي تبدو على ملامحه. بدا كأنه مشغول الذهن بشيءٍ لا علاقة له باللعب.

لعله قلق أن يفوز مَن لا يستطيع تسيير الأمر كما يرغب. أشعر أن لديه ميلًا لأن أفوز إذ لا بد وأنه يراني الأفضل والأجدر بالجائزة. ولو حدث واستطعت الفوز سأكون قطعًا الأصلح لقيادة الصندوق بنجاح.

كان توقيت اللعب على رئاسة الصندوق حاسمًا بالنسبة لي لأني وجدت في هذا الأمر بديلًا يعوضني عن القرار الذي أجلت اتخاذه كثيرًا. وحين اتخذته لم تكن لديّ خطة متكاملة لمواجهة تبعاته، لأول مرة في حياتي. اضطررت إلى هذا القرار حين لم أعد قادرًا على تجاهلي كأستاذ ومعلم ذي مكانة علمية خاصة وفريدة. وبرغم كل شيء فإنني لن أفارق هذه الرفقة اليوم إلا بعد أن أشركهم في هذا القرار الذي لا يعرف به أي منهم.

ليس قرارًا انفعاليًا أو عاطفيًا، إذ لم أتعود إلا على التروي الشديد والتفكر الحثيث في كل ما يخص عملي. لقد استُقبلت في مصر حين عدت من أوربا استقبالًا جيدًا، وانهالت عليّ عروض الانضمام إلى هيئات تدريس الجامعات الخاصة الكثيرة التي انتشرت في البلاد. ودرست هذه العروض بتأنٍّ، وقارنت بينها من جميع الأوجه، قبل أن أقرر قبول منصب رئيس قسم الهندسة الميكانيكية في جامعة خاصة رأيتها الأفضل بين الجميع.

بدأت بحماس شديد محاولًا نقل تجربتي الثرية في إحدى كبريات الجامعات البريطانية. في البداية، واجهتني مقاومة شديدة ممزوجة بسخرية من أساتذة القسم الذي انتقلت للعمل به، لكنني عزوت

ذلك إلى الخوف من الجديد والتجديد الذي يتملك البشر عمومًا. وشيئًا فشيئًا استسلم المعارضون بعدما لمسوا إصراري على تنفيذ ما حلمت به. ورغم انزعاجي من محاولات بعضهم النيل مني بكيدية، وألاعيب خفية رخيصة وتململهم من نظم ادّعوا أنها لا تناسب الجامعات المصرية، إلا أن الأمور سارت كما رغبت. ومع ذلك فقد كانت هناك أمور لا أفهمها، لا علاقة لأساتذة الجامعة بها، لكنها كانت تخص الطلبة أنفسهم. لمست حالة من عدم الاكتراث واللا مبالاة لم أستطع معرفة أسبابها، فالدراسة معقدة كما هو حال مجال الهندسة الميكانيكية في كل الجامعات ومع هذا كان الطلبة يتعاطون معها بتباسط يدعو للانزعاج.

وبعد فترة وجيزة بلغني نبأ استقالة رئيس الجامعة وانضمامه لجامعة أخرى على وشك أن تفتح أبوابها. لم يهمني الأمر كثيرًا، إلى أن أعلنوا عن بديله. كنت أقرأ المنشور الذي يهنئ فيه أعضاء هيئة التدريس رئيس الجامعة الجديد بتولي منصبه، ولم يكن سوى معيدي السابق، الذي اضطرني لأن ألتحق بدروسه الخصوصية لكي أستطيع النجاح. نفضت عن ذهني الأفكار السوداوية التي اعترتني وطمأنت نفسي أنه بالتأكيد بعد أن وصل إلى أعلى المناصب الأكاديمية لم يعُد يلتفت إلى تلك الممارسات غير المقبولة. وتعمّدت ألا يكون بيننا احتكاك كبير وركزت على تجويد الدراسة بقسمي المسئول عنه. أصدرت تعليماتي بزيادة الامتحانات المفاجئة كي أجعل الطلاب



أكثر تركيزًا واندماجًا. أوصيت أساتذة المواد المختلفة بتشجيعهم على البحث المستمر في غير ما هو مقرر من كتب دراسية. تجاوب كثير من الطلاب وبدأت بشائر تفوق بعضهم. استمررت على نهجي فارضًا ما اكتسبته من حزم وجدية في الإمبريال كوليدج لم ينغصها سوى بعض مناوشات وتدخلات، بين الفينة والأخرى من رئيس الجامعة. بدا وكأنه يحاول أن يُعيد الأمور إلى ما اعتادته الجامعات المصرية، بينما أنا أقاوم لكي تمضي الأمور. أصبح بي كثير من عدم الارتياح، إلى أن جاء ذلك اليوم الذي استدعاني فيه إلى مكتبه، وهناك لم يُضع وقتًا طويلًا في الولوج إلى ما أراد:

- عندك طالب ابن أحد المساهمين في الجامعة.

- عارف.

- بلّغني والده أن نتائج امتحاناته سيئة.

- صحيح، غالبًا هايعيد السنة!

- لا يمكن.

- مش فاهم!

- لا يمكن يعيد السنة.

- يعني إيه؟

- اتصرف يا دكتور كريم.. الولد ده مش هايسقط.

لا أذكر باقي حوارنا تفصيلًا. أتذكر فقط تلعثمي وتوقف الكلمات على لساني. ثم أتذكر خطواتي البطيئة وأنا أغادر مكتبه.

اعتراني شعور جامح بالاستياء، وحسرة بالغة من أن يُطلب مني إنجاح طالب لا يستحق، لمجرد أنه ابن رجل مهم. تذكرت تحذيرات المقربين بأني أتوهم إذ أظن أن بإمكاني إصلاح وعلاج الأمراض المتوطنة في التعليم.

أغلقت على نفسي غرفة مكتبي حزينًا بائسًا، هربت من عيني دمعة حين داهمتني ذكرى خسارتي لابنتي دينا، أو لعلها خسارتي لدنيا هي التي رمت بي إلى عالم لا أستطيع معايشته. كتبت استقالتي دون إسهاب وأنا أوقن أن هذا البلد الذي ظننته ملاذي الأخير، قد تبدّلت أخلاق ناسه عن تلك التي تركتها عليه يوم هاجرت إلى أورُبا.

بـدأت فكـرة الروايـة تتجسّـد فـي مخيلتـي، وأخذت شـخوصها تتفاعـل وخيوط كل منها تتشـكل أمامي. نعم، سـترتكز الشـخصيات على حكايات أصدقائي، ولكن دوري ككاتب أن أطلق وأمزج الخيال بالحقائـق. قد أطمّـس بعض التفاصيل حتى لا أكون فاضحًا في سـرد الأحـداث الحقيقية التي قد تثير غضـب أصدقـاء عمري. ولعلي أكون حساسًـا أكثـر ممّـا ينبغي، وأنهـم لن يمانعـوا أن أحكي عنهـم، طالما مزجت بين واقعهم وما يمليه خيال المبدع من دراما على قصصهم.

فكرت في أن أكتفي بقصة حول ثُلّة من الأشخاص يلعبون البوكر، لـم يكن بينهم علاقة سـابقة لأتجنـب حنق أي مـن أصدقائي، ولكنني وجـدت أن ذلك يضـرب عبقرية الفكـرة. كما أنه قـد يفقدها غموضًا توقعته حين تُنشـر الرواية. غموض سـيحاول معـه الصحفيون والنقاد اسـتقراء مَن هـم الأبطـال الحقيقيون، وهو ما سـيزيد فـرص نجاحها وانتشـارها. فعلـوا هـذا مـع إحسـان عبـد القـدوس ومن بعـده علاء الأسواني وغيرهما، فحققت رواياتهم مبيعات قياسية.

أذهلنـي بعض الشـيء اسـتمراري فـي اللعـب وتلك الرغبـة التي ملأتنـي في الفوز. أوعزت حاجتي للاسـتمرار إلى خـزن مادة للرواية وإن لـم أفهم رغبة الفوز التي بدأت تفور بداخلي. لعلي أردت انتصارًا يجعلهـم يعترفـون بتفـوق أعلمه فـي نفسـي وأحتـاج أن يصرحوا به. أي واحـد بقدراتـي وموهبتي قـادر بلا أدنى شـك أن يتفوق على تلك المجموعة من أصدقائي. أحسسـت أن الوقت قد حان ليعرف كل منّا

قدره وأن ننسى نقطة بداياتنا وأن نتعايش مع المحطة التي وصل إليها كل منّا.

أمعنت النظر في وجوههم من جديد. منذ عرفتهم لم يشعروني يومًا إلا بأني واحد منهم، ولكني أنا مَن شعرت دائمًا بأن هناك فوارق بيني وبينهم. لكن هذا الشعور تضاءل مع نجاحاتي الأدبية المتتالية وذيوع شهرتي كأحد كبار الكتاب والمثقفين.

في لحظات كثيرة أشعر أنني قد أزلت بما أنجزت تلك الفوارق، خاصة وهم يفاخرون بصداقتي ويفرحون بما وصلتُ إليه. سأستخدم الرواية لأُنهي هذا الإحساس. سأجعل الكاتب ابنًا أصيلًا من أبناء الزمالك وسأزيده أن يكون هو المضيف للأمسية التي تحكيها الرواية وصاحب شقة ليبون التي ورثها عن أبيه الأرستقراطي.

سيتبدأ الرواية بوصف كيف أتاحت له الثروة التي ورثها أن يتفرغ للكتابة دون أن يشعر بالعوز مثل آخرين أُهدرت مواهبهم وهم يسعون وراء أقواتهم في وظائف وأدّت إبداعهم قبل أن يخرج إلى النور. أكثر ما يقلقني، هو المقارنة التي سيعقدونها بين شخصية الكاتب في الرواية وحياتي الشخصية. ستحتاج تلك الشخصية دون غيرها إلى كثير من التنقية حتى لا أكشف أسرارًا احتفظت بها طوال حياتي خاصة المشينة منها، رغم أنها أحداث من شأنها أن تسم الرواية بالجاذبية والإثارة.

كتمت ضحكة حين تراءى لي عزيز في مشهد جنسي ستحتويه صفحاتها. أحب أن تتضمن رواياتي مشاهد جنسية غير مبتذلة ولكنها

موحية تلهب عقول قرائي الشيوخ منهم قبل الفتيان، والنساء منهن قبل الرجال. لن يكون مشهدًا جنسيًّا مبالغًا في وصفه، ولكنه قصة لا بد وأن تُروى خاصة وأن ناديا كانت طرفًا فيها.

كنت قد وصلت إلى ستوكهولم لأتسلم جائزة أفضل عمل مترجم إلى اللغة السويدية. كان ديسمبر والبرودة كانت لا توصف. أبلغت ناديا بموعد وصولي منتظرًا أن تعرض عليّ أن تستقبلني في المطار ولكنها بشيءٍ من البرود الذي يلائم أجواء السويد فضّلت أن تقابلني ثاني أيام وصولي. وببرودٍ مماثلٍ لبرود صاحبتي مرّ بي الناشر السويدي ليقضي معي أقل من نصف ساعة قبل أن يتركني لأستريح من عناء السفر كما قال لي، وضرب لي موعدًا لنتقابل قبل حفل التكريم في اليوم التالي.

وما إن صعدت إلى غرفتي حتى أصابني الملل. كان الوقت ما زال مبكرًا جدًّا ولم يكن للنوم سبيل إلى عيني. نزلت إلى بهو الفندق وخطوت خارجه لأجد الغيوم نملأ الأفق، والأمطار تنهال غزيرة وقطراتها تدوي عند اصطدامها بالأرض، فعدت أدراجي سريعًا إلى الداخل.

في آخر البهو كانت هناك مدفأة متأججة يلتفّ حولها بعض نزلاء الفندق أو هكذا تصورت. خطوت نحوهم وجلست إلى أحد المقاعد الشاغرة بجانب المدفأة وطلبت المشروب الذي اقترحه عليّ النادل وهو يبتسم مؤكدًا أن أثره في بعث الدفء فوري. أتى المشروب بنتائج فورية لكن الدفء الذي امتلأت به أوصالي صاحبه شيء من الدوران

غشي رأسي. ظننتني أتخيل حين بدأت الفاتنة الشقراء الجالسة بجواري في التحدث معي. أبدت انبهارًا كبيرًا حين عرفت أني مصري وازداد انجذابها حين عرفت أني كاتب وروائي.

لم يستطع المشروب المسكر أن يسكن ذكورتي التي أيقظتها مداعبات الشقراء حين تجاوزت الحديث إلى ملامسات جسدية أشعلت كل خلايا جسدي. كان لا بد أن تنتهي جلستنا بدعوتها لمرافقتي إلى الغرفة ووافقت بسهولة على تلبية الدعوة. ما زلت أذكر كل تفصيلة مررت بها وأنا بين يديها، ولا أقول أحضانها. اعترتني أحاسيس ومشاعر سمعت بها ولم أختبرها من قبل. اكتشفت أن ما ظننت أني متمرس فيه، هو مجرد جزء ضئيل من موسوعة الممارسة الجنسية التي دخلت بي السويدية في متنها. لمست كل جزء من جسدي وأشعلت بكل لمسة لهيبًا من مشاعر لم أكن قادرًا على تصورها من قبل.

عرفت بين أحضانها ما يسمونه "ممارسة الحب" ويلحقون به من الصفات ما يرقى به إلى ما يتجاوز الغريزة الحيوانية التي تعودت أن أسارع بإشباعها والانتهاء منها. ثم كانت الصفعة التي أفاقتني حين انتفضت بعد انتهائنا وبدأت تلبس ثيابها المنثورة فوق أرضية الغرفة، وقد ظننتها ستقضي الليلة بين أحضان الشرقي الذي أشبعها. وبعدما انتهت من آخر قطعة من ملابسها، قالت بآلية واضحة:

ـ ألف وخمسمائة كرونا!

أظنها لاحظت ذهولي فقالت:

ـ حساب الساعة التي قضيتها معك.

انهار شعوري بذكورتي الذي كان متقدًا منذ ثوانٍ معدودة، رفض وعيي تصديق فكرة أنها لم تصعد إلى غرفتي إعجابًا بي وانبهارًا. وسرعان ما احتدم الموقف وزادت حدة النقاش، وبين لحظة وأخرى وجدت نفسي في مخفر الشرطة، بعد أن حرّرت ضدي شكوى تتهمني بأنني رفضت أن أنقدها أجرها. ولا أدري كيف تركت العناد يقودني للإصرار على ألا أدفع لها وأن أطلب من الشرطي المناوب أن يتصل بناديا لتتولى التفاهم بالنيابة عني بخصوص الشكوى. وحين جاءت ناديا دفعت المبلغ بالإضافة إلى غرامة كبيرة، وضمنتني واصطحبتني إلى الفندق. وظلّت طوال الطريق إلى الفندق تنظر إليّ بطرف عينها وتضحك بهستيرية. لم تذكر القصة قط، ولم أحاول أن أشرح أو أفسر لها الموقف. أظن أن كلينا استعان بالصداقة فقط كي نستغني عن الحاجة لمناقشة من هذا النوع.

ستعجب هذه القصة القراء. سأجعلها من نصيب عزيز، فهو الأهوج الذي تناسبه مجرياتها. سأجعل ناديا تحكي لهدى عن القصة التي ستقع عند زيارته للسويد من أجل المشاركة في إحدى بطولات الملاكمة، وحين تعرف هدى بالقصة ستكون سببًا لانتهاء علاقتهما العاطفية. بقطع علاقتها بعزيز ستصبح هدى، بعد بضع سنين، جاهزة لأن ترتبط بالكاتب الذي سطع نجمه. سأُتقن سرد قصة حبها لي،

وأسـهب في تفاصيـل العواطف التـي تحويها، لتكون هـذه التفاصيل وحدها هي ما يعلق بأذهان قارئات الرواية.

صـرت بعيدًا عـن اللعب، انفصلـت تمامًا عنهم بعدمـا كنت جزءًا أصيـلًا منـه. اسـتلبت أفـكار الرواية كل كيانـي، حتى إنني فكرت أن أطلب أوراقًا بيضاء وقلمًا أسـود كي أبدأ الكتابة. هكذا أنا حين يجمح داخلـي الخيـال، وتعتريني شـهوة السـرد، كأنني أفقد صلتـي بكل ما حولي وأغرق في تفاصيل ما يجتاحني من خيال.

انتشلني صوت أمين من قاع هذه البئر البعيدة:

ـ خلصنا يا إبراهيم والعب!

لا أتذكر الكلمة التي يُفترض أن أنطقها حين لا أرغب في المراهنة، فأقول:

ـ العبي يا عايدة.. دورك..

غمرني الشعور بالارتياح حين استقرت الورقة الرابعة على ظهرها وسط الطاولة. أعجبني أن ورقة الشايب المطروحة على ظهرها منذ الدور السابق ما زالت الأقوى. فأفرى ورقة على الأرض تناظر ما بيدي ليصبح لديّ منها اثنتان. اعتقدت أن اللحظة قد تكون مناسبة لرفع الرهان، لكني لم أجد في نفسي الشجاعة الكافية للإقدام على هذه الحظوة، بل سرعان ما تملكني الحذر وآثرت انتظار مبادرات الآخرين.

الانتظار هو الوصف الأمثل البليغ لطبيعة حياتي منذ غادرت بيت فهد.

- بنشوف.. بنشوف!

قالها وفي ذهنه ألا يفعل شيئًا. تركني في مصر زوجة يصفها الوصف الشائع "مثل البيت الوقف". لم يوقع الطلاق الذي ظننت أنه قد وافق عليه حين طلبت منه أم عبد الله. حاولت أن أجعل خليفة حلقة اتصال بيننا، لكي يجيء لي بحقي في الحرية، لكن ابني لم يكن مقتنعًا بطلبي من الأساس، ولم يرَ أي خطأ فيما فعله أبوه. صار لديّ شائب عجوز، وآخر صغير ظننت أنني ربيته سندًا لي. مرّ نحو عامين وأنا على هذه الحال. ازدادت برودة مكالماتي مع خليفة، وبدا لي أنه صار يراني امرأة متمردة على الأصول التي يعرفها كما قال مرارًا. علمت من أم عبد الله أنه أصبح يدير مع أخيه الأكبر أعمال أبيهما التي اتسع نطاقها

ليغطي عدة بلدان خليجية. وبسبب انشغاله كما يدّعي كان يجيب مرة على مكالماتي الهاتفية ويتجاهلها عشر مرات تالية. لذا انتفض قلبي حين وجدته يتصل بي، ليقيني أن أمرًا جللًا دعاه للاتصال. بكيت حين أتاني صوته المتهدج يخبرني أن فهد مات. تضاربت مشاعري بين حزن على موت مَن عاشرته سنين، وبين شعور خفي بالسعادة لحرية لم أكن لأنالها لو طال به العمر.

فكرت أن أعود إلى هناك لتعزية ابني، فوجدت منه صدودًا وجفاءً، بل تحدّث إليّ بلهجةٍ آمرة:

ـ وثّقي لي توكيل رسمي بالقنصلية لأنهي إجراءات الميراث.

لم أكن بحاجة للمال، فقد ورثت عن والديّ ما يكفيني، فهم أيضًا قضيا حياتهما يطاردان دولارات الغربة.

ـ هابعت لك التوكيل وتقدر تأخذ نصيبي في الورث لنفسك.

ثلاثة أعوام أخرى مرّت دون اتصال منه. كنت أنا مَن يحرص على الاتصال في البداية، وحين شعرت باتساع الفجوة بين رغبتي في محادثته وردّه عليّ، والجرح الذي كان يصيب كرامتي بعد كل اتصال، قررت السيطرة على عواطفي، فانقطعت عن الاتصال، لكنني لم أجد رد الفعل الذي تاق له قلبي. اختفى خليفة ولم يحاول الاطمئنان عليّ، ولم يهتم بإجراء مكالمة روتينية مثل تلك التي يجريها الأقارب في المناسبات. صرتُ أمًّا بلا متنفس لأمومتي. أدركت أنني فقدت مَن كان يُفترض أن أستدفئ بمحبته غير المشروطة. نحّيت كبريائي، وعاودت

من جديد وصل ما انقطع، فوجدت الفجوة بيننا صارت صحراء جافة وقاحلة. وحين تعطّف عليّ بالرد بعد إلحاح؛ أنهى المكالمة بقوله:

- إنتي اللي اخترتي. وأنا دلوقت باختار وبافكرك إن أبويا ما خالف شرع.

أدركت بينما أغلق الهاتف، أنني سأمضي ما تبقى من عمري وحيدة. حاولت إقناع نفسي أنني بلا أبناء، ولكن لم تمر ساعة في تلك الفترة دون أن يخفق قلبي بذكرى الابن الذي اختار أن يجافيني.

غرقت في بئر من الوحشة. لا شيء له مذاق، مجرد أيام تتشابه وتماثل ما قبلها وما بعدها دون إحساس إلا وحدة تتوحّش بداخلي. غدوت كتائهة تسير على طريق بدون أي إشارات أو علامات، دون أي فكرة عن الموعد أو المكان الذي سينتهي فيه مشواري. اجتمع عليّ بؤس وحزن أسوأ ما فيهما أنهما بلا أمل.

ثم ظهر مختارا

في يوم شتوي بارد، أكسبته أشعة الشمس بعض الدفء، قدّمته لي إحدى معارفي بنادي الجزيرة. مختار قاسم، أرمل في بداية الخمسينيات، تزوجت ابنته الوحيدة وهاجرت مع زوجها إلى كندا. ذو رشاقة غير معتادة لمَن في مثل سنّه، طويل القامة، وسيم، أشيب، تقاطيع وجهه الوسيمة تشبه نجوم هوليوود المعروفين. كنت في منتصف الأربعينيات، فرأيت أملًا جديدًا في معاودة حياة ظننتها قد كشفت كل ما لديها.

منذ ذلك اليوم تسارعت عقارب الزمن. أنام على صوته العذب في مكالمته الليلية وأستيقظ على كلمات رسائله التي تمتلئ شوقًا للّقاء اليومي في حديقة الشاي بالنادي. تحول ما بي من تصحُّر إلى ألفة وارتياح. احتواني بحنان لم أتصور أن بإمكان الرجل أن يمتلكه. بالغ في وصف جمالي كلما سنحت له الفرصة لدرجة جعلتني أتشكك في المرآة التي أتجمّل فيها قبل لقائه. عوضني عن فترة المراهقة التي لم يُسمح لي أن أحياها.

لم أحتج أن تكون مشاعري نحوه استعواضًا عن أخرى لم أجدها لدى أبي. تقارُب السن جعل أفكارنا أكثر اتساقًا. وكأنه ساحر أنساني كل قسوة ذقتها من قبله. تحولت إلى فتاة في مقتبل العمر تختبر للمرة الأولى ما تعلق بخواطرها من رومانسية الأفلام. لم أعد أعاني الوحدة إلا في اللحظات التي تسبق استغراقي في النوم، يحل بعدها ضيفًا في أحلامي. لم يُضع وقتًا قبل أن يُسمعني تلك العبارة التي ما كنت أعتقد أن رجلًا سيهمس بها في أذني ذات يوم:

- باحبك يا عايدة.. باحبك قوي.

تُقتُ إلى سماعها وأنا عروس مراهقة ضنّ عليّ بها مَن تزوجته. ظننت أنني سأجدها عند مَن خرج من رحمي لكن إرثه من أبيه حال دون ذلك. حين خرجت من فم مختار تزلزل عالمي وجاشت بي عاطفة لم أختبرها.

ظلّت آلة الزمن تعدو بي وبعلاقتي معه. وبدا طبيعيًا أن ننتقل لمرحلة جديدة ينفرد فيها أحدنا بالآخر بعيدًا عن أعين تراقبنا وألسنة

تتنبأ بما يدور بيننا. دعاني إلى غداء في بيته فوجدت نفسي سعيدة بقبول دعوته. لم أعارض، ولم يحتج لطمأنتي، فقد تطلعت لأن أكون معه وحدي، مثلما تتطلع فتاة مراهقة طائشة للقاء حبيبها.

ترددت قبل أن أضغط جرس باب شقته ولكنه أزال ترددي حين فتح الباب دون الحاجة لكي أعلن عن وصولي. لم يكن الطعام ضروريًا، إذ كان كلٌّ منّا هو الوجبة التي يشتاق إليها الآخر. ماثلت قبلاته ولمساته مع ما احتوته الأحلام التي كان بطلها. لم أقاوم لمساته التي غزت جسدي. تنساب الموسيقى الحالمة متناغمة مع قبلاته الحارة. أصبحت طيعة بين يديه وهو يداعب أوتار جسدي. استسلمت لمشاعر سمعت عنها دون أن أطمح إلى تجربتها. لم أشعر بخطأ فيما نحن بصدده، امتلأت بالنشوة، ومع تجاوبي امتدت يداه تفك أزرار ثيابي. توقف الزمن لحظة قبل أن أنتفض مذعورة. لم أجد في نفسي قدرة على الاستمرار. فوجئ بعزوفي المباغت. لم ينطق أيّنا بأي كلمة وأنا أعدو نحو باب الشقة أغادر مسرعة.

ما تلى ذلك في قصتي معه يتطابق مع قصص الفتيات الطائشات التي ترويها السينما. وحتى هذه القصص لم تعُد موجودة في الأفلام الحديثة بعد أن اكتشف المشاهدون مدى سذاجتها وعدم منطقيتها.

نعم، اختفى مختار، أو انسحب! في تلك الليلة لم يرد على مكالمتي، ولا على رسائلي القصيرة التي اعترفت له فيها بحبي:

ـ باحبك يا مختار.. باحبك قوي.

حاولت الوصول له في الأيام التالية فلم أجد لذلك سبيلًا. فكرت في الذهاب لأطمئن عليه في بيته، ولكن كبريائي منعتني. لُمت نفسي لرفضي ما أراد. وظلت التساؤلات تطن في رأسي: هل أحسنت التصرف؟ أم إنني أسأت رفض ما يقدم عليه الكثيرون بكل أريحية؟

مرّت الأيام، وبدأت سحائب الوحدة والجفاء تظلل سمائي من جديد. استعدت مرارة أيام انسحاب خليفة من حياتي. تبدد السطوع الذي لوّن حياتي منذ عرفت مختار وغشيت الرماديات أيامي من جديد. أيقنت دون شك أن بي عيبًا، وأن في شخصي ما يصرف عني أي احتمالات للرفقة السعيدة. طال اختفاؤه لأسابيع لكنه كان أكثر رفقًا بي ممّن خرج من رحمي حين أرسل لي رسالة مقتضبة يقول فيها: "أنا في كندا عند بنتي.. إلى اللقاء".

دون أن أشعر، وضعت الورقتين اللتين بيدي أمامي. شددت قبضتيّ تمامًا كما كنت أفعل في لحظات النزال الفاصلة. اندفع الدم متسارعًا في عروقي وحلا مذاق فمي وأنا ألمس الانتصار الذي امتلأت ثقة به حين كُشفت الورقة الرابعة. داهمني شعور كنت قد نسيته؛ شعوري حين أقف متوجهًا إلى منتصف الحلبة لأبدأ الجولة الحاسمة. غدوت متيقنًا أن انتصاري سيكون بالضربة القاضية، وإن عزمت في هذه المباراة أن يكون توقيتي مثاليًا لا عجالة فيه ولا تأخير. وجدت نفسي وقد انعزلت عن الأصوات والمشاهد من حولي، تمامًا كأنني فوق الحلبة أُغلق حواسّي عن أصوات الجمهور.

نقلت نفسي إلى حالة من التركيز في الأوراق وما تتيحه لي من قدرة على حسم الأمور. أغلقت عينيّ مستحضرًا لحظة الانتصار التي اقتربت، لأُفاجأ بالزمن الذي ظننته توقّف، يعود بي أعوامًا غابرة. كان صوت أونكل يسري ونصائحه يسيطران على ذهني ويذكراني بما يجب تحريه من أجل النهاية التي أبتغيها.

- إنت اللي متحكم في قيمة ورقك بطريقتك في استعماله.

حين دقّ صوته في رأسي بهذه الجملة، طارت بي ذاكرتي إلى وقت انفصالي عن أخي في أعمال الشركة وبقائي شريكًا مع المشترين الجدد. حينذاك أحسست لأول مرة أني صاحب قراري دون وصاية.

أحسن الشركاء الأجانب استقبالي والترحيب بي، ولم أجد منهم تذمرًا لوجودي بينهم، مثلما تنبأ أخي الأكبر. سعدت ببطاقة التعريف التي أعطوها لي: "عضو مجلس الإدارة".

لم يكن لي دور تنفيذي، لكن اجتماعات مجلس الإدارة الدورية أتاحت لي معرفة حجم توسع الأعمال التي تجاوزت توقعات المراقبين. أصبحت ذا وضعية متميزة في عالم الأعمال في مصر، فأنا الشريك الوطني في الشركة الدولية المسيطرة على الأسواق. في تلك الحقبة شعرت أن القدر يكافئ صبري وتحمُّلي على تهشّم حلمي السابق فوق بساط حلبة الملاكمة. مرت أعوام عدة ومجلس الإدارة يقرر بأغلبية لم أكن جزءًا منها، ودون مناقشة، قرار عدم صرف الأرباح وإعادة استثمارها في توسيع الأعمال. لم أجد بأسًا في ذلك وأنا أجد قيمة أسهمي تتضاعف عشرات المرات دون عبءٍ عليّ. أعجبني تضخم ثروتي وأنا أشهد صغر حجم شركة أخي التي أنشأها مقارنة بالمؤسسة التي أصبحت جزءًا منها. نعم كانت أعماله تكبر وتزيد هو الآخر ولكن بمعدلات لا تُقارن بالتضخم الذي غدت شركتنا عليه. ثم كان اجتماع مجلس إدارتنا الذي حرص على حضوره رئيس الشركة الأم خصيصًا ليُعلن فينا:

ـ السوق المصري ما زال بكرًا وفرصنا في التوسع تملي علينا الآن ضخ استثمارات جديدة؛ لذلك أدعوكم إلى التصويت بالموافقة على مضاعفة رأس المال.

كان عليّ أن آخذ قرارًا مصيريًّا: إما أن أسايرهم وأضخ أموالًا تتناسب مع نصيبي، أو أن أعرض أسهمي عليهم ليشتروها. وقتها تذكرت ما أكده أونكل يسري بأن الدنيا مغامرة. لعل ما شجعني أيضًا كان ذلك الصعود المدهش لأمين والثراء الذي أصابه والذي طالما حدثنا أن سببه الأصيل هو إقدامه وقناعته بأن المخاطرة المحسوبة عظيمة المردود.

حين شرعت في بيع المتبقي لي من الإرث الذي تركه أبي لم أعبأ بتحذيرات أخي. حينها اتهمني بالجنون والجموح، فتأكدت أن دافعه غيرة ممّا سأصيب من ثروة فاتته بخروجه من الشركة. وضعت كل ما أملك بالشركة وانتظرت المردود الذي سيضعني في قوائم أثرى الأثرياء. أتذكر الآن بقية نصيحة أبو أمين:

- الدنيا مغامرة؛ بس ما تغامرش بكل اللي معاك. دايمًا سيب حاجة للي مش محسوب!

جاء غير المحسوب سريعًا، فلم تمضِ أشهر هذه المرة إلا وطالب الأجانب من جديد بزيادة رأس المال من أجل "فرصة" ادّعوا أنها لن تتكرر، لعبوا لعبتهم كما حذرني أخي:

- جيوبهم أعمق بكثير من جيبك. مش هاتقدر تجاريهم.

ألوم أخي لأنه لم يصر ولم يُلح لكي أنصت له؟ ألقى بوجهة نظره تلك وتركني دون أن يحسن تحذيري من العواقب. أظن أنه كان به غيرة من احتمالات نجاحي فتركني لما سيطر على فكري دون أن

يحاول منعي ممّا أقدمت عليه. أحكم الأجانب خطتهم فلم يصبح أمامي سوى البيع لهم بالسعر البخس الذي أملوه. وحين قبضت ما دفعوه لم أحتفل كما ظننت أني سأفعل، وارتفع الصوت القديم من جديد:

- فكر في كل الاحتمالات، وما تبتديش تحتفل قبل الميعاد!

أزالت تلك الذكرى شيئًا من المذاق الحلو الذي كان على طرف لساني، فعدت إلى أجواء اللعب التي بعدت عنها. أنظر حولي فأستعجب من الحظوظ التي أصابها أصدقائي. ذات يوم كنتُ أنا بطلهم والذي يشير إليه الناس؛ ذات يوم كان يطلق عليهم "شلة عزيز"، وكان أخي يُعرف بأنه "أخو عزيز". لا يهمني أننا أصبحنا الآن شلة أمين، وأنني حين أُقدَّم إلى الغرباء فإنهم يسألون عن صلة قرابتي بأخي. ما زلت أرى نفسي بطلًا، وما زالوا هم مَن يجب عليهم أن يتطلعوا إليّ. لا أجد في نجاح أمين ما يدعو إلى الاندهاش، ولا في نجومية هدى، أو في شهرة إبراهيم ما يغشى سطوعي يوم كنت ساطعًا. أعرف في قرارة نفسي أن لحظة صعودي من جديد لأتبوّأ المكانة التي أستحق قادمة لا محالة. ولعل الليلة هي بدايتها، حين أتوج فائزًا.

لم أعش إلا مرة الخسارة بالضربة القاضية، ولكن دائمًا بعد جولة أو جولتين أعود وأمسك بزمام الأمور. دائمًا ما كانت إحدى عبارات أونكل يسري تستعيدني كل حين:

"في لحظة هاتعتقد إنك انتهيت فتلاقي ورقة جديدة بترجعك أقوى من الأول. اتفائل دايمًا بالورقة اللي جاية واوعى يوم تخللي اليأس يغلبك".

ورقة واحدة ندمت عليها طوال حياتي، أو لعل الأوراق التي تلتها لم تستطع أن تنسيني إياها: هدى!

ظننت في أوقات كثيرة أنني انتهيت من نسيانها ومواراتها في غياهب قلبي، ولكني كنت أخادع نفسي. تعددت مغامراتي ولكن لم تستطع واحدة ممّن حظين بي أن تدنو من مكانة هدى في وجداني. أوقات كثيرة حاولت أن أستكين إلى أقرب البديلات ممّن رافقنني رحلتي، لكن كل محاولاتي لم تكن سوى سراب، وكلهن ما كن سوى ظلال باهتة لإطلالة حبي الأول.

"ساعات مش هاتقدّروا اللي في إيديكم وبعد ما يفوت الأوان هاتندموا إنكم فوتوا الفرصة".

بالتأكيد نسيت هدى هذه الكلمات التي سمعناها معًا في ذات اللحظة، نسيتها حين قررت الابتعاد واختار كل منّا دربًا مختلفًا. وبالتأكيد أيضًا أنها لو تذكرت هذه الكلمات لشعرت بغصة للفرصة التي تلاشت. وليتها تعرف أن الفرصة ما زالت حية وأنني أود استعادتها إن بادرت هي بأية بخطوة.

أتمعن في أوراقي مرة أخرى وأنقل نظري بينها وبين تلك التي تستلقي على الطاونة. أوازن بين جدوى رفع قيمة الرهان الآن وبين

ضرورة الهدوء والانتظار حتى يظن الآخرون بضعف فرصتي قبل أن أنقض عليهم. غبطت نفسي وأنا أقرر ألا أتبع جنوحي المعتاد نحو المغامرة أو التهور كما يصفني المقربون إليّ. لن أُعجل بالقاضية ولكنني سأحسن الاستعداد لها ليسقط الجميع إثرها دون أمل في نهوض مرة أخرى.

أنظر إلى وجه أمين فأراه غائبًا في شروده. أكتم ابتسامتي حتى لا تفضح عمّا أخفيه، فأنا أعلم يقينًا ما سبب شروده. لم أحب النبرة المتعالية التي كست صوته حين تكلمنا بالأمس. نسي صداقتنا، وتحدث بلهجة آمرة يملي عليّ ما هو بصدد القيام به، وكأن عليه واجب الإخطار ولي اختيار الموافقة أو الرفض. لن أخسر من جديد، لا لأمين ولا لغيره. سأغامر بحسابات مضمونة وسأنال ما أريد.

اليوم صباحًا بدأت خطتي، وها هو المساء يفصح على استحياء عن بشائرها!

لو عُرض عليّ سيناريو فيلم يحوي تفاصيل قصة انحمل لرفضته. وستكون أسبابي أن دراما القصة مبالغ فيها إلى حد اللا معقول. لن يصدقها المشاهدون، وقد تصير موضع سخرية النقاد والمثقفين. سيقولون إن مؤلف السيناريو ما زال متأثرًا بأيام ولادة السينما الأولى التي لم تعُد تلائم زمننا.

كانت بداية التعارف بيني وبين طلعت في افتتاح أحد أفلامي نهاية التسعينيات. كنت حينئذٍ واحدة من أهم النجمات، وكان هو أحد رجال الأعمال الذين تصفهم الجرائد باللامعين. لم أرتبط بعلاقات عاطفية منذ انتهاء علاقتي بعزيز، ربما لانهماكي في العمل، أو لأن كل مَن حاولوا التقرب إليّ كانوا يطاردون فكرة الوصول إلى سرير النجمة لا قلبها. أول ما جذبني إليه كان عدم انبهاره بنجوميتي فلم يعبر، كما اعتاد أغلب الرجال، عن إعجابه بي وبجمالي وأناقتي، حين تطوّع أحد أصدقائنا ليُعرف كل منّا بالآخر. لم تطل وقفتنا ذلك اليوم، استأذن بأدب جم في معاودة الاتصال وهو يطلب رقمي..

لا تشغل البال بماضي الزمان

ولا بآتي العيش قبل الأوان

واغنم من الحاضر لذّاته

فليس في طبع الليالي الأمان

بخـط منمـق جميل زينت كلمـات الخيّام باقة الـورد الحمراء التي تسـلمتها مديـرة منزلـي. حاولت أن أعرف مَن أرسـلها لكنـه لم يترك إشـارة إلى شـخصه. لـم تطل حيرتي فسـرعان ما دقّ هاتفـي وجاءني صوته واثقًا:

ـ الـورد الأحمر وشِـعر الخيّـام لازم يحصل بعدهم لقاء، نتعشـى النهارده مع بعض؟

ولـم يكن لفتاة أن ترفض مثل هذه الدعوة الرقيقة. في أفخم فنادق القاهـرة انفرد بي في ركن مطعمه الأشـهر. حدثني عـن حياته وعائلته وزوجتـه وكأنـه يعلمنـي أنه جاء بحمـلٍ ثقيلٍ لا ينـوي أن يتخلى عنه. لا أعـرف كيـف اسـتطاع أن يجعلني أتحـدث أنا أيضًا عـن حياتي، إذ وجدت نفسـي أشـركه بما اعتدت أن أحتفظ به في صندوق أسراري. انجذبـت إلـى نضوجه ودماثتـه، وكان أكثر ما أعجبنـي هو ذلك القدر الظاهـر من عدم اكتراثـه بنجوميتي. أشـعرني بأنه يريـد أن يتقرب من الإنسـانة البسـيطة، لا النجمـة الشـهيرة. تركنـي ليلتها حائـرة حين لم يقترح لقاءً آخر قريبًا.

لكـن اللقاءات توالت في أماكن تخلو مـن الأعين وفضولها. كلما التقيتـه، ازداد تعلقي به. أحببت احتواءه لي واهتمامه بتفاصيل لم أعتد أن يهتم بها أحد. كان في نحو الستين من عمره، وكان فارق السن بيننا يغمرني بشعور أمان كنت تواقة له.

ـ نتجوز؟

لم أُفاجأ بطلبه، إذ بدا ذلك هو المسار الطبيعي للعلاقة التي نشأت بيننا. أخرج من جيبه خاتمًا ماسيًّا ضخمًا وهو يحيطني بشروط زيجتنا:

- جواز عرفي لأني مش هاقدر في الأول أعلنه لمراتي وأولادي.. بس أوعدك إن ده مش هايطول!

قدّرت موقفه، بل رأيت أن عرضه كان مناسبًا لي. لم أُرِد أن أبدو في زيجتي الأولى، كمَن تخطف أزواج الأخريات. لم أُرِد أن يظن جمهوري أنني أفسدت حياة أخرى مستقرة.

مرّت ستة أشهر ذقت فيها السعادة الصافية الخالية من شوائب الخوف والقلق. رافقته في سفريات عمله إلى أورُبا وأمريكا. كنت أتوق دائمًا لمجاورته في مقعد طائرة واحدة، بينما كان يتحاشى هو بدقة متناهية هذه الاحتمالية، حتى لا تلوك الألسن سيرتنا. كادت لقاءاتنا في مصر تنعدم، لكنه كان يعوّض ذلك بحضور يومي دائم بالاتصالات والهدايا وباقات الورد التي أصبحت البداية الملونة لكل أيامي.

ثم جاءت اللحظة الفارقة، لم يرسل لي باقة الزهور، فاتصلت قلقة لأستمع إلى صوت ابنه باكيًا يُعلن لي نبأ رحيله. توفي فجر اليوم الذي نويت أن أخبره فيه بأنني أحمل بذرته. عرفت بحملي قبل رحيله بنحو أسبوعين ولكني احترت كيف أخبره، وحين استقر بي الرأي على ذلك اليوم، كان للقدر قرار آخر يلغي أي قرار سواه.

ـ مصيبة يا عايدة.. مصيبة.. أنا حامل.

صديقتي التي كانت تعلم بزواجي هي مَن استطعت أن أبوح لها بمأزقي. تولّت هي التفكير والتدبير عني، بعد أن شلّت الصدمة عقلي وخدرني الحزن. سرعان ما عادت إلى القاهرة، وأقامت معي في بيتي، تشاركني التفكير وتتشاور معي فيما سنفعل، وكأنها هي صاحبة الشأن والمكلومة لا أنا. وحين اقترحت أن أسارع بالسفر إلى ناديا، بعد أن تتصل هي بها وتشرح لها الموقف كاملًا، وافقت على مقترحها، إذ لم يكن أمامي من بديل.

استقبلتني ناديا بحضن شديد الدفء بدّد شعوري بصقيع مطار ستوكهولم. فقدت السيطرة على دموعي التي تدفقت بينما أحكي لها القصة مرة أخرى وأشكو لها مخاوفي وأوجاعي، وهي تستمع بإمعان المعالِجة النفسية المتمرّسة التي ذاع صيتها في بلد أمها بعدما دفعها بلد أبيها للهجرة إليه.

ـ البدائل المتاحة صعبة قوي يا هدى.

أصابت ناديا فيما توصلت إليه. فاختياراتي كانت إما الإجهاض أو فقدان خيط واهن يربطني بحبيب رحل والاحتفاظ بطفل سيرفض المجتمع وجوده. بل لن أستطيع تفسير مجيئه أو إثبات شرعيته؛ فأكون قد أحضرته إلى عالم سيبقى منبوذًا بين أبنائه الذين سيصمونه بابن الحرام.

ـ في بديل أخير، تولدي هنا وتعرضيه للتبني!

فكـرة عرض ابن رحمي لتربيـه غيري أفاضت مزيـدًا من دموعي. لا أذكـر كم مرّ من أيام وأنا في هذه الحالة. لم أعد أحاول التوقف عن البكاء وكأن الدموع غدت جزءًا من سلواي.

ـ نروح للدكتور برضه تسمعي رأيه.

فحصني طبيب أشقر شاب بعناية شديدة، وقال:

ـ الجنين في حالة ممتازة.. سأحتاج أن تتابعي معي مرة كل شهر.

بدا على وجهه الانزعاج حين ردّت عليه ناديا:

ـ تفكر في الإجهاض!

ـ من حقها.

ثم نظر إليّ متسائلًا:

ـ هل قرارك نهائي؟

أردت أن يحاورنـي، وأن يحاول إبعاد الفكرة عن رأسـي، فوجدته يتعامل على أنه قرار قد اتُّخذ بالفعل.

سألته وكأني أستنجد به ليوقفني عمّا نويت الإقدام عليه:

ـ هل توافق على قراري؟

ـ هو قرارك، هو جسدك وحريتك، أكيد لكِ أسبابك!

كانت ردوده الباردة تتلاءم والطقس السويدي القارس. قال لي إن حرية اختياري مقيدة بمدة معينة يحددها القانون. عدة أسابيع من عمر الجنين بعدها يجب أن أحصل على موافقة لجنة من وزارة الصحة، وأن أبذل جهدًا لأقنعهم بأسبابي للإجهاض.

ـ متبقي لكِ أسبوعان على تلك المدة.

عدت منكسرة إلى بيت ناديا وهي تحاول أن تسري عني. فشلت محاولاتها في صرف ذهني عن القرار الذي يجب عليّ اتخاذه. بعد أن انتصف الليل بقليل بدأت أتصبب عرقًا غزيرًا، شعرت بعدها بوجع شديد في صدري. تسارعت أنفاسي وتوقفت للحظات ثم عادت تتلاحق وتتكالب على صدري. اشتدت آلامي فعمدت لكتمان أنيني، لكن صرخة أفلتت من حنجرتي رغمًا عني، فاستيقظت صديقتي وانتبهت لمعاناتي.

نقلتني الإسعاف إلى المستشفى. أظنهم أعطوني كثيرًا من المهدئات جعلتني لا أشعر بما حولي. مع انتصاف اليوم رافقت ناديا طبيبًا صارم الملامح لزيارتي في الغرفة، وبادرني يقول متأسفًا:

ـ للأسف فقدنا جنينك.. لم يتحمّل ما مررتِ به.

تساءلت بصوتي الواهن:

ـ أزمة قلبية؟

ـ هل مررتِ بحزنٍ شديدٍ في الفترة الماضية؟

ردت ناديا بدلًا مني:

ـ فقدت زوجها وكانت تحت ضغط نفسي شديد منذ رحيله.

زال عـن وجهـه بعض من الصرامة وتبدّلت ملامحه إلى شـيءٍ من الرفق:

ـ لم تُصابي بأزمة قلبية رغم أنكِ مررتِ بكل أعراضها، الحالة التي عانيتِ منها توصيفها الطبي: متلازمة القلب المكسور..

انتبهت إلى الورقة التي ألقاها أمين فوق الطاولة، صائحًا:

ـ بطّلي سرحان يا هدى والعبي.

دقّقـت النظر إلى الورقة، ثم تطلعت إلى وجه إبراهيم، كأنني كنت أخشـى لو اطّلـع على مخزون أسـراري فأعـاد تطويعها بقلمـه البارع وأزال عنهـا مـا بها من دراما مبالغ فيها، وفضـح ما فيها في نص روائي يقرأه الجميع.

تغلّبت حالة الصمت على الجميع منذ انتهت هدى من قصة الحجاب والمنتج السينمائي. أدرك - بحكم دراستي وممارستي لعلم النفس - أنه أحيانًا يُنظر إلى الصمت على أنه اتصال مهم على عكس ما يظنه كثيرون من أنه انعزال وانفصال. اللعب جعلنا جميعًا في حالة تركيز في تفاصيله، لذا لم يكن للكلام حيز كبير. تفرّست في وجوه أصدقائي الملتفين حول الطاولة فتذكرت تلك العبارة التي قالها أونكل يسري تلك الليلة التي انتهت بوفاته. قال إن البوكر هي الحياة التي نعيشها، تسير كما تسير الحياة وتختلط مجرياتها على نفس النهج والأسلوب. لا بد أن كلًّا منهم، في هذه اللحظة، يستعيد بعضًا من تجربة حياته، بينما يخطط لخطوته التالية مع أوراق اللعب.

ركزت أنا أيضًا في اللعبة وطردت من ذهني الذكريات التي ظلت تحاول التسلل إليه. لا بد لي من أن أفوز لا لشيء إلا لأنني الأجدر بذلك المنصب. نعم، فبحكم معيشتي في العالم الأكثر تمدينًا أنا قادرة على تدوير مؤسسة العمل المجتمعي أحسن من أيٍّ من الجالسين حولي. سأستطيع بمهارة أن أنقل ما تقوم به شعوب لها باع في ذلك إلى شعوب تخطو خطواتها الأولى في ذلك المجال. ثم إنني أكاد أكون مَن أشعل فتيل الفكرة في ذهن أمين حتى ظننته سيقترحني رئيسًا دون حاجة لاقتراح عزيز أن نلعب على المنصب. لكن لا بأس، سأجاريهم وألعب وأخادع وأنا أكاد أكون واثقة من النتيجة: ناديا رئيسة المؤسسة!

رئيسة للأسباب الصحيحة والمنطقية. رئيسة لا للوجاهة ولا المظهرية ولكن رئيسة براجماتية بخلفية أورُبية قادرة على التحقق والتحقيق.

كم أتمنى لو استطعت الكشف عمّا يدور بأذهانهم واحدًا واحدًا. بي قدرة طبعًا بحكم تخصصي على ذلك ولكني أتمنى أن أطّلع على ما بأذهانهم كاملًا من أجل الفوز. داعبتني تلك الفكرة حتى أيقنت أيضًا أنه لو حدث ذلك لربما صارت لديّ مادة كاملة ومبتكرة لورقة بحثية تُلقى على مسامع علماء النفس في أحد مؤتمرات الجامعات الغربية الكبرى التي أُدعى إليها.

حين هاجرت إلى السويد، أكملت دراستي في علم النفس، حصلت على درجة الماچستير في وقت قياسي. أصر جوستاف، الذي صار زوجي فيما بعد، أن أتقدم للحصول على درجة الدكتوراه. كان يردد دائمًا: لقد ولدتِ لتكوني معالجة نفسية. نجحت أكاديميًّا وحصلت على الدكتوراه وتوالت الأبحاث التي جعلت لي اسمًا ساطعًا في المؤسسات العلمية، ودفعت كبرى الدوريات المتخصصة للسعي إلى نشرها. ومع هذا النجاح صرت واحدة من أشهر المعالجين النفسيين في ستوكهولم.

لكن لم يكن حدسي بأن كل مَن حولي تداعبهم ذكريات الماضي إلا لأنني أنا نفسي كنت غارقة في تلك الذكريات.

- نورتي مصر.

كانت سعادتي غامرة حين سمعت ضابط الجوازات ينطق بهذه العبارة ويبسط لي يده ليعيد إليّ جواز سفري. لم ترحب بي مصر لزمن طويل، ضنّت عليّ أن أحزن لرحيل أبي حين جرفتني في دوامة لم تخطر لي على بال ولم تكن في حسباني.

وكأن ابن عمي، الذي صار بحكم قضائي شريكًا فيما ظننته حقًّا خالصًا لي ولأمي، استعد لليوم الذي تؤول إليه نصف ثروة أبي. تبجّح وهو يحكم قبضته على زمام الأمور في الشركة ويفرض نفسه آمرًا ناهيًا في تفاصيل العمل اليومي. كنت أواصل الذهاب إلى المكتب يوميًّا برفقة أمي كما اعتدنا دومًا. لم أتصور أن يتعدى شريكي الجديد الحدود إلى هذا القدر يوم طلبني وأمي لاجتماع في مكتب أبي بعد أن استولى عليه واتخذه مقرًّا له. بدأ حديثه مستعرضًا أحوال العمل معلنًا أنه بصدد تطبيق ما سمّاه تحسينات ضرورية في أساليب الإدارة. لم يُطل في حديثه قبل أن يلتفت لأمي متبجحًا، ليقول بصلفٍ وغرور:

- حضرتك مش محتاجة تتعبي نفسك وتيجي المكتب تاني!

لم تحتمل أمي هذه المرارة، أن يمنعها غريب عن الكيان الذي باشرت بناءه من اللاشيء. منذ وفاة أبي وما تبعها من أحداث وصدمتها فيما آلت إليه الأمور ازدادت كراهيتها لمصر وقوانينها القاسية. قضت مرارة الظلم الذي تعرضت له على حبها للبلد الذي ظنت أنها ستقضي به بقية سنين حياتها. وجدت نفسها مستضعفة وسط أناس لم يروها

إلا امرأة أجنبية على غير ملتهم، لافظين محاولاتها لأن تكون واحدة منهم. أظنها اختارت أن تكون آخر كلماتها باللغة العربية:

ـ أنا هارجع السويد، مش هاجي تاني البلد دي.. أبدًا.

سافرت أمي وتركتني مسلحة بما ورثته عنها من عناد وقوة إرادة. قررت ألا أصحبها، وأن أبقى لأدافع عن حقي، بل قررت أن أحاول استعادة ما سُلب مني.

تبددت بعض العتمة التي كانت تكتنفني حين بدأ علاء يتقرّب إليّ. بدا لي الساعد الأيمن لأبي شابًا أصيلًا ذا نخوة وشجاعة، قرر الانحياز إلى صفي في مواجهة طغيان ابن عمي. أمدّني وجوده بالقوة والثبات، تشاورت معه في كل خطواتي، أصبت أحيانًا بالاحتيار في بعض الإشارات التي أرسلها إليّ، فدق قلبي على استحياء لخربشاته.

أعددتُ نفسي لصراع طويل مع ابن عمي ولكن خاب توقعي!

صرت أعرف الآن لماذا يتهمون الشباب بالسذاجة ويسهبون في فضل الخبرة وأهلها. لم أدرك أن للبشر هذا القدر من الكذب والخداع. كلما استرجعت أحداث أيام ما قبل هجرتي من مصر ذُهلت من سذاجتي والفخ الذي نُصب لي. لا أستطيع حتى اليوم أن أنسى ذلك المشهد حين دخل علاء إلى مكتبي وعلى وجهه أمارات القلق والاضطراب:

ـ ناديا.. أنا عايزك تسافري من مصر بكرة لو تقدري.

ـ ليه؟ حصل إيه؟

ـ البنك رافع قضية عليكي علشـان القرض والنهارده أرسـلوا إنذار بالحجز على ممتلكاتك.

ـ القرض على الشركة يا علاء.

ـ لا القرض شخصي باسمك وبضمانات شخصية عليكي.

ـ بس أنا مامضيتش على حاجة بالمعنى ده.

ـ اسـمعي كلامـي دلوقتـي وانـا هاتابـع مـع المحامي، مـا ينفعش تفضلي هنا وتتعرضي للبهدلة اللي هاتحصل.

يكتمـل المشـهد بوجهـه يودعنـي في مطـار القاهـرة بعـد يومين، وعدنـي بألا تطول غيبتي وأنه سـيعمل كل ما يجـب بموجب التوكيل الذي جررته باسمه بعد سفر أمي. أعاد تأكيده عليّ كي أستخدم جواز سفري السـويدي في الخروج. ونسيت يومها أن أخبره بأنني طلبت من المحامـي أن يرفـع قضية علـى البنك يدعي فيها تزويـر توقيعاتي على أوراق القرض.

حين التقيت أمي في مطار ستوكهولم، وبعد أن أطالت في احتضاني همست في أذني متأسية:

ـ مصر لا تحبنا يا عزيزتي، لا تتعلقي بمَن يلفظك!

حين اتصلت بالمحامي بعد وصولي عرفت الحقيقة:

ـ أوراق البنك سليمة يا ناديا، القرض تم بموجب توكيلات للمهندس علاء.

وكأن هذا الخبر لم يكن كافيًا لصمتي فعاجلني بما تبقى:

ـ في أمر ضبط وإحضار باسمك والنائب العام أصدر قرار بمنعك من السفر وترقب وصولك إن كنتِ بالخارج.

عاندت لسنين طويلة، وأنفقت الكثير على أتعاب المحاماة بينما كنت ما أزال ممنوعة من دخول البلاد. لم أعد أصارع من أجل استعادة حقي المغتصب، وإنما أيضًا لأرد التهمة التي جعلت مني مذنبة في عين العدالة. مع مرور الوقت ووضوح الرؤية، وإدراكي أن قضيتي خاسرة، صار لزامًا عليّ أن أرفع رايتي البيضاء وأستسلم للحل العقلاني الوحيد. قبلت ما عرضه علاء عليّ بعد مغادرتي البلاد بأسبوع واحد:

ـ تتنازلي لي عن أسهمك في الشركة وأنا أسوي الموضوع مع البنك.

ما زال علاء شريكًا لابن عمي فيما أصبحت واحدة من كبريات المجموعات الاقتصادية في مصر. وما زلت أيضًا أقهقه كلما تذكرت ما أخبرني به أمين ذات يوم:

ـ الاتنين ما بيكلموش بعض بقالهم كذا سنة.. بيروحوا نفس المكتب من غير ما حتى يقولوا لبعض صباح الخير، احمدي ربنا إنك طلعتي من وسطهم سليمة.

أنا سعيدة بسلامتي، وراضية بما حققت. فقط أفتقد جوستاف، عام كامل مرّ على رحيله الآن. لم يرحل إلى عالم الأموات بل إلى حيث قرر أن يقضي ما تبقى له في هذه الحياة. التحق بطائفة دينية في الهند رأى في تأملات أعضائها وعزوفهم عن الحياة ما يلبي حاجاته الروحانية.

استعدت وعيي باللحظة الآنية، وأعدت النظر إلى ورقي، حاولت جاهدة تكوين مجموعة فائزة مع ما صار مكشوفًا فوق الطاولة. أوراقي ضعيفة، منقطعة الصلة ببعضها بعضًا. وحين ظهرت الورقة الرابعة بغير علامة "الدياموند"، أضعفت ما تبقى بي من أمل.

بأوراق مثل هذه التي أحملها غالبًا ما يطوي اللاعب أوراقه مفضلًا الانسحاب وانتظار حظوظ أفضل في الأدوار التالية. هنا على هذه الطاولة أستطيع أن أحرر قدراتي الخداعية التي تتقيد في مناحي الحياة الأخرى لتلعب بدلًا من أوراقي الضعيفة. تذكرت انفعالي وغضبي ذلك اليوم البعيد حين قال أونكل يسري:

"ساعات ورقك هايبقى سيئ جدًّا لكن هاتمثل إنه الأقوى، وتخدع اللي قدامك وتخليه يظن إنه أكيد خسران فيستسلم لك".

هل كان سيصدق أنني صرت ملكة الخداع في هذه اللعبة إن كان ما يزال يعيش بيننا؟

كانت الإثارة تغمرني كلما أقدمت على نصب فخاخ خداعهم. صوّبت نظري إلى كلٍّ منهم لثوانٍ معدودة، نظرة ملؤها التحدي الفج الصريح، قبل أن أدفع بكل ما تبقى أمامي من فيش إلى منتصف الطاولة:

ـ هاراهن بكل اللي معايا!

ورقة أخيرة

تحولت ملامح أمين إلى الذهول التام، بعدما اندفعوا جميعًا يماثلون رهان ناديا المتهوّر، ليستلقي الفيش كاملًا فوق الطاولة. لم يكن في حسبانه أن تمضي الأمور على غير ما خطّط لها. حساباته كان لا بد أن تُقصي لاعبًا أو اثنين أو ربما ثلاثة، ثم يستمر اللعب لثلاثة أدوار أخرى تنتهي بفوز مَن اختاره. خطّط لأن يحسب كريم أن له فرصتين ليفوز في حال كانت الورقة الأخيرة تحمل رقم سبعة أو صورة الملكة. وتعجّب حين تجاهل صديقه الذي يعشق المعادلات مخاطرة أن يكون لدى مَنْ يجاوره أوراق تُشكل مجموعة أقوى من مجموعته. يعلم أن إبراهيم لديه ورقة التسعة التي تماثل نظيرتها الملقاة فوق الطاولة، وبالطبع لم تكن تلك بكافية حتى يغامر بكل ما يمتلك من فيش كما فعل. أوعز إقدام عايدة بسعادتها أن مجموعتها بها ملكين ممّا دعاها للاستمرار دون تفكير مطول. عزيز كان الوحيد الذي لم يفاجئه برد فعله، إذ أدرك أنه واثق، دون أي حذر كعادته، بأن الورقة الأخيرة ستكون الملكة معلنة فوزه. ولم يكترث بتحليل أسباب هدى للمغامرة على هذا النحو أيضًا، فقد لاحظ منذ بداية الدور عدم

تركيزها. أما ناديا فقد كانت ما بين ممارسة الخدعة وبين الأمل في أن تحمل الورقة الأخيرة علامة لها "الدياموند" فتفوز بمجموعة متماثلة العلامات.

في هذه المرحلة من اللعبة وقبل نزول الورقة الأخيرة الفاصلة، عادة ما يكتنف الطاولة مزيج من الترقب والتوتر. تصبح الإثارة في أعلى درجاتها، إذ ينتظر اللاعبون الورقة التي ستتوج أحدهم وتخيب رجاء الباقين. لكن لم تكن تلك هي الأجواء التي تحيط بالأصدقاء السبعة. وبدلًا من الإثارة والترقب، تملك أغلبهم شرود وابتعاد عن أجواء الدور الأخير في لعبة يجيدونها جميعًا. غاص كل منهم في أفكار أطلقتها أوراق "الكوتشينة" التي تتابع نزولها.

حتى أمين نفسه، توارى شعوره بالمفاجأة، جراء الخيارات التي لجأ إليها أصدقاؤه، وراء ذكرى استمرت في الإلحاح على عقله منذ اتخذ مقعده حول الطاولة. لم تكن ذكرى من ماضٍ بعيد، بل من عدة أشهر فقط، ولم تكن مريرة بل شديدة العذوبة، ذكرى واحد من أحلى أيام عمره!

هي المرة الأولى في حياته التي يصل فيها إلى مطار دون برنامج مضغوط لوقت الذي سيقضيه بالبلد الذي هبط على أرضه. ولكن لأن هناك دائمًا مرة أولى لكل شيء، فقد وصل إلى مطار برشلونة في جنح الليل على متن آخر طائرة قادمة من لندن.

يحب المدينة وأضواءها التي تحتفظ برونق هادئ غير مبهر، لا يقلل من شباب ونبض الحياة التي اختارت أن يكون سمتها. من نافذة غرفته أطل على شارعها الأشهر الذي توسطه الفندق: شارع پاسياج دي جراسيا. كان يراه الأجمل في أورُبا رغم إعجابه بأوكسفورد لندن وشانزليزيه باريس. لكن هذا الشارع، دون غيره، ذو مذاق خاص تختلط فيه الأناقة المتناهية مع الشخصية المتفردة لعاصمة كاتالونيا. هي المدينة المفضلة في حياة أمين بعد لندن وقبل القاهرة. اختار أن تكون المدينة التي يأخذ فيها وقتًا مستقطعًا من أعماله حين يغلبه الإجهاد والتعب. انجذب إلى تنوّعها ورونق شبابها الدائم، لكنه لم يأتها هذه المرة هربًا من ملل أو بعدًا عن ضغوط عمل. جاءها حين عرف عن طريق الصدفة أن هدى انتهت فيها من تصوير بعض المشاهد لفيلمها الجديد وعلى وشك مغادرتها. قرر أن يفاجئها أو ربما يفاجئ نفسه بلقائهما.

- أمين! عندي بكرة يوم فاضي في برشلونة قبل ما ارجع مصر، قولي أعمل إيه بصفتك خبير!

- بكرة الصبح أبعتلك عربية بسواق يلففك البلد.

أصدر تعليماته لمساعدته بترتيب ما وعد به هدى، سيارة خاصة وسائق خبير بمعالم برشلونة. حاول أن يعاود تركيزه في عمله، لكنه لم يستطع أن يصرف عن ذهنه طيف هدى وصدى صوتها، وعند منتصف اليوم كان قد اتخذ قراره. سيطير إلى برشلونة ويقضي اليوم

إلى جانبها. أزعجته عفوية قراره لعدم اعتياده على القرارات المفاجئة غير المدروسة. تردد وتراجع عن قراره عدة مرات قبل أن يصدر تعليماته بحجز مكان له على آخر طائرة متجهة إلى درة كاتالونيا.
وخلال الرحلة حاول إقناع نفسه بأنه كان ليفعل نفس الشيء مع أيٍّ من أعضاء مجموعة أصدقائه الأثيرة. حاول وفشل في المحاولة، لأنه كان يوقن أنه ذاهب ليسعد بصحبة المرأة التي اختار أن يكتم حبها، منذ عشرات السنين.

أمضى ليلته في نومٍ متقطع. يستيقظ ليفكر فيما أقدم عليه، ثم يجاهد ليعيد نفسه إلى النوم من جديد.

مع أول أشعة للشمس نهض من فراشه وأخذ دشًّا سريعًا وبدأ الاستعداد للقائها. دقّق كثيرًا في اختيار ملبسه. بنطلون چينز وقميص قطني أحمر داكن اللون. وألقى على كتفه سترة قد يحتاجها لبرودة الطقس. نظر لنفسه في المرآة قبل أن يغادر الغرفة فسرّته هيئته الشبابية وابتسخر في سريرته من الشيب الذي انتشر في رأسه معلنًا قرب رسو مركب العمر على شاطئ الخمسين. ولم يستغرب حالة النشوة والحيوية التي اكتنفته، فقد كانت نفس الحالة التي تسيطر عليه حين يفكر في هدى كلما كان موشكًا على لقائها.

شهقة المفاجأة وصرخة الفرحة العفوية التي تبعتها حين وجدته منتظرًا إياها أمام بوابة الفندق أشجت قلبه. بدأ جولتهما ودار حديث لم ينقطع، ذهبا إلى كاتدرائية العائلة المقدسة التي لم ينتهِ بناؤها

حتى الآن رغم مرور أكثر من مائة عام منذ بدأوا في إنشائها. من هناك أخذها إلى المدينة القديمة لزيارة متحف پيكاسو، ومبنى أوپرا كاتالونيا. حين حان موعد الغداء انطلق بها إلى الميناء الأوليمپي حيث مطعم الأسماك الذي يفضله. أحاطت بجولاتهما روح تحرر وخفة لم يعهداها من قبل. استمتعا معًا بمغامرة استكشاف المدينة. كان يظن أنه خبير ببرشلونة، لكنه يراها هذه المرة جديدة تمامًا، كأنه يزور تلك المعالم للمرة الأولى، ويُفاجأ بما تحوي من سحر وجمال.

أخذها في جولة بنادي كرة القدم الذي تجاوزت شهرته شهرة المدينة التي يمثلها، وحين انتهيا من زيارة النادي ومتحفه في بداية المساء، استقلّا السيارة وانطلق أمين صائحًا:

- هانروح دلوقتي أجمل مكان في برشلونة.

حديقة جويل، مكانه المفضل في هذه المدينة. يعشق تمشيته بين أشجارها، خاصة فيما قبل حلول المساء. عند مدخل الحديقة صادفهما مَعلمها الأشهر، التنين الودود يرحب بالزائرين وهم يخطون إلى داخلها عبر درجات السلالم التي تتوسط برجيّ المدخل. هي الحديقة التي صمّمها معماري كاتالونيا الأشهر أنطوني جاودي، لتكون مشروعًا استثماريًّا، لكن المشروع أفلس فتبرع صاحب الأرض بها إلى المدينة.

كانت الشمس تلملم آخر أطراف أشعتها الدافئة استعدادًا لرحلة الغروب، مع تساقط رذاذ خفيف سرعان ما توقف تاركًا خلفه طيفًا

ضعيفًا من ألوان زينت الأفق. شعرت هدى بلسعة خفيفة من الصقيع، فأسرع أمين يغطي كتفيها بالسترة التي حملها طوال اليوم دون أن يستخدمها. منحته ابتسامة دافئة، فأطال النظر لعينيها اللتين طالما أحبهما، ثم أسرع يواري نظرته قبل أن تلحظ ما بداخله.

عيناها ورثتا جمال أعين ملكات الفراعنة كما نقلها رسامو جداريات المعابد. اكتملت روعتهما بما يشعان من حب وحياة وما امتلأتا به من شقاوة تحتضن مَن يغامر بتفحصهما. يختلط فيهما شيء من الجراءة بخجلٍ لذيذ يوقعان الناظر إليهما في غياهب بعيدة. عينان ثرثارتان لا تبخلان على مَن تختاران بكلمات عذبة تغني لسان صاحبتهما عن الكلام.

تتابعت خطواتهما وسط جمال النسق الذي أحاط بهما داخل الحديقة، تمازج الأخضر مع الأصفر والأحمر من النباتات متواطئًا مع الغيوم المتماسكة بآخر خيوط النهار كلوحة أبدع فنان عبقري رسمها. تباطأت خطواتهما وتلامس كتفاهما وهما يقتربان من نهاية الممشى المتسق المؤدي نحو بوابة الحديقة.

اكتمل تلامسهما حين مد يده ليحتضن كفها بين أصابعه. لم يخطر بباله أن نفس الشعور الدافئ الذي كان يسري في عروقه كان ينسال رقيقًا وئيدًا بداخلها أيضًا. ازداد تباطؤ خطواتهما حتى كادا يتوقفان تمامًا عن السير. التفت ينظر إلى عينيها فشعر بأنفاسها المتلاحقة تلفح وجهه وتحتضنه. علت دقات قلبه وتسارعت وهي تصبغ وجهه

بالحُمرة. لم يعُد به تردد وهو يميل عليها. لم يكن هناك مفر من قبلة خلفت ميعادها منذ سنوات بعيدة. ولم يستغرب أيهما القبلة ولا فيض المشاعر التالية لها. بل لم يشعرا بأنها قبلتهما الأولى، بل كأنهما اعتادا مثلها.

تذكر ما قرأه يومًا عن أن الحب الرومانسي يتراوح عمره ما بين ثلاث إلى خمس سنوات. هذا ما أثبته دراسات أعدها علماء ادعوا أنهم تفحصوا "كيمياء" الحب بين العشاق. وكأنه في ذاك اليوم قد حطم نظريتهم بحب تنامى في قلبه ما يزيد على ثلاثين عامًا. أما هي فقد شعرت أن حضنه قد أوحشها، رغم كونها المرة الأولى التي تشعر فيها بدفئه.

كلما تذكر أيهما ذلك اليوم، توقف تدفق ذكرياتهما عند لحظة القبلة. لم يكن ثمة غرابة شعر بها أي منهما وهما يتذوقان بعضهما. إنما كانت الغرابة في تلك الأريحية التي استشعراها فيما فعلا.

أمضيا ما تبقى من الليل يجوبان شوارع المدينة تظللهما سحابة حب ظنّا أنهما لن يبوحا به مهما طال الزمن. ولم يتردد أمين في فتح خزانة سره الكبير. حكى لها عن افتتانه بها منذ أيام المراهقة واشتياقه لها ولوعته، عاتبته لمقاومته الإفصاح عن عاطفته كل هذا الزمن. ولم يترك يديها إلا عند بوابة المطار يودعها ويعدها باللقاء التالي في لندن.

من لندن إلى القاهرة إلى روما، تشابهت أماكن اللقاءات السرية التي تتابعت بين العاشقين، بعد أن تفجّرت مشاعرهما إثر طول كتمان. حرصا على ألا يخبرا أيًّا من أصدقائهم حتى يوم تجمّعهم المعتاد ليلة رأس السنة.

لم تفارق صورتها ذهنه ساعات يقظته وأحلامه التي صارت تشبه أحلام المراهقين. حضورها الدائم ملأه بلذة صاحبتها ابتسامة تشي بالسعادة التي لم يألفها من قبل ذلك اليوم. نشوة منعشة تعتريه كلما فكر فيها. هذه المرة لم يحاول مقاومة غرامه بها ولم يحاول الانشغال بغيره. أهداها سوارًا فضيًّا نُقش عليه بيتٌ لأمير الشعراء يلخص كل ما يُكنه من أحاسيس نحوها، وحين زينت به معصمها اغرورقت عيناها بالدموع.

***

وبينما يستعيد أمين ذاك المذاق الحلو لذكرى برشلونة، كان جوف كريم يغص بمرارة الرسالة الصوتية التي بعثت بها ابنته دينا إلى هاتفه هذا الصباح:

"كل سنة وأنت طيّب يا أبي. أعلم أن هذا أول تواصل بيننا منذ قرابة العامين ولكنني وجدت أن الوقت قد حان كي نترك وراءنا ما تسبب في فراقنا. لست بصدد محاولة إقناعك بما قمت به، فأنا أعلم أن أغلب الناس يقفون في صفك. حتى بلدي إنجلترا ما زالت قوانينه تمنع ارتباطي بإليزابيث. لعلك تعلم أننا لهذا السبب عقدنا

قراننا في إسبانيا. وبرغم كل شيء، أكرر مرة أخرى أن رسالتي هذه ليست محاولة لإقناعك بما يملي عليك ضميرك وقناعاتك رفضه. قد تكون محاولة لجعلك تقبلني كما اخترت أنا لا كما رغبت أنت. لقد ربيتماني أنت وأمي على قبول الآخر، وتعلمت في بلاد تدّعي رفضها للتميز بين مواطنيها. أتفهم أن ميولي الجنسية ليست كالعرف أو المعتاد ولكني لست وحدي فنحن كثيرون. طالما تحدثت إليّ عن وجوبية اعتزازي بحريتي والتمسك بها طالما لا تتعدى على حريات مَن حولي ومن أجل هذا أستغرب موقفك: كيف لاختياري هذا أن يؤذيك؟ ولمَ يكون رد فعلك هو مقاطعتي؟

كنت لأتفهم إن اخترت أن تتجاهل إليزابيث مثلًا وتستمر علاقتنا كأب وابنته. المقاطعة تبدو لي وكأنها عقاب تظن أنه قد يدفعني للتراجع. ولأنك علمتني الصدق دائمًا، يجب أن أخبركِ بأن ضغطك غير مجدٍ، وأني إن تراجعت يومًا فسيكون ذلك لأسباب تخصني لا لإرضائك. هذا ليس تحديًا مني ولكنه تمسك بما علمتني أنت إياه. لقد أحزنني انفصالك عن أمي ولا أعتقد أنني كنت سببه. لعلي كنت عاملًا محفزًا، وقد توقعت هذا الانفصال منذ كبرت وتشكل وعيي. لقد كان زواجكما علميًا جدًّا، نحيتما فيه المشاعر التي يحتاجها أي ارتباط ليستمر. لن أقول إنكما كنتما تتشاركان حياة واحدة من أجل المشهد الاجتماعي، لكنكما تخوفتما من التغيير. أمي لم تغلق بابها بعد أن غادرت أنت، وأظنها الآن مع شريكها الجديد تعيش حياة أسعد من سابقتها.

أبي! اخترت أن أسجل هذه الرسالة كي أدعوك للعودة إلى حيث أعرف أنك تشعر بالراحة؛ إلى حيث يعرف قلبك أنها ديارك. أنا متأكدة أنك لن تجد في مصر مستقرًا، وقد اعتدت نمطًا من الحداثة لن يستطيع موطنك أن يوفر لك شيئًا منه. حتى إن اخترت الاستمرار في مقاطعتي، أرجوك أن تعود إلى إنجلترا. وإن اخترت أن تصغي لطلبي فسأطمع في أن تتواصل معي فأنا ابنتك التي تعشقك والتي لا ترى سببًا في حرمانها من وجودك في حياتها. أنت غير مسئول عن قراراتي ولن تحاسب عليها وإن كنت أخطأت فسأدفع أنا الثمن. لكنك مَن علمتني أن أتمسك بما أؤمن به فلا تغضب الآن حين أقف قوية أدافع عن قناعاتي. إن جاء اليوم الذي سأرى خطأ ما أقدمت عليه فأحتاج كتفك كي أبكي عليها. وحتى ذلك اليوم، الذي لا أظنه سيجيء، أحب أن تكون كتفك هذه في متناولي حين أحتاجها. أبي أرجوك أن تتذكر دائمًا مدى حبي لك، لذا لا داعي لفراق يزيد الأسى. عُد إليّ يا أبي وتقبّلني كما اخترت أن أكون".

أصابته الرسالة بالاضطراب، فمن ناحية أحب ما عبّرت عنه ابنته من مشاعر تكنها له، لكنه استاء من نبرة التحدي التي لم يخفها صوتها الهادئ الذي اشتاق إليه. تمنّى لو حملت كلماتها ولو مسحة اعتذار. كل كلمة نطقت بها أعلنت فيها عن تمسكها باختيارها. تمسكها بالشذوذ، الكلمة التي قرر الغرب أنها "غير مقبولة" وأن ما رفضته البشرية عبر العصور أصبح لزامًا على الجميع قبوله واعتباره طبيعيًا. وأن ما شدد

الإلـه على نبذه وحرّمه في كل الأديـان يجب تقبله والتعايش معه دون شكوى، وإذا ما أبدى أحد اعتراضًا وصموه بالرجعية وعدم التمدين.

طالمـا وضـع كريم نفســه فـي خانـة المتحررين والمؤمنيـن بحرية الآخـر، لكـن هـذا الإيمـان توقّف حيـن مدت تلـك الأفـكار معولها فهدمت بنيان عائلته. لم يجد بنفســه قـدرة على تقبل ما يجافي فطرته، وما شبّ على أنه حرام وباطل.

ولكن ابنته دقّت برسـالتها على وتر آخر أكثر حساسية وضعفًا، هو رغبته في العودة إلى ما أسمتها "الديار"، هناك حيث الحياة التي يحبها وتتلاءم مع تكوينه النفســي والعقلي. لكن هذه الحياة كيف تتسـنى له وقـد خانته ابنتـه باختيارها، لقد غادر إنجلترا هربًـا ممّا أخجله فكانت مصـر طـوق النجـاة من ثقـل هذا الشـعور. حـاول فعـلًا أن يجد تلك القدرة على التقبّل، ولـم يستطع.

أجـال بصره في وجـوه أصدقائـه، ليتيقن من جديد أنه لا يسـتطيع إطلاعهـم علـى السـبب الحقيقـي لعودتـه مـن جديـد إليهـم. تركهم يُرجعـون عودتـه إلى طلاقـه دون أن يكثروا من تسـاؤلاتهم. وجد في جرحـه الغائر راحة، وتمنى لو وجد معادلة رياضية، حتى ولو شـديدة التعقيد، ينتج عنها حل لما يعانيه.

نعـم لـم يجد راحة بعـد عودته، وفي الأغلب سـيجدها إن عاد إلى أرض الإنجليـز. لكنهـا سـتكون راحة قلقة مجروحة لا يسـتطيع معها نسـيان مروق ابنته الوحيدة. احتار تحت ضغط ما في الرسـالة من حب

وتمنٍّ، وما في نفسه من حنق ورفض. كره تحديها له واستمساكها باختيارها، وتمنى لو أنها لانت أو واربت بابًا تعود منه إلى الصواب. أزعجه موقفه السلبي بعدم ردّه على رسالتها، وأزعجه بصورة أكبر عدم قدرته على تصور كيف يرد عليها؟ اختلطت داخله رغبته في احتضانها واحتوائها، وكرهه لما أصبحت عليه وتحديها لكل ما توقن أنها ثوابت أبيها التي لا يمكنه التخلي عنها.

***

رسائل أخرى، لكنها أحلى مذاقًا، أصابت عايدة بالحيرة والارتباك. قد يعتبرها البعض رسائل عادية ليست بالمثيرة للقلق أو حتى للسعادة، لكن عايدة وجدتها مرهقة.

حين أنهى مختار آخر رسالة لها بـ "إلى اللقاء"، فهمتها أنها في الحقيقة "وداعًا". استسلمت لحزن ووحدة اعتادتهما، حتى ظهر في حياتها تلك الفترة الوجيزة التي انتهت بسفره إلى كندا. لم تتوقّع أن تكون هناك رسالة تالية منه يقول فيها دون مواربة:

"وحشتيني قوي".

قضت يومًا كاملًا تفكر في رد مناسب. أرادت أن تصرخ في وجهه: جرحتني! وفكرت في أن تقول: ماذا تريد الآن؟! لكنها في النهاية تركت أصابعها تكتب: "وانت كمان وحشتني قوي"!

لم يحتج دعوةً للعودة إلى حياتها، إذ بدا أنه يملك كل مفاتيح الولوج إلى قلبها وعقلها. عاد ما بينهما أقوى ممّا كان عليه. جاء من

كندا ليراها بعد أن ازداد شوقه إليها إلى حد لم يحتمله. ولم يُخفِ عنها سبب رحيله المؤقت إلى كندا:

ـ كنت فاكر إنك كرهتيني في اليوم ده، حسيت إني تجاوزت وإنك خلاص هاتسيبيني..

قال إنه ظنها علاقة عابرة، ولم يتوقع أن ينشغل بها قلبه كما اكتشف بعد سفره.

ـ افتكرت إني كبرت على الحب لكن واضح إن الحب مالوش كبير!

استمر في حالة انتقال ما بين مونتريال والقاهرة، لكنه لم يدعُها مرة أخرى لزيارة بيته، كما لم تقُل له إنها صارت مستعدة لهذه الزيارة. وخلال فترات سفره لا تنقطع اتصالاتهما يومًا. كرّر عليها رغبته في الانتقال إلى كندا حيث يجد الحياة أكثر راحة ويأنس بقرب ابنته وحفيده.. كانت معه يتوقف بها الزمن وتتحول إلى تلك الفتاة الصغيرة الولهانة بأول حبيب يطرق بابها. إلى أن طلب منها ما انتظرته ذات يوم:

ـ نتجوز ونسافر على كندا!

اقتراح طبيعي يتوّج ما أصبح بينهما لولا أنه لم يعرف بكل تفاصيل الرسائل الأخرى التي تلقتها. فقد تزامنت عودته مع عودة خليفة إلى حياتها. كانت قد اعتادت جفاءه ولم يعُد يحزنها إهماله لها وعدم

اهتمامه. لكن كل هذا الحزن تبدّد يوم بادرها بكلمة دافئة لم تعتد مثلها منه:

ـ كيفك يا أمي، لكي وحشة!

ثم توالت مكالماته، وشاركت في بعضها زوجته، حتى غدا التواصل بينهما يوميًّا. أفرجت عن كل مشاعر الأمومة التي حبستها سنوات بُعده عنها. بعد عدة أسابيع من الاتصالات اليومية ظنت خلالها أنها تستغرق في حلم طويل، كان دائم الإلحاح محاولًا أن يدفعها لزيارتهم وقضاء بضعة أسابيع بينهم. وحين لمس عدم حماسها، أغراها بما لم تستطع مقاومته:

ـ علشان تتعرفي على أحفادك يا أمي: فهد وعايدة.

لا تتمالك دموعها حين تتذكر أنه سمّى ابنته باسمها. طارت إلى هناك مرة أخرى بعد أن ظنّت أنها لن تطأ تلك الأرض من جديد. حلّقت في الفضاء بينما تحتضن حفيديها وتلثمهما، فيما داعبت عايدة الصغيرة خصلات شعرها بأصابعها الصغيرة. أحسنت زوجة ابنها استقبالها وعاملتها كبنات الأصول، وكما لم يعاملها أهل زوجها من قبل.

ومثلما قسّم مختار وقته بين مونتريال والقاهرة، قسّمت وقتها بينه وبين خليفة وأبنائه. واستطاعت أن ترى ما في ابنها من حب وحنان كان مكسوًّا بغبار غضبه لأنها تركت والده في أيامه الأخيرة. ثار على

تمردها وخروجها على تقاليد أهل والده حين طالبت بحقها في الطلاق.

تفهّم مختار سعادتها وهي تحكي له عن ابنها وزوجته وأحفادها. كرّر طلبه منها أن ترتب له لقاء بابنها كي يطلب يدها. تحاشت الرد على طلبه مرات وهي توقن أن مثل هذا اللقاء سيكون كفيلًا بمحو أي آثار للسعادة التي تسللت إلى حياتها منذ صار لها ابن وحبيب يملآن كل دقيقة في حياتها. شعرتْ بخيبة أمل مختار تتزايد بعد أن كرّر مطلبه دون إجابة، فأطال غيابه لدى ابنته. أدركت أنها لا بد وأن تتخذ قرارها. أي قرار ستكون مرارته أكبر من حلاوته. خليفة لن يقبل أن تتزوج لأنه يؤمن بأن دورها في الحياة أصبح يقتصر على دور الجدة التي تدلل أحفادها وتحفظ ذكرى جدهما. لن يفهم أنها ما زالت تملك فرصة لتحيا وتتشبّع من مباهج الدنيا. لن تستطيع أن تقنعه بأنها قادرة على أن تحب وأن ترتبط بمَن اختاره قلبها، ويوم توقّع قسيمة زواجها سيكون اليوم الذي تنتهي فيه علاقتها بابنها وأسرته التي تعشقها بلا حدود.

أقلقتها رسالةً من مختار وصلتها صباح اليوم، رسالة اختلط فيها الحب برغبته في حسم ما استمرت تراوغ بشأنه:

- كل سنة وأنتِ طيبة يا حبيبتي، الوقت بيجريْ ومن حقنا نستمتع باللي بنحبه، الأيام اللي بتفوت مش هاترجع والتضحيات ما تنفعش تفضل من جانب واحد، أتمنى السنة الجاية تكوني جنبي بصفة دايمة، باحبك قوي يا عايدة وباتمنى أقضي اللي باقي في حياتي وانتي معايا.

كلما أمعنت في قراءة الرسالة، علا صوت خليفة في أذنيها:

- تعيشي معانا هنا يا أمي، مصر تبقى للأجازات..

***

لـم يعـنّ على خاطره سـوى أن أمامه خيار وحيد: الفوز ولا شـيء غير الفوز. لا بديل لديه سـوى الخـروج منتصرًا في هذه اللعبة. عندما تنتهـي الأدوار لا بد أن يتبـوأ المكانة التي إعتادها بيـن أصدقائه. حان وقت العودة لما كانت عليه الأمور أيام المدرسـة، لا بد أن يعود عزيز البطل الذي يتبعونه.

حيـن بـدأوا اللعـب وتطلّع إلـى أوراقه تأكّد من حدسـه بـأن اليوم يومـه. أقـوى أوراق اللعب علـى الإطلاق يجاوره ولـد بنفس العلامة كفلا ارتفاع معدل الثقة بداخله. لـم يتشكك وهو يدفع بكامل فيشه إلى وسـط الطاولة أن الورقة التالية سـتعلن انتصاره المدوي. تدافعت في ذهنه ومضات إخفاقاته المتتالية عبر السنين. اعتزال مبكر أُجبر عليه من الملاكمة، ثم تحديد دوره في شـركات أبيـه. فقدانه أغلب ثروته حين غامر دون حسـاب مع الشـركاء الأجانب. حين يفوز اليوم سيسـتطيع مواجهـة أخيه رافـع الرأس رئيسًـا لمجلس أمناء صنـدوق يتحكم في ملايين الدولارات. وسـيتوقف نظر الناس إلى أخيه باعتباره هو وحده مَن يمثل العائلة كابن ناجح، وسيعود اسمه إلى مقدمة التقديمات حين يُذكر اسم العائلة.

ويوقـن كذلك أن فوزه سيسـاهم في إنجـاح خطته الخاصة بهدى. فـلا بد وأنها ستـــترجع حبهـا القديم له حين تراه بطـلًا من جديد. لم يكن موضوعها يشـغل باله وهو يستعد للمباراة. مكالمة أمين في اليوم السابق هي التي أوحت إليه بتحركات لم تكن في حسبانه. ظنها مكالمة عادية مع صديقه الأقرب، حتى صارحه أمين قبل انتهائها:

ـ في موضوع محتاج أقولك عليه.

ـ خيرا

ـ أنت أول واحد يعرف الموضوع.

ـ قول يا عم أمين..

ـ هاتجوز هدى.

ـ نعم؟!

ـ أنا وهدى هانتجوز، وحبيت تكون أول واحد يعرف الخبر.

ـ وهي موافقة؟

ـ أكيد يا عزيز.

ـ وانت شايف إن ده صح؟

ـ إيه الغلط في إننا نتجوز؟

ـ الغلـط أنك مش عامل لي حســاب، مش عامل حسـاب للي بيني وبينها.



ـ اللي بينك وبينها انتهى من ثلاثين سنة يا عزيز!

ـ أنت قررت إنه انتهى، بس ده مش صحيح.

ـ بلاش أوهام يا عزيز، من فضلك افرح لنا وبارك لنا، أنت مهم جدًّا عندنا احنا الاتنين.

ـ مبروك!

فكَّر أن يعتذر عن عدم حضور تجمعهم، لكنه عاد رافضًا الانسحاب وقد أرهقته هزائم حياته. في الصباح قرر أن يمسك بزمام الأمر. ذهب إلى هدى عازمًا على إخبارها بما يشعر به ولم يطلع عليه أحدًا من قبل. سيخبرها بيقينه أنه مريض بمرضٍ عضال. سيشركها إحساسه باقتراب أجله، وأن رحيله عن الدنيا قد حان. ولا بد سيجعلها هذا الخبر تعيد النظر في قرار زواجها بأمين. مرضه سيقرب بينهما من جديد وربما يكون هذا القرب سببًا لشفائه.

سيتصر على أمين وعلى أخيه وعلى المرض، وسيسعد بهدى من جديد حين يشعل جذوة حبها التي يثق أنها لم تنطفئ يومًا بداخلها. اليوم سيسود من جديد ويعود بطلًا كما كان دائمًا في أعين مَن حوله، وستنتهي وحدته ويدين له العالم ويحسده الجميع.

وستكون لحظة فوزه هي اللحظة التي سيخبر فيها الجميع بمرضه قبل أن يعلن أمين نبأ ارتباطه بهدى. هكذا تكتمل الخطة، ولن يتمكن

مَـن أصبـح غريمه في حبيبته مـن أن يفوز بها. لن يُتيـح لأمين الفرصة لكي يعلن عن نيته الارتباط بهدى، وسيفوز بتعاطف الجميع.

***

لـم تتصوّر هدى أن ينقلب يومها على ذلك النحو الذي حدث منذ ساعات الصباح المبكرة. نامت فرحة بما تخيلته من أحداث ليلة رأس السنة. سـيلتقي الأصدقاء، وتتعالى الضحكات ومع بدء العام الجديد سيـرون بمفاجأة ارتباطها بأمين.

كما اتفقا احتفظا بقصتهما لنفسـيهما دون شـركاء. قاومت نفسـها مـرات لكي لا تُسـرّ لعايدة بقصتهما، حيث تمنّت لـو تتأكد ممّا تمر به من شـعور، وأن تسمع استحسـان صديقتها المقربة. لم تكن تشك في شـعورها رغم أنها تفاجـأت في البداية بهذا الشـعور. حيـن قبّلها يوم لقائهما في برشـلونة أذهلها ذلك الإحسـاس الطبيعي الذي لا يشـوبه ارتياب. شعور طبيعي وصحيح حتى إن شعرت به متأخرًا!

ومثلمـا أدركت شـعورها متأخـرًا، أدركـت كذلك أنـه كان دائمًا، بطريقـة أو بأخـرى، رجلهـا التي تسـتند عليه. هـو أول مَـن يتبادر إلى ذهنهـا حين تحتاج رأيًا أو نصيحة، وهـو أول مَن يقف إلى جانبها متى احتاجـت لسـاعد قـوي. هو مَن تشـعر أنـه يحتويها ويصرف عنها ما يؤرقهـا. الوحيـد من بين "ثلـة الرجال" الذي ائتمنته على سـر زواجها السـري، فطمأنها. رغم إدراكها الآن أنه قد فعـل وبقلبه غصة ومرارة. عرفت أنه دومًا قدّم إليها كل ما أسعدها.

لما علم بالخبر لم يتركها حين غلبتها حسرة فقدان جنينها، بل ظلّ إلى جوارها تاركًا أعماله حتى اطمأنّ عليها. كان دائمًا في عينيها الرجل الواثق الذي يستطيع أن يحتوي مَن حوله بمشاعر الأمان والقوة. افتتنت به ربما منذ يوم تعارفا بالمدرسة الثانوية، لكن ميول المراهقة جنحت بها نحو الشاب مفتول العضلات.

الآن استجلت إحساسها: رغبتها فيه كرجل تُحبه توارت فيما يبدو وراء قيود الصداقة ووجود عزيز كخلفية طاغية الألوان في لوحة هادئة. كل منهما كان يخشى، إن حاول تجاوز تلك الحدود، أن يفقد الآخر تمامًا. وبعد لقاء برشلونة انتهت المخاوف، وأطلقا ما كان مقيدًا في قلبيهما.

اعتراها القلق حينما لم يرد على الرسالة التي أرسلتها إليه بعد زيارة عزيز في صباح اليوم. لم يرد ولم يحاول أن ينفرد بها ليفهم مغزاها. أشعرتها تصرفاته بالحيرة حين لم يبدُ عليه أي أثر لمطلبها بتأجيل إعلان ارتباطهما. تعرف عناده وإصراره على إعلان ما اتفقا عليه. خشيت أن يظن أنها تراجعت، أو ما زالت مترددة، أرادت لو تخبره بأنها لم تتراجع، ولكنها تريد حلًّا فيما أخبرها به عزيز. لم تشأ أن تكون علاقتهما سببًا في جرح غائر لقلب صديقهما الذي اقترب يومه.

ضايقها ما ذهبت إليه ناديا في تفسيرها لحال عزيز. وجدت في تشخيص صديقتها، المعالجة النفسية، قسوةً لم تطمئن إليها.

ـ عزيز عنده مرض نفسي يا هدى. أنا متأكدة إنه بيعاني من الاضطراب الوهمي. اضطراب عقلي لا يمكن للمصاب بيه إنه يفرّق بين الحقيقة والأوهام.. بالعكس الأوهام اللي بتكون العرَض الأساسي.

ـ مجنون يعني يا ناديا؟

ـ المرض النفسي مش جنون، عزيز من سنين وهو واهم، واهم في قدراته وفي إن الناس كلها ضده، شايف إن أخوه ظلمه مع إننا كلنا عارفين إن أخوه هو اللي شايله وواقف معاه بعد ما بدّد كل ثروته. لو كان ظالم كان رماه بعد كل التطاول اللي عزيز عمله والاتهامات اللي عمره ما بطّل يقولها في حقه. أنا شرحت تشخيصي قبل كده لاخوه، وطلبت منه يحاول يعالجه، لكن للأسف هو طلب مني أسكت. عندنا هنا المرض النفسي عيب وفضيحة والأهل يفضلوا يتستروا عليه على إنهم يعالجوه. حكاية إنه مريض وبيموت يا هدى هي أحد الأعراض اللي المريض بيوصلّها مع تطور الحالة. كلامي بيأكده كلامه معاكي: لا شاف دكتور ولا حد شخّصه؛ مجرد هواجس وأوهام هو بيشعر بها. إنتي قُلتي له نعرضه على دكاترة وكان رده بمنتهى البساطة إن مفيش علاج. حواره معاكي النهارده مخليني متأكدة تمامًا من تشخيصي.

جميعهم ينظرون إلى كريم وناديا نفس النظرة. كلاهما عالم متفوق في مجاله. يستمعون إلى ناديا معجبين بعمقها إعجابهم بمثاليتها الشديدة وضميرها اليقظ دائمًا، الذي كان وراء فكرة ترتيب

أوراق اللعب هذه الليلة وتوجيه الأمور نحو فائز بعينه. حديث عابر دار بينهما فسيطرت عليه الفكرة، يوم قالت:

ـ عارف يا أمين لو أقدر كنت كسّبت عزيز!

ـ ليه عزيز بالذات؟

ـ لأنه أكتر واحد محتاج المكسب ده، أكتر واحد هايفرق معاه.

حين أمعن التفكير وجد في ذلك مكسبًا لـه هو أيضًا. إن فاز عزيز سيخفف فوزه من وقع الإعلان عن حبه لهدى. ستغلبه نشوة الانتصار فيخبو رفضه للخبر. كان قلقًا من غضب محتمل لصديقه. يدرك تمامًا أن ارتباطه بهدى لا يجب أن يسوءه، لكن ذلك العهد الذكوري غير المكتوب يثقل ضميره. وما زال عزيز يعتبر هدى ملكًا له، أو أنها، على الأقل، ليست متاحة للمقربين منه. لم يُطل أمين التفكير وسارع بترتيب حدوث ما أوحت به ناديا. سيفوز عزيز فيلهيه مكسبه عن غضبه.

تحسّست هدى السوار الذي أهداه لها أمين وتذكرت ما نُقش عليه. ترددت كلمات شوقي المحفورة عليه على طرف لسانها بمذاق عذب جذاب:

"لست أمام عيني ولكنك كل ما أرى".

***

كم تمنّت لو أن علمها بخفايا النفوس البشرية داوى حالها. أوحشها جوستاف، على الرغم من الجرح الذي سبّبه لها رحيله. رحيل مفاجئ

لـم تتنبـه لمقدماتـه التي اسـتمرت لسـنين. ورغم كل ذلـك، ما زالت ذكـرى وجـوده تدمي ذلـك الجرح السـخين. تعرفت بـه حين جاءت غريبـة إلى أرض الڤايكنج. أسـتاذ علم الإنسـان بجامعة سـتوكهولم، عوّضهـا بدفء شـخصيته عن البـرودة التي أحاطت بهـا. أحبّت طيبته وحسـن ظنه بالبشر. أنساها ما تعرضت له من ظلم وأخذ بيدها ومدها بالأمـل فـي وقـت كان أجدى باليـأس أن يتملكها. عاشـا حيـاة هادئة متسـقة مع سـمة شـخصيته. طالمـا طمأنها ومدهـا بالقـوة والصلابة، وزادها حبًّا له انغماسـه في دراسة الإنسـان منذ بدء الخليقة وتبحره في علوم الأنثروبولوجيا، ولكنها هي ذاتها العلوم التي أبعدته عنها:

ـ لم أعد أجد نفسي هنا في أورُبا.. أريد الحياة بين قوم أكثر بدائية، ناس أقرب للفطرة..

ظنّته يبدأ إحدى مناقشاته الفلسفية، قالت:

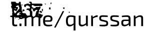
ـ لو وجدتهم في عالمنا ستكون محظوظًا.

ـ وجدتهم ووجدت بينهم راحتي التي أبتغيها.

كان عائـدًا مـن إحـدى رحلاتـه البحثيـة في الهنـد. قال إنـه وجد مجموعـة منعزلة هناك وإنهم بزهدهم في التطور الحضاري يمثلون له الحياة التي يرغب فيها.

ـ موضـوع بحثك القادم؟

ـ بل موطني الذي اخترت أن أقضي به ما تبقّى من عمري.



وبهدوئـه المعتـاد حـزم أمره ورحـل إلى الشـرق البعيـد، دون أن يدعوهـا لمرافقتـه. وحيـن سـألته، فسّـر لها الأمـر بأنه لا يسـتطيع أن يفـرض عليها اختياره. ومثلما لم يحاول أن يدفعها لمشـاركته اختياره قررت هي ألا تثنيه عن هذا الاختيار.

لا تعرف لو كان دعاها، هل كانت ستجيب الدعوة؟ ومع ذلك فقد شـعرت بأنه غير متمسـك بهـا، فتحصّنت بكبريائهـا وتركته يرحل في هدوء. وتعمّق جرحها حين لم تتلقَّ اتصالًا منه منذ غادرها فاسـتعانت بعزوفه لتتغلب على مشاعر فقدانه كلما ساورتها.

قبـل أن يرحـل ترك لهـا أوراقًا تحررها مـن قيد زواجهمـا، ومعها صكـوك ملكياتهما المشـتركة. لم تجد قدرة علـى توقيع أيٍّ منها حتى اليـوم. فما زال يسـتوطن قلبها وما زالت تفكـر في إن كان يجب عليها أن تلحق به! تفتقده ولكنها لا تظن أنها قادرة على أن تزهد مثله في كل شـيء، فما زالت في دنياها مجالات لـم تختبرها. آمنت طوال عمرها بأن أحدًا لا يستطيع أن يحدد وقت رحيله، ورغم هذا تظن أن الحياة لا نهايـة لها. هي الآن عند مفتـرق طرق ما بين البدء من جديد أو اللحاق بمَن قرر أن يتركها. هل تسـتطيع الزهد مثله؟ وهل سـتجد فيما ارتحل من أجله سعادتها؟

إن تمسـكت بنسـق حياتها المريـح، وجرّبت آفـاق بدايات جديدة قـد توصم بالأنانية. لكن مَن منهما الذي يسـتحق هذه الصفة؟ ربما لا مـكان لها في هذا الأمر أصلًا، وربما وجب على كليهما اتباع ما يقوده

إليه فؤاده. تدرك أنها بحاجة لقرار قريب: إما أن توقّع على ما خلف من أوراق، وإما أن تتبعه إلى حيث اختار أن يعيش.

***

لو استطاع إبراهيم أن يكشف عمّا يجول بأذهانهم لتخلّص من حيرته. اكتملت فكرة الرواية وتملّكت كل زوايا عقله. كان يفكر في الجائزة التي سيتنافس عليها أبطال روايته. فكّر في أن تكون مبلغًا ماليًا كبيرًا، ولكنه وجد في ذلك بعض المعضلات التي قد تثير النقاد حين يرون أن ما يجمع بين الشخصيات هو مجرد اللهاث وراء القمار. لا يجب أن تكون دوافع التنافس مادية فقط، بل عليه البحث عمّا يؤجج التوتر بينهم. انشغل فيما يصلح أن يكون جائزة مناسبة بخلاف تلك الجائزة التي يلعبون عليها هذه الليلة والتي لن تكون كافية لأن تجذب القراء وتستغرقهم في تتبع الأحداث. قد يدفعهم للتنافس على مَن يخلف أمين في إدارة كافة أعماله والتحكُّم في ثروته. ومع ذلك فإن هذه الحيلة تستلزم أن يغير في تكوين الشخصيات كي يصبح أصحابها مؤهلين جميعًا لتولي ذلك المنصب. كما يستلزم أيضًا أن يكون هناك سبب درامي كافٍ يدفع أمين للتخلي عن كل ما يملك!

يجب إذن أن تكون فرضياته منطقية، فطالما كره استخدام الروائيين للحلول القدرية في حل معضلات كتاباتهم.

وحين أمعن التفكير في عدد شخصيات الرواية، رأى أن عدد أصدقائه قد يكون كبيرًا وقد لا يسمح للقارئ باستيعاب مفاتيح كل

منهم. لكن هناك شخصيات حتمية لا بد من وجودها، كشخصية أمير، فهو المعادل الموضوعي الذي يجمع بينهم، وستكون شخصيته محيرة جذابة، ستعجب القارئ وتربطه ببقية الأحداث، وسيجعل صعوده ملوثًا بالفساد وثروته موصومة بتنازلات أخلاقية، هذه هي التيمة التي تروق للمزاج العام الذي ترتبط في مخيلته الثروات بالفساد. هدى أيضًا لا بد أن تكون حاضرة لأن صعودها ونجوميتها وعملها بالفن سيلهب حماس القارئ. التمعت في ذهنه فكرة المزج بين شخصيتي عزيز وكريم. سيخلق منهما شخصية واحدة، امتلكت أسباب البطولة والتفوق، لكنها ضلّت طريق النجاح، ستكون شخصية مركبة تفتح له الآفاق لاستعراض قدراته الإبداعية في رسمها. لا يدري لماذا استسهل قراره بإلغاء شخصية ناديا. ابتسم بخبث حين تذكّر ما تعرفه وحدها عن مغامرته المخزية يوم حرّرته من يد شرطة ستوكهولم. سيكتفي بعايدة رغم أنه يراها أقل أصدقائه ثراءً دراميًّا. لكنه اعتاد أن يجعل إحدى شخصياته على الأقل عادية. تذكّر أيام صباه وأول ليلة رأس سنة جمعتهم حين لم يجد غيرها كي تكون محل إعجاب مراهقته.

ولأنه يعرف أن الرواية بحاجة إلى علاقة عاطفية تربط بين أبطالها، سيجعل النجمة السينمائية تقع في غرام الكاتب. وسيكون حبًّا من طرف واحد إلى أن يشعر بها، وسيعزو كتمانها عدم الإفصاح عن حبها إلى ظنها أنه صعب المنال بالنسبة لها. وقد تكون ابنة لبيئة اجتماعية أقل من بيئته، فالكاتب ابن عائلة من أصهار الأسرة العلوية، بينما هي

ابنة لأحد المدرسين متوسطي الحال. حين يعلن لها عن حبه ستكون أهم لحظات حياتها، ستكون اللحظة التي تعتبر فيها نفسها كاملة الأهلية لأن تكون واحدة من ثلة الأصدقاء. بل لعله يجعل شخصية الكاتب محل صراع كل النساء في روايته. كلهن يعشقنه في صمت، لكنهن يرين أنهن دونه، وهو في عليائه لن يفكر في أيهن. سيجعلها أهم نقاط الصراع في الرواية وستنتقل منافستهن إلى اللعبة التي يلعبنها حتى ينلن إعجابه.

تخيل إبراهيم مشهد النهاية. تمامًا مثلما يفعل قبل الشروع في الكتابة، يستحضر مشهدي البداية والنهاية أولًا، ومتى توصل إليهما انسابت الكلمات متدفقة فوق أوراقه.

نظر إلى وجوه أصدقائه محاولًا اختيار الفائز من بينهم. لا بد وأن قلوب القراء ستتعلق بمَن يفوز، لكنه سيجعل هناك فائزًا باللعب، وفائزًا آخر بالحياة. سيجعل أكثرهم إبداعًا هو المنتصر لا الأكثر حظًّا كما يجب أن يحدث في عالم الحقيقة.

شعر ببعض الاستياء حين استعصت النهاية على مخيلته. عاد إلى ما دفع بالفكرة إلى ذهنه لعله يجد هناك خيطًا يجدل منه المشهد الأخير. تذكر حين قال أبو أمين:

"ورقكم هو نصيبكم من الحياة".

ستكون هذه العبارة هي محور حبكة الرواية. سيحتاج مزجًا بارعًا بين ما بأيدي اللاعبين من أوراق وما أصابوا في حياتهم. سيستخدم

كل ما لديه من موهبة وخبرة إبداعية لكي يجعل أوراق كل منهم مرآة لتجاربه في الحياة.

وفي لحظة نادرة توصّل إلى فكرة النهاية التي ستطير بروايته إلى أبعد الآفاق، وتجعلها حديث المثقفين والنقّاد لردحٍ من الزمن، فهو يعلم كيف يعشقون الرواية ذات الأبعاد، المفعمة بالرمزية والإسقاطات. لن يكون هناك فائز واحد ومجموعة من الخاسرين، سيفوز الجميع وسيخسر الجميع.

كم جائزة ستحصدها هذه الرواية، وكم طبعة ستُصدرها دار النشر بعد نفاد طبعتها الأولى، وكم ناشرًا سيسعى خلفه ليفوز بنشر عمله التالي؟

***

أعادهم عزيز إلى اللعبة إثر صيحة فاجأت الجميع:

ـ ما توزع يا أمين، خلّصنا!

التفت إليه أمين، ثم جال ببصره بين وجوههم، ولجزء من الثانية، ومضت الفكرة الغائبة عن عقله. وأدرك لتوّه، أنه ليس في حاجة إلى شراء صمت عزيز وموافقته. فأيًّا كان الفائز الليلة، فبإمكانه امتلاكهم جميعًا بقرار واحد: قراره أن يشركهم ملايينه!

كان شعورًا بالغصّة ما زال يملؤه للهجة الرفض والتسلط التي تحدث بها عزيز حين أخبره بنية زواجه بهدى. وشعور آخر بالضيق

والخسـة لترتيبه أوراق اللعب على هذا النحو الظالم، في حين أن كلًّا منهم لديه رغبة الفوز.

تردّد في كشـف الورقة المتبقية معلنًا فـوز عزيز. لو أنه أعاد تقليب الأوراق لتسـاوت الفرص بينهم، ويفوز الأكثر اسـتحقاقًا، ولن يؤرقه ما فعل.

امتلكـه التوتـر وتدافعت الأفكار في رأسـه، وأصابتـه أعينهم التي تعلّقـت به بخدر مزعج في يديه. كأنه يعجز عن الحركة. تذكّر في هذه اللحظة يوم ترك الفوز لصاحب السـمو. لم يجد رغبة في الاستسـلام مـرة أخرى لرغبـة أو نزوة يمليها أحد عليـه. الآن ليس لديه قدرة على التسامح أو التنازل عمّا يعرف أنه حقه وحده.

الورقـة التالية، هي "ملكة" تضمن لعزيز الفوز. وهو يدرك أن بيده، حيـن يختار أي ورقة يـسحب، أن يقرر مَـن الفائز. هو الآن يتحكم في كل شـيء، وليس لمَن يتحلّقون حوله أي حيلة في تسـير الأمور. الآن يتخـذ قـرارًا: سـتكون يد القـدر هي مَن يختـار. لن يتخلى عن ملكته ومستقبل سعادته.

سـيضنّ بها على العالم كله، ولن يتهاون في سـبيل الحفاظ عليها، مهما كانت الظروف!

خفـت اندهاشـه مـن أن جميعهـم ألقـى بكل فيشـه إلـى منتصف الطاولة. آمن دائمًا بأن هناك في حياة كل إنسـان لحظة يحتاج فيها إلى أن يراهن بكل ما يملك.

....

أخـرج مـن الـدرج السـري مجموعـة جديـدة مـن الأوراق. وبيد المتمـرس الخبير قلّبها مـرة واثنتين وثلاثًا قبل أن يكشـف عن الورقة الأخيرة. بينما يتردد صوت يسري في آذان الجميع:

- كل ورقة ممكن تكون هي سبب سعادتك!

شلة ليبون

سبعة أصدقاء تجمعهم صداقة تمتد لأطول من ثلاثين عامًا منذ تزاملوا في المدرسة الشهيرة بحي الزمالك. مهما فرقتهم الأيام لم يفوتوا على الأقل لقائهم السنوي ليلة رأس كل سنة في شقة أحدهم بعمارة ليبون المطلة على نيل القاهرة الخالد. ليلة رأس السنة 2010 مختلفةً حين شدتهم لعبة اختاروا أن يلعبوها من أجل فوز أحدهم بجائزة كبرى. وسط استغراقهم في لعبتهم نتعرف على حكاياتهم التي تشابكت خيوطها واتسقت بغرابة مع مجريات ما اعتدنا تسميته لعبة اتضح أنها أقرب ما تكون لمقدرات الحياة .

هشام الخشن، مهندس مدني وروائي مصري، من مواليد القاهرة عام 1963. له مجموعة قصصية بعنوان: «حكايات مصرية جدًا» 2010، وروايتا: «ما وراء الأبواب»، و«7 أيام في التحرير» 2011، وقد تحولت الثانية إلى مسلسل تلفزيوني، ورواية: «آدم المصري» 2012، ومجموعة قصصية بعنوان: «دوينو» 2013، ورواية: «جرافيت» التي صدرت عام 2014، ووصلت إلى القائمة الطويلة لجائزة البوكر في العام نفسه، و «تلال الأكاسيا» 2016، و «حدث في برلين» 2018.

الدار المصرية اللبنانية